

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190045

UNIVERSAL
LIBRARY

ذِكْرُ رَايَاتِ بَارِيسَ

صُورُهَا فِي مَدِينَةِ النُّورِ مِنْ ضِرَاعِ بَيْنِ الْهَوَى وَالْعَقْلِ وَالْهَدَى وَالضَّيَالِ

بقلم

ذِكْرُ مِثَارِكِ

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب

من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية

واسستاذ بالليسيه فرانسيس بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْخَارِجَةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِمِصْرَ

لَهَا مِمَّا: د. طه محمد

الطبعة الثامنة بغير

ذِكْرُ رَأَيْتَ بَارِيسَ

صُورًا فِي مَدِينَةِ النُّورِ مِنْ صِرَاعِ بَيْنِ الْهَوَى وَالْعَقْلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ

بقلم

ذِكْرُ مَبْنَى رَأَيْتَ

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب

من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية

واستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْخَارِجَةِ الْكَبِيرَةِ بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِمِصْرَ

لِصَاحِبِهَا : مصطفى محمد

الطبعة الرحمانية تبصرة

١٠٢٨٢

مؤلفات زكي مبارك

١ ٥٢ف

الأخلاق عند الفزالي

٢

La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire

٣

البدائع

٤

حب ابن أبي ربيعة وشعره

٥

Etude sur la Lettre Vierge شرح الرسالة العذراء

٦

الموازنة بين الشعراء

٧

مدامع العشاق

٨

أثر الشعر في ربط الشعوب

٩

سراثر الروح الحزين

١٠

النثر البغني في القرن الرابع

تحت الطبع

الإهداء

إلى الصديق الذى وصل جناحي وراشَ سهمي
إلى الأستاذ « عبد القادر صحره » أهدى هذا الكتاب
زكى مبارك

مصر الجديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣١

تمهيد

أيها القارىء!

كنت عودتك إلف المقدمات الطوال ، كالذى فعلتُ فى
تقديم كتاب «حب ابن أبى ربيعة» وكتاب «مدامع العشاق»
ولكننى لا أجد ما أقول فى تقديم هذا الكتاب غير السطور الآتية:
عرفت باريس وأهل باريس معرفة قَلَمًا تُقدَّر لانسَانٍ سِوَايَ ،
ولم يكن ذلك فقط لأننى اتصلت بها نحو خمسة أعوام . وإنما
كان ذلك لأننى وصلت إليها بعد يأس وبعد شوق . وكانت كل
زَوْزَةٍ تبدو لعينى وكأنها الأولى والأخيرة ، فكنت أنهب
محاسنها فى شَرِّهِ وَنَهَمٍ كما يفعل الصبُّ المولع وهو يودّع حسناء
ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب . ويا طالما
ودعت من أسراب الحسان! أضيف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس
كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه إلا الأَقْلُونُ ،
وكنيت قبل ذلك أَلِفْتُ تلك اللغة ألفة شديدة ، حتى كان لا يتكلم
بها جماعة فى جِدٍّ أو هزل إلا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس
الفاحص الذى يدرك مظهر وما بطن من أسرار الحديث (وهذا
كل ما عندى من عيوب الفضول) فكان ذلك معوانًا على فهم
ما طُبِعَ عليه الفرنسيون من شتى الغرائز والخلال
طالت إقامتى فى باريس ، وكانت لأغراض علمية سدّد الله

فيها خطاىَ وهدانى سواء السبيل . ولكن دراساتى لم تحل بينى
 وبين التأمل فيما يقع فى مدينة النور من صراعٍ بين الهوى والعقل
 والهدى والضلال . فأنشأت كثيرا من القصائد والرسائل فى
 أغراض مختلفة بعضها من وحي العقل وبعضها من وحي الوجدان
 وقد عدت إلى تلك الثروة الأدبية فأضفت جزءاً منها إلى
 أصول كتابى «سرائر الروح الحزين» وجزءاً إلى مواد الطبعة الثانية
 من كتاب «البدائع» والباقي هو هذه الأقباس التى أقدمها اليوم
 يقول المسيودى كومنين: إن الكريم لا يذكر البلاد التى رحل
 عنها إلا مصورةً بصورة من عرف فيها من كرام الناس . وكذلك
 تبدو باريس على البعد ممثلةً فى شمائل انسانين اثنين هما المسيو
 بلانشو وابنة خاله كرمة الجنرال بونال . والمسيو بلانشو - سكرتير
 اتحاد الطيران فى باريس - آية من آيات النبيل والخلق العظيم ؛
 وابنة خاله الآنس سوزان مثالٌ أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس
 وحياة الوجدان . ويعلم الله ما ذكرت هذين الانسانين إلا غلبنى الدمعُ
 وقهرنى الشوقُ وصهرنى الحنين . وستظل باريس قبلةً روحى
 ما بقيت فى النفس ذكرى ما بقيت عندهما من عطفٍ ورعاية وحنان
 تلفتُ حتى لم يبق من دياركم دُخانٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
 وإن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالى نحوكم ليزيد
 بعد هذين الانسانين تتمثل باريس فى صور الاساتذة الكبار

الذين انتفعت بعلمهم هناك أمثال دُوميك و مَرْنِسِيه وديموميين
وكولان وماسيينون و تُونلا وديبويه وميشو وشامار ومورنيه
وبعد أولئك وهؤلاء تتمثل باريس في صُور تلك الوجوه
الصُّباح التي رأتها عيناى وألفها قلبي ثم أقصتني وأقصتها ضرورات
الحياة إلى حيث لا أمل في تراسل أو تلاق، برغم ما قيدنا من
العناوين ، وما حددنا من المواعيد

يا أخت ناجية السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل عذل العذلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
واليوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجا
في عنف وطغيان فتغرق الروح في كوثر النعيم المتخيَّل المرموق ، فإذا
عسى أن أفعل للنجاة من ذاك الطوفان ؟ أأفرع إلى صفحات هذا
الكتاب ؟ كيف ولم يكن إلا ظلالا خفيفة لما لقيت في باريس من
مُتَع الحياة ، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات : لأن أطيّب
الذكريات لا يكتب ولا يقال ، وإنما تقلّب به النفس في هدآت الليل
كما يفعل الشحيح وهو يقلّب كنزه المدفون

رباه! ماذا أبقيت لي من باريس ؟ ألا تراني أروح إلى السينما الناطق
في صَبْوة وجنون أَسْمَع كيف يتكلم الباريسيون وأنظر كيف
يُجَدّون وكيف يلعبون ؟ إلى اللقاء يا باريس إلى اللقاء يا مدينة المجد
والحب والجمال ! إلى اللقاء يا وطن البسيو بلا نشو والآنسة بونال !

بِبن الحب والمجد

لم تُنسني فتنةُ الدنيا وزينتها ما في شمائلك الغراء من فتنةٍ
أطوف بالحسن تصييني بدائعهُ كما يطوف مُعْنَى القلب بالذمّنِ
فلا تثير مغايه ونضرتهُ في ظل ذكراك غير الهم والحزنِ
آمنت بالحب لولا أنت ما جمعت مني الضلوع إلى أهلٍ ولا وطنِ

يا من تحيرتُ لأدري أيسعدني غرامه أم هواه مِحْنَةُ المِحْنِ
ما ضرَّ لو نَعِمْتَ عيناى أو شقيتُ قبل الفراق بمرآى وجهك الحسنِ
لولا مثالك في باريس المحمُ في طلعة البدر أو في نضرة الفننِ
ما صافح النوم أجفاني ولا احتملت جوانحي ما أثار البين من شجنِ

جَنَتُ على الليلي غير ظالمةٍ إني لأهلُّ لما ألقاه من زمني
فأرأيت من الأخطار عاديةً إلا بنيت على أجوازها سكّني
ولا لمحت من الآمال بارقةً الا تقحّمت ما تتجّاز من قنني
أحلتُ دنيائى معنى لا قرار لهُ في ذمة المجد ما شرّدت من وسني

١٢ يونيه سنة ١٩٢٧

ثورة الوجد

نسيتم العهدَ واسترحتمْ من لوعة الحافظِ الامين
فليت ما راضكمْ فنتمم أراح بعد النوى جفوني
وليتنى إذ يئستْ منكم كبحتُ في غرْبتي شجوني

*
* *

ولى خِداعُ المنى وقرَّتْ مطامحُ الواجدِ الحزينِ
فما بكائى على حبيب لم تُقضَ فى حبه دُيونى
أَلقيتُ بالنفس من هَواه فى لُجة السَّحرِ والفُتونِ
وقلتُ أرتادُ من صباه ملاعبَ الطيشِ والجنونِ
فما تذوَّقْتُ من جَناه إلَّا صَدَى النوحِ والالينِ

*
* *

يا رَوعةَ البدرِ فى سَماه وفتنةَ الزهرِ فى الغُصونِ
تَناسَ ما شئتْ سَوفَ تَخبو حرارةُ الدمعِ فى الشُّتونِ
وسوفَ تَبلى على الليالى غرائبُ السَّحرِ فى العيونِ
أَسْتَغفِرُ الحُبَّ سَوفَ يَبقى على صُرُوفِ الالسى حنينى

باريس فى ٣ يولييه سنة ١٩٢٧

الى باريس

قبل الرحيل

بعد شهور طوال أسهرتُ فيها ليلي ، وأشقيتُ فيها نهارى ،
صحت منى العزيمة على العودة الى باريس . وكانت نشوة فرح
نشبه نشوات الطفل حين يحدثه أهله غن سفر سعيد ، وكدت
أكتب الى خالصائى : أيها الاصدقاء ، أنا عائد الى باريس ! ولكنى
توقرت ، وكتمت فرحى ، وأقبلت أعيداً ما لم أكن أعدته من
المفكرات والمذكرات . . والملابس ! وانطوت الأيام بسرعة
خاطفة ، ومضيت الى « سينتريس » لتوديع أبى وأهلى وأصدقائى ،
وكان منى ما تعودته من الجمود حيال تلك الدموع الحرار التى
يسكبها الوالد — لا عدتمته — كلما أسلمنى الى رفق الله ولطفه فى
سفر بعيد . ومضت فى السيارة وهى تحمل منى قلباً راضته الأيام
بعد الجموح ، وعلمته كيف يحمد ويتحجّر أمام أهوال الفراق .
وجاء صباح السبت الأخير من يونيه ، وإذا أنا أمضى بأقدام
ثابتة الى محطة « باب الحديدي » ، وفى انتظارى أصدقاء قلائل جداً
ثلاثة أو يزيدون ! وغاب عن ذلك اليوم أصدقاء كنت آمل أن
أراهم هناك . وهم القطار بالقيام فحسدت المسافرين الآخرين : لأن

مودعيهم كانوا من الجنس اللطيف الذى يحسن التوديع ، ويقدم
اليه أصلح وقود من التقيل ، ثم التلويح بالمناديل البيض !
واكتفيت من مودعى الفضلاء بعبارات : فتح الله عليك ،
وجعلك من السالمين الغانمين ! .

فاللهم تقبل من عبادك الصالحين !
في الباخرة :

مرت الساعات بين القاهرة والاسكندرية وأنا مقسم
الفكر ، منتشر الروية ، أنظر تارة في الصحف ، وأخرى الى
ما نمر به من الحقول ، حتى أسلمنا القطار الى الباخرة في غير عناء .
ونقلت أمتعى الى مكانى فى السفينة ثم جاءت ساعة الغداء فشغلنا
عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ،
وهيات ! فقد تبادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن
وما فراقه : إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب
ووضعت المائدة ، وأقبلت أتخير مكانى بين المسافرين .
والمسافرات ، فلمحت مكانا خاليا بين سرب من الأطباء . فبادرت
الى احتلاله . وإذا صديق من زملائى الفرنسيين يقول : ماذا
تريد يا مسيو مبارك ؟ هذا مكان مشغول !

ماذا أريد ؟ ، ماذا أريد ؟ !

الخليث يعلم ما أريد ، ولكنها الأثرة والغيرة واللؤم .

كل أولئك حمله على إقصائي عن المكان المنشود !
ورجعت أتلفت علني أجد مكاناً طيباً بين جيرة يحقق لهم
القلب ، وتهفو اليهم الجوانح ، فلم أجد بعد البحث الطويل .
وانتهى بي المطاف عند طرف من المائدة فيه اثنتان من العجائز ،
وفيه رجل مصرى . أما العجائز فالقارء يدرك أن الأُنس بهن
محال . والرجل المصرى ، ما حاجتنا اليه ، وقد تركنا في مصر خمسة
عشر مليوناً غير آسفين ! على أن المصرى في مثل هذه الأحوال
قد يكون هو « الانسان » الذى عناه الشاعر حين قال :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطيّر

وكذلك مرت أيلى فى الباخرة والملائكة مستريحون لم
يكتبوا فيما أظن سطرأ واحداً فى صحيفة السيئات ، وأحسبهم
يتورعون عن تقييد تلك الخواطر « البريئة » التى كانت تمضى
فى التحسر على مافات من مجاورة الحسان ! على أن النى فى بعض
الأحوال قد يكون أظهر من الرشد . وقد يكون الإثم الجارح
أسلم عاقبة من التقي المصنوع !

رجال الدين :

فى أكثر المرات أجد فى سفرى طوائف من الراهبين
والراهبات . ولى فى كل مرة ملاحظات وتأملات ، ومشاهداتى

في هذه المرة أمتع وأنفع ، والى القارىء البيان :

الجنس اللطيف لطيف دائماً ، فالراهبة أعقل من الراهب
وأبعد من الفضول ، كتابها في يدها دائماً ، تقرأ آياته في تقي
وإخلاص . وقد لاحظت أن بين الراهبات فتيات يقظر من
وجوههن ماء الحسن ، ويترقرق في أعطافهن ماء الشباب ، وفيهن
من سحر الجفون آيات بينات ، فبدالى أن الله عز شأنه أخذ
يتخير لنفسه أطايب الجمال ، ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل
تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف في شيء أن نصارح القارىء
بأنه لا خير في تقوى كثير من الناس ، لأن أكثرهم لا يتقى الله
إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق : فهي تقوى ضرورة ورياء ،
لا تقوى بر وإيمان . وبعض الأتقياء لئام لا يnehون عن الغي إلا
حسداً لأهله على ما آتاهم الله من نعم المال والجمال والشباب ،
ولو أنهم ظفروا بسبب من أسباب الفتك لودعوا التقى وهم
فرحون . وحسن السلوك عند أشباه الأبرار أشبه بسلوك العبيد
فهو في جملته ضرب من الصعلكة ولون من ألوان الموت ، وهم
يعلمون ذلك ، ولكنهم يتكفون الرضا بنحظهم من الصلاح !

الراهبة أعقل من الراهب ، كذلك أقترض ، فقد كان معنا
في الباخرة راهب شنيع الإسراف ، لا يرضيه نبذ المائدة ، لأنه
شراب عادى يبذل بسخاء للجميع ، فكان يطلب لحسابه أجود

أنواع الشراب ، ثم يدعو من حواله من الشوابّ النواهد الى
التفضل بمشاركته فى ذلك الورد المباح ! يفعل ذلك ، وأنا أنظر
اليه وملء جوانحى حقد وضغن ، فهو يفعل كل مايريد ويظل
قديساً ، وأنا لا أفعل شيئاً ثم يهاجمنى ذلك الزميل الفرنسى اللئيم
قائلاً : ماذا تريد يا مسيو مبارك ؟ !

هذا وحق الله من ° نكد الزمان وسوء حظى !
والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللثام فأوغلوا فيها ، وافتشوا
فى جمع أسبابها . والصرامة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة
والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردهم الى الحد المعقول .
وأنا والله غير نادم ، فليظفر من شاء من الأحرار ، والرهبان ،
والأشياخ ، بما شاء من طيبات الحياة ، تحت ستار التقى والدين ،
فتلك كلها حظوظ سافلة لا يفرح بها الا الضعفاء الذين يعرفون
أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض بأثقاله إلا الأقوياء الأشداء
فتاة تشكو الفراق :

كان ذلك حظى من رفقة المائدة ، ولم يكن بد من السعى
الحثيث للترويح عن النفس ، وقد وصلت بعد جهد الى التعرف
الى فتاة كانت تغنى فى مسرح . . . بالقاهرة ، وهى فتاة ناهد
حسناء ، رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، وفى عينيها النجلاوين بقايا
خطيرة من سحر هاروت وماروت الذى ورد ذكره فى القرآن ،

وفي صوتها غنة موسيقية كأنها غنة الظبي الوليد ، ولأنا ملها رقة
 جذابة تفيض بالكهرباء ، وفي خطراتها تكسروثنّ أين منهما
 الغصن المطلول ، ولها رفق بارع في إذكاء نار الحب والوجد فيمن
 تختار من أصحاب القلوب ... هي فتاة فرنسية تعودت اللهو
 بالأشخاص ، وبالأشياء ، وبالأوطان ، فلم يعد يهمها من تلقى
 ولا من تفارق ، ولم تعد تفكر أى أرض تسكن ، وإلى أى وطن
 تعود . ولكنها فيما تقول وقعت أخيراً في أشراك الحب ، بعد إذ
 سخرت بآلاف المحبين ، وبعد إذ بُذلت في مرضاتها التضحيات
 الخطيرة بلا حساب . أما الانسان الذي استطاع أن يكويها بناره ،
 وأن يردّها وهي صاغرة إلى زمرة الأشتياء : فهو شاب مصرى
 فقير ، لا يجد أسباب اللهو في أحياء القاهرة ، ولكنه يملك فقط
 عينين ساجيتين ، وشباباً قوياً ، وجاذبية تميد لهولها الجبال

كم ساعة قضتها تلك الفتاة وهي تبث الى شكواها من
 مرارة الفراق ، وكم لوعة ثارت في صدرى من حينها الى سواى ،
 وكم خلوة حلوة على ظهر السفينة استمعت فيها الى أنفاسها الحرار
 وهي تتكلف أسباب الصبر الجميل ! !

أيها العاشقة الحسناء !

أنا أيضاً ... شاب فقير !

باريس في ٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الحب الاثيم

في باريس

الانسان في عُرْف المناطق حيوان ناطق ، لأن ارسططاليس
عرّفه كذلك . وفي مقدورنا أن نقول : الانسان حيوان مخدوع .
وكنت أحب أن أقول : حيوان مغرور ، ولكنى وجدت التعبير
الأول أدق وأصدق في تحديد ذلك الحيوان الخداع المخدوع الذى
اسمه إنسان ! !

الانسان حيوان مخدوع : لأنه يخدع نفسه بما يسميه
« تجارب واختبارات » فالرجل الذى تستهويه امرأة فاجرة
فتقوده إلى بؤرة من بؤر الفساد في باريس ثم تسرق ما يملك من
عين أو نقد يرجع إلى بيته أو مثواه وهو يخدع نفسه بعبارة
« هذه تجربة » أو « مذهب من مالك ما وعظك » على حد
المثل الذى كنا نعطيه لتلامذة المدارس الثانوية ليضاف إلى
موضوعات الانشاء . والشاب الذى يحمله جنون الشباب على
غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضا يعيا في برئه الأطباء ،
يجرّ رجله على شواطئ السين وهو يدمدم : « هذه تجربة ،
هذا اختبار لمكاره الحياة » وذلك كله خداع فى خداع ، والرجل
هو الخداع وهو نفسه المخدوع .

لا أذكر أن فكرة تملكنتى وسيطرت علىّ كما استبدت
 بى هذه الفكرة : فأنا موقن أن غنيمة التجارب ضرب من الافلاس
 أو هى الافلاس ، وإلا فنافع التجارب إذا كنا سنظل طول
 حياتنا عبيداً للأهواء والشهوات ، وسخرية فى يد الهوى القاهر ،
 أو النزق الغلاب

هذه تجربة ! إى والله ! ولكن متى تنفع ؟ وهذا اختبار ،
 ولكن متى يفيد ؟

التجارب المرة تنفع صاحبها فى شىء واحد ، ذلك بانها تعطيه
 لونا من ألوان الآنين تكبر به قيمته عند من يستمعون لأحاديث
 البؤس والشقاء . والحكماء فى العالم كله قوم أفنوا أنفسهم
 وخسروا شبابهم و ثروتهم ، ثم أقبلوا يتحدثون إلى الناس بما
 يجب أن تتحلى به مجموعة الحيوانات التى تتكوّن منها فصيلة
 الانسانية . ونحن حين نستمع لأقوال الحكماء فى صمت وخشوع
 لا نفعل ذلك اعترافا بفضل الحكمة ، ولكننا نقبل عليها بأنفس
 مهددة بنفس المصير الذى تخوّفنا منه حكماء الحكماء : فالواعظ
 يبكى نفسه حين يعظ ، ولكنه يوهننا بأنه يبكى اشفاقا بنا ، ورحمة
 لنا ، وخوفا علينا ، ونحن نوهمه أننا نبكى لبكائه ، ونزل عند
 حكمته ، والواقع أننا نبكى أنفسنا حين نسمع أخبار من أشقتهم
 الرذيلة وأفناهم الإسراف ، لاننا ننحدر الى نفس الهاوية ، ونهوى

إلى ذلك القرار الذى يعز منه الخلاص

* *

طلما تحدث الناس عن الحب فى باريس ، ولذلك رأيت أن
أكتب هذا المقال لأن أكثر المتحدثين عن الحب فى باريس
يخوضون فيما لا يعرفون ، وهذه فائدة جديدة للتجارب أستطيع
بها أن أستطيل على القراء فأدعى العلم وأصمهم بالجهل البسيط ،
راجيا أن لا تجرحهم هذه الكلمة ، وأن لا يستكثروا على رجل
أشقته دنياه ، وحمله شبابه على أن يطاء جمرات الشهوات ، أن
يعزى نفسه بكلمة « جربت » و « شاهدت » إلى آخر ما فى
القاموس مما يتصل بهذه التعابير !

الحب فى باريس نوعان : حب شريف ، وحب أثيم
والحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون غير الهوى العذرى
الذى يجد القارىء آثاره فى كتاب (مدامع العشاق) فنحن نعرف
أن الهوى العذرى آية من آيات الوجد المنزه عن الآثام والشهوات
ونعرف أن العشاق العذريين قوم يجدون لذتهم الباقية فى النوح
والحنين ، ويجدون غذاءهم الروحى فى التغنى بمثل هذه الآيات :
سقى بلداً أمست سُلَيْمى تحلُّهُ من المزن ما تروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنَّه يحل به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لبيَّ وإن شطَّ المزار نعيم

وَمَنْ لَامَنِي فِيهِ حَمِيمٌ وَصَاحِبٌ فَرُدَّ بَغِيظِي صَاحِبُهُ وَحَمِيمُهُ
 الهوى العذرى الذى تحدث عنه العرب وأنطق الشعراء
 بأجل وأروع ما أوحى الحب النبيل من آيات الشعر الوجدانى
 هو غير الحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون ، وأكثر
 الألفاظ مقول بالتشكيك له عند كل قوم مدلول !
 لكن ما هو ذلك الحب الشريف ؟

هو الذى يجرى بين فتى وفتاة ، أو رجل وامرأة ، لغرض
 غير مادى ، وتقع حوادثه فى الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن
 السمعة . وهو حب معقد كل التعقيد لا يفهمه إلا من راضوا
 أنفسهم على مكارهه ، واكتووا بناره . وهذا النوع من الحب
 يخالف الهوى العذرى ، لأنه يستبيح أشنع الذنوب والآثام .
 ولكنه مع ذلك يجرى فيه الأرق ، وتسيل من أجله المدامع ،
 وتعرف فيه نكايات الوشاة والعدال ، وتتخذ من أجله الرسل ،
 وتدوّن له المكاتبات . وعلى الجملة هذا النوع من الحب هو الذى
 خلق شعراء فرنسا وكتابها وفنانيها وفلاسفتها أيضاً . ولا يوجد
 فى فرنسا رجل عبقرى لم يمسه الحب بعذاب أليم

وهذا الحب شريف لأنه يقع غالبا فى ظروف قاهرة
 لا يمكن منها الفرار ، ففى فرنسا نساء جميلات حبتن الطبيعة
 بأكرم ما تهب من ألوان السحر والفتون . والمرأة الجميلة فى فرنسا

خطر على عالم القلوب ، وأقصى الأفسدة يلين ويتفجر بالعطف والحنان أمام تلك الطباء الأوانس اللأى يخطر من حين إلى حين في الأحياء المرحلة الجذلة التي تفيض وتزخر بأسباب الطيش والجنون . ونحن والله أرق أكباداً من أن نرمى عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور . فهم قوم مساكين منحهم الله عيوناً تنظر ، وقلوباً تشعر ، وأكباداً تتوجع ، وأحشاء تتفتت ، وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشئء كن فيكون ، فكيف بالإنسان الذي تغنيه الإشارة ، وتكفيه اللحظة ؟ إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال خلق ليعشق ، فليس بعيداً أن يُسرف فيعبد الجمال من دون الله

هذا النوع من الحب طبعى لا يمكن حربه ولا دفعه لأنه فى الفطرة ، ولا يمكن أن يقال إنه خاص بفرنسا من دون الأمم فهو حظ مشاع بين جميع الشعوب . ولكل أمة منه نصيب . حتى مصر ! وإنى لأحسب أنه أُلزم للإنسان من ظله ، وأنفع له من الماء والهواء

أما الحب الذى انفردت به باريس فهو الحب الأثيم ، وهو الحب الذى تغلب فيه الدعارة والفجور ، وهو حب له ظاهر خلاب جذاب لأنه يشبه الحب الشريف من بعض الوجوه ،

ففيه أيضاً تعاطف وتراحم وحنان . وإنك لتدخل حدائق باريس في المساء فتجد مئات العشاق متعانقين فوق المقاعد مظليين بالأشجار المورقة ، ومحروسين بالحشائش الخضر . وكم من مرة تأملت هذه المناظر المربية وأنا وافر الإعجاب بما يملك أهل باريس من أسباب الحرية المطلقة التي لا نجد قبساً من شعاعها في مصر . ولكن ماذا تحفى هذه المناظر ، ماذا تحفى ، ماذا تحفى من عوامل الضعف والتدهور والأنحطاط ؟ !

إن في باريس طوائف من الفتيات ألبأهن الفقر والعوز إلى مرافقة الشبان ، أو حملتهن أزمة الزواج على الإسراع بالتعرف إلى الرجل الذي جبن عن مجابهة تكاليف الحياة الزوجية الشريفة ، وقنع بما تحمله إليه المصادفات من غنائم الإثم والفسوق ، هؤلاء الفتيات الفقيرات خطر على باريس وزوار باريس . وهن خطر محقق على الشبان المصريين والشرقيين الذين حرمتهم التقاليد الإسلامية من الأُنس بالمرأة الفاجرة ، فكم من شاب مصرى أسلم شرفه وعرضه لامرأة بَغِيّ في أول ليلة دخل فيها باريس ، وكم من شاب مصرى جاء باريس ليتعلم فظل جاهلاً ثم عاد إلى أهله يحمل أشنع وأوبأ ما عرف الطب من جراثيم الأمراض . والفرنسيون يعلمون علم اليقين أن عاصمتهم موبوءة ، وأن الحى اللاتينى حى الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء ، ومن أجل ذلك

رأيت منهم من يتباهى بأنه لم يعد إلى ذلك الحى منذ كان طالباً .
ومن الأساتذة من لا يعرف من ذلك الحى غير السوربون
والمعاهد الملحقة بجامعة باريس

وبعد ذلك فلمن أكتب المقال ؟ إن ذلك الحيوان الخدوع
الذى اسمه إنسان سيعلل نفسه دائماً ويخدعها بما يسميه التجربة ،
فهل أستطيع أن أقترح فقط على صديقنا الدكتور الديوانى مدير
البعثة المصرى فى باريس أن يضع نظاماً يفرض فيه الكشف
الطبى على الطلبة المصريين من حين إلى حين ، عليهم يتقون الله فى
أنفسهم فيفرون من أوباء الحب الأثيم ؟

باريس فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مصر فى باريس

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل
أمة دار يأوى إليها أبناءها المغتربون : فلأمريكا وبلجيكا واليابان
دور فى مدينة الطلبة . حتى الأرمن لهم دار ! أما مصر فمسكرت
عنها فى تلك البقعة الجميلة . وقد اقترح بعضهم مرة فى مجلس النواب
على وزير المعارف أن يفكر فى إنشاء دار مصرى بمدينة الطلبة
فى باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن
ينبثوا فى الأوساط الفرنسية

وهم قد انبثوا بالفعل . ولكن أين ؟ فى الحانات والقهوات !

الحب في باريس

وفي ليفربول

صديقي « ن . . . » شاب جميل الوجه ، طيب القلب ،
 سليم الذوق . عرفته لأول مرة في القاهرة في صيف سنة ١٩٢٥
 وقد فرقنا الأيام بعد ذلك ، فذهب إلى ليفربول ، وبقيت أنا
 موزع الجهد ، مقسم القلب ، بين القاهرة وباريس
 وفي هذا اليوم صادفته هائماً في حديقة لكسمبور ،
 فتعانقنا وتبادلنا أطيب التحيات ، وسألته وسألني عما لقي
 وما لقيت ، ودعوته إلى لحظة نقضيها في قهوة داركور أمام
 السوربون

جلسنا ، وتحدثنا ، وشربنا

لكني لاحظت أن صديق سنة ١٩٢٥ غير صديق سنة ١٩٢٩
 فقد كان الصديق الأول في سذاجة ، وطهارة ، ونبل ، وإخلاص .
 أما الصديق الثاني فهو إنسان مداور ، ماكر ، خيث ، محتال ؛
 لا تصل إلى قلبه إلا عن طريق النفاق

ابتدأ فلن بباريس ؛ وأهل باريس ؛ ومحبي باريس . فقلت :

استن من فضلك ! فأجاب : العفو يا ييه !

باريس في رأيه مدينة دعارة وفسق ومجون وشهوات،
وليس فيها على حد تعبيره إلا فاسق أو ختال، وقد انطلق
كالقذيفة يصف الفرنسيين بأشنع ما حوت القواميس من
قبيح الصفات والنعوت، ثم اندفع يقابل بين الأخلاق الانجليزية
والأخلاق الفرنسية، فكان الانجليز في رأيه ملائكة، وكان
الفرنسيون شياطين. هنالك ابتسمت، وقلت: الآن يا صديقي
اطمأنت عليك!

فقال: وكيف؟

قلت: كنت في شك من أمرك، فقد كنت أخشى أن
تعيش في بلاد الانجليز بدون فائدة، كما هو حظ كثير من أعضاء
البعثات المصرية، أما الآن فقد عرفت أنك استفدت!

قال: هذا غريب. أنت لم تختبرني حتى تعرف إلى أي

حد وصلت

قلت: بلى، قد اختبرتكم، وإن لم أوجه اليك سؤالاً، ولم
أسمع منك جواباً، فإن حملتك الشعواء على الأخلاق الفرنسية
تدل أو ضح دلالة على أنك أشربت أخلاق الانجليز وسجاياهم.
وقد علمتني التجارب التي كوت يدي، وأشاطت دمي، وأياستني
من صفاء الطبيعة البشرية، وأقنعتني بأن الانسان حيوان لثيم،
علمتني تلك التجارب أن أجهر الناس صوتاً في الدفاع عن الفضيلة

هم المنافقون ! وأنت يا صديقي تتأفف من هواء باريس ، وتعلن أن جوها مشبع بأوزار الغواية والفسوق ، وفي هذا دليل على أنك أصبحت إنجليزيا صميا ، ونحن نرسل أبناءنا إلى إنجلترا ليتخلقوا بالأخلاق الإنجليزية ، فلم تضع إذن الدنانير اليومية التي أنفقت عليك ، فطالب البعثة في كل يوم دينار ، كأنه ابن الملك في أساطير الأولين ! !

قال الصديق ، وعلى وجهه بوارد الألم والغيظ : أوضح .
فاني لأدرك تماما أيّ هدف ترمي ، ولا أيّ وجه تريد
قلت : يجب أن تعلم أن الإنجليز أقدم الناس عهداً بالنفاق .
وأنا لا أتكلم عنهم من الوجهة السياسية فقد يكونون في السياسة صرحاء ! إنما أتكلم عن الأخلاق : الإنجليز يعملون كل شيء ،
ويكتمون كل شيء : يقتربون أشنع المنكرات ، ويظهرون دائماً
سيما الطهر والعفاف . والويل كل الويل لمن يفتضح أمره بينهم
فانه لا محالة مطرود منبوذ . وهم في هذا يعملون كما كان يعمل
الاسبرطيون قديما : فقد كانوا يعاقبون السارق لا لأنه سرق
ولكن لأنه لم يعرف كيف يخفي السرقة ويمشي في ثياب الأبرياء
قال الصديق : هل عاشرتهم ياسيدي حتى تحكم عليهم هذا
الحكم ؟

قلت عاشرتهم قليلا ، ولكني قرأت أكثر ما نقل من مؤلفاتهم

إلى الفرنسية واقتنعت كما اقتنع كثير من أحرارهم ومفكرهم
بأن الحواضر الانجليزية أوكار خبت ورياء ، وأن لندن بوجه
خاص تضم إلى جنباتها أخطر ما عُرِف من أساليب الإثم
المستور !

وأنت يا صديقي تمثل نفس الدور أصدق تمثيل ، فأنت
تركت ليفربول لتقضى إجازتك في باريس ، والشيطان يعلم لم
جئت باريس ، ونصيحتي لك أن تعيش في فرنسا بنفس فرنسية
لا انجليزية : فالفرنسيون تضيق صدورهم بالنفاق ، ويحتقرون
المنافقين . وهم حين يحبون يحبون في صراحة ، وحين يبغضون
يبغضون في وضوح ، وقليل منهم من يحسن المداورة ويميل إلى
التضليل .

لكن صديقي لم تغنه هذه الخطبة ، واستمر يقبّح الأخلاق
الفرنسية ، ويمجّد الأخلاق الانجليزية

فما الحل ، وكيف السبيل إلى هدايته ؟

آه ! لقد اهتديت إلى الحل .

فما هو ؟

كأس من يكون ! فان لم تغن الكأس الاولى فكأس ثانية
وثالثة حتى تصفو نفسه ، ويخلو رأسه من عقارب النفاق ،

ويعود طفلاً محبوباً كمهدي به لا يشارى ولا يمارى ولا يكذب
ولا يمين

يا غلام! هات كأساً من يكون!

جاءت الكأس مترعة ، ونظر إليها الصديق نظرة غزلة ،
ثم شربها فتقطبت لها أسارير وجهه ، وتطلقت أسرار قلبه ،
ودعوت بكأس ثانية فكاد من طرب يهيم ، وخلته ينشد وهو
نشوان :

جمعت بالكأس شملى الله يجمع شملك
بحق رأسك دعنى حتى أقبل نعلك

وعُدنا نتكلم عن باريس وصراحة الباريسيين . فقال : أنا
الآن معك ، فباريس هى المدينة الوحيدة التى يعيش فيها المرء
على فطرته ، يحب ما يحب ، ويغض ما يغض ، فى صراحة وجلاء .
وأنا معك أيضاً فى أن الانجليز منافقون . ولكنى أحب أن تعلم
أنهم ليسوا جميعاً سواء
قلت : كيف ؟

قال : نحن نعيش فى ليفربول . والحريّة فيها تكاد تكون تامة ،
ويكفى فى بيان ذلك أن أقص عليك النادرة الآتية :

قامت فى الجامعة مناظرة موضوعها :

« أيهما أحب إليك : أن تكون أحببت مرة وأخفقت ،

أو أن تكون خلى القلب من نعيم الحب وعذابه ؟ »
 وقد أعطى الطلبة لأنفسهم مذاهب من الآراء لا حدَّ لها
 في المفاضلة بين الوجهتين . ثم قام في الختام مدير الجامعة وقال :
 « تتكلمون عن الحب ؟ هذا جميل ! ولكنى أرى أننا مقبلون
 على جفاف ، فقد كنت ألمح في شرفات الجامعة الطلاب والطالبات
 أزواجاً أزواجاً يتهدون التحيات والقبلات في خفروحياء ، وكنت
 أتعمى حتى لا أفرق بين حبيبين يتناجيان . أما اليوم فقد عدت
 أمشى في أرجاء الجامعة بخطاً مسروقة ولا تقع عيني على محب
 ولا محبوب

أيها السادة ! الحب في خطر ! أنقذوا سمعة الجامعة ! »
 قصَّ صديقي هذا الحديث ، ثم نظر فرآنى أفكر ، فقال :
 ما خطبك ؟ قلت لاشيء ! لقد تذكرت أن هذه المناظرة أُلقيتُ
 هذه السنة في الجامعة المصرية فمن الحتم أن يكون اقترحها أحد
 الأساتذة الأنجليز ، ومن المرجح أن يكون قد استُقدم من
 ليفربول : فنحن نأخذ بقاياكم في العلم والحب ، لو تعلمون .
 وعند هذا الحد كانت صفت نفس الصديق ، وتحلل حقه
 المزعوم نحو باريس ، وسألنى عن بعض الناس في مصر . فقلت :
 إنهم بخير ، ولا عيب فيهم إلا أنهم انجليز أو أشباه الانجليز ،
 وأنت تعلم ماذا أريد !

باريس في ٢٥ يونيه سنة ١٩٢٩

صيد القاهرة

أم صيد باريس ؟

صديق ...

كتبت إلى تسألني أن أصف لك ألوان الحياة في باريس ، وألوان الحياة لها في نفسك معان غريبة تشوق النفس وتثير الوجد ؛ فباريس عندك مدينة الفتنة واللهو والمرح والمجون ، وشارع عماد الدين الذي تقضى فيه ليلك وشطرا من نهارك يجب أن يكون في لجبهه ، وضوضائه ، صورة مصغرة جداً لشوارع باريس ، وقد ضاق عليك ذلك الشارع البهيج فيما أظن ، فأنت تريد أن تحيا حياة أوسع وأطيب ، ولو عن طريق الخيال ، متأسيا بالشريف الرضى إذ يقول :

فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلى أرى الديار بسمعى

وأنا والله عاذرك ، فقد أتيح لى أن أواجه الحياة في مغانى القاهرة والاسكندرية ودمياط والمنصورة وأسيوط ، ثم رأيتها جميعا أضيق من سمّ الخياط ، وما عسى أن يطيب العيش بين أقوام لا يفرقون بين الهزل والجد ؛ ولا يحلو لهم غير القيل والقال ، وهم فى أنفسهم أصغر من أن يقدرُوا نضرة السراء ، أو

قسوة الضراء ، فمن حقك علىّ وأنا صديقك الذى يأسى لقلق نفسك
وبلبلة خاطرك أن أتخفك ببعض الصور الناطقة من حياة باريس ،
ولكن ماذا أقدم لك يا صديقي ؟ وماذا أختار من بين ما أرى
وما أسمع ؟

تكاثرت الضباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيدُ

لكن اسمع ، اسمع ، فقد وجدت الجواب ! . .

أنت بالطبع تعيش فى مغاى القاهرة عيشة خالية من كل
معانى السعادة خلوّ القاهرة المسكينة من أودية الصيد ! هذا
مفهوم جدا ، ولا موجب للمواربة لأننا بحمد الله لم نُرزق مثقال
ذرة من نعمة النفاق التى يرتع فى ظلالها المنافقون . وكل حظك
فيما أظن لا يتعدى المناوشات الصغيرة فى طريق الاهرام أو
طريق السويس وأحيانا فى شارع شبرا المتواضع حين يخلو
جيبك من بقايا تلك الاوراق المعدودة التى تقبها بين يديك مرة
ومرة ، وثالثة ، أول يوم من الشهر ، ثم تتفقدوها فلا تجدوها فى
صبيحة اليوم التالى . أليس كذلك ؟ بلى وما أحسبك من المكابرين !
ولكن ما رأيك فى أن ذلك الصيد الذى تظفر به فى
بعض غدواتك أو روحاتك أطيّب مساعا وأحمد عاقبة من صيد
باريس . لا تلوّ وجهك يا صديقى ولا يثقل عليك كلامى فانا أقول
الحق . إن صيدك فى القاهرة حلوّ وديع لا يحمل المسدس ولا

يحسن الضرب بالرصاص . هل فهمت الآن ؟ إن صيدك يكاد يُجنُّ من الفرح حين يقع في الشِّبَاك . وقد يتأبَّى ويتمنع ، ولكنه يتمنى أن يظل سجين الفخ أبدأ الأبدى . وقد يكون صيدك مسلحا ، ولكن بأى سلاح ؟ سلاح الطرف الغضبيض الذى يحمل فى تكسره ما بقى من سحر هاروت وماروت . وقد يطعم صيدك . ولكن فيم يطعم ؟ فى نزهة قصيرة بالسيارة فى حراسة القمر وعلى شواطئ النيل . فان نفحته بشئ من بقايا فضلك فأنت فى عينيه أكرم من أقلت الأرض وأظلت السماء

أما صيد باريس فيختلف عن ذلك الصيد أشد الاختلاف . ولكن هل فى باريس صيد ؟ لقد بحث كثيرا هذه المسألة ، نظرتها أولا فى أمهات الكتب وفى المعاجم والقواميس ، واختبرتها ثانيا فى المسارح والمشارب والحدائق والشوارع والميادين ، وسألت عنها الناس ، من جميع الأجناس ، وانتهيت بعد البحث الطويل إلى الحقيقة الآتية :

« ليس فى باريس صيد . ليس فى باريس إلا ظباء هرب منها قانصوها »

هذه هى الحقيقة التى لا يمتري فيها إلا كل مغرور مفتون ، وأى لذة وأى فتنة ، وأى سحر بقى لتلك الظباء الغوادر اللاتى أضناهن كيد الليل ومكر النهار ؟ إن الفتاة لا تجدك إلا بعد

أن تكون قد ألفت جميع ضروب الختل والخداع : وفي صدر كل فتاة باريسية خاطر يوسوس وقلب يخون ، ويندر جداً ألا يكون في جيبيها سلاح محشو بأسباب الحنف والهلاك . ففي كل جريدة وكل نشرة وكل مجلة أخبار مزعجة بشعة مخيفة عن ضحايا الحب الأثيم . وإذا كنت تجد أحياناً في الصحف المصرية صدّى لحوادث الفتيات الفاتكات فذلك وشّل قليل جداً إذا أُضيف إلى هذه المجازر البشرية التي تقع في باريس مدينة النور فيما يزعمون ولك أن تسأل يا صديقي عن سر هذا الوباء الخلقى الذى يفتك بالناس في باريس ، وتوضيح ذلك سهل : فإن جمهرة الفتيات اللّائى تتكوّن منهن عصابات الإِثم والغواية ينشأْنَ عادة من طبقات فقيرة . والطبقات الفقيرة هنا هى طبقات العمال . والعامل الفرنسى فى الأغلب رجل خشن جاف تشقيه مهنته ويضنيه عمله . فإذا شبت له طفلة ألحقها بعمل من الأعمال يكون غالباً فى دار من دور التطرير ، وفى تلك الدور طبقات مختلفة من النساء يعرفن جميعاً كيف ينظم الهندام الفتان ، وكيف يكون للمرأة اللبقة أصحاب وأخدان . وكذلك تقضى الفتاة يومها فى بيئة لينة تقتل الوقت بالعمل وبالتحدث عما وقع لفلانة مع فلان ، والفتاة الحداثّة طلعة متشوّفة تصنّى لكل حديث ، وتتطلع إلى كل قادم ، وتتأمل كل حركة ، وتميل مع كل ريح . فإذا جاء المساء عادت إلى مأواها فوجدت

أمها في ثيابها الخِقة ، ولقيت أباهما كعادته قذر الثياب عابس .
الوجه لا يعطف ولا يلين ، ثم تُقدِّم المائدة فتراها باردة لا طعم لها
ولالون ، لأنها مائدة عمال فقراء يتقاسمون اللقمة ويتناهبون
الحِساء ، فترجع الفتاة إلى ذاكرتها تستحضر ما سمعت طول
اليوم من وصف المآدب والموائد حيث كان النساء العاملات
يعددن بإسهاب وإطناب ما كان من ترف وفتنة ورفاهية مع
الأصدقاء والخلان

ومن تلك اللحظة تتسع الهوة بين الفتاة وبين أهلها فهي
بينهم في سجن مظلم لانوافذ له ولا أبواب ، وتمر الأيام تلو الأيام
وهي تفكر وتدرس وتقارن بين حالتها التعسة وحالات رفيقاتها
اللائى يمرحن في بحاج النعيم . وتسأل نفسها : أياكون هؤلاء
الرفيقات من بيوتات أغنى وأقدر على جلب أسباب المرح والرغد
والاقبال ؟ ثم يتضح لها بعد البحث أن النشأة تكاد تكون واحدة
وأن هؤلاء اللاهيات المرحات لا يمتزن عنها إلا بشيء واحد، شيء
واحد فقط لا أكثر ولا أقل ، وذلك الشيء الواحد ما هو وما
عسى أن يكون : هو الصديق !

الصديق ! نعم هو الصديق الذى يغيّر الفتاة من حال إلى
حال ، وهو من أمرها على كل شيء قدير ، ولكن كيف السبيل
إلى هذا الكنز الثمين ؟ كيف ؟ كيف ؟ ذلك ما تحار فيه الفتاة ، لأنها

لا تزال في أول عهدا بالحياة ، وهي ككل فتاة ناشئة تحمل في صدرها بقايا طيبة من عناصر الحجل والحياء ، وكذلك تقضى عدة أسابيع أو عدة أشهر وهي فريسة الهواجس والبلابل والتأملات السود ، لأنها أضعف وأوهن من أن تصارح أمها أو رفيقاتها بتلك الحاجة الملحة : حاجة الفتاة الشقية العذراء الى الصديق

وفي أثناء هذه الأزمة الخطيرة تتأمل وهي في دار من دور السينما فإذا فتى يسارقها النظر ويهدى إليها طيف ابتسامة ، فتعود المسكينة إلى نفسها فإذا قلبها يخفق ، وبصرها يزيغ ، وتدمدم في فرح مشوب بالخوف : هذا صديق ! ثم تجرؤ رويداً رويداً فتبادله النظرات والبسمات في هدوء متكلف مصنوع ، لأنها صارت كالثمرة الناضجة تنتظر أول هزة لتودع الدوح وتهوى إلى الأرض ! ويتلاقى العاشقان على الباب ، فيقول الفتى : مدموازيل ! فتجيبه الفتاة : مسيو ! ويقف الأمر لأول مرة عند هذا الحد . فإذا مضت الفتاة إلى بيتها قضت الليل كله أرقاً مهتاجة لا تعرف السبيل إلى القرار . هذا فتى رشيق حلو الشمائل مليح الهندام ، يظهر انه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب في إحدى كليات الجامعة ، أو موظف ناشئ في إحدى المصالح العمومية ، ألا يكون هذا هو الصديق المنشود ؟

وفي اليوم التالي تبكر الفتاة إلى نفس الملهى عليها تجد رفيق .

الأمس ، وما أشد سرورها حين تراه ينتظرها على الباب وهو
في رُوء آتق وأروع ، وقد أخذ زينته ، ومَوَّج شعره ، وأصلح
من هندامه ، وأحضر لها باقة من الزهر النضير .

هذا يا صديقي شعر بديع يقع على قلب الفتاة موقعاً أخاذاً
يأسر منها العقل والحواس . . ثم تمضى الأيام في فتنة متصلة أنت
أعرف بما لها من دقائق وتفاصيل ، إلى أن يقع الخطر ، وهذا
الخطريبدو لأول وهلة بسيطاً مأمون العواقب لأنهما قد تواعدا
على الزواج . ولكن كيف يكون ذلك والفتى قد نشأ في بيئة غنية
وقد أرسله والداه ليتم دراسة الطب أو الحقوق في باريس ، ومن
الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعينه أهله على الزواج من
فتاة فقيرة ليس لها مهر ولا ثروة ، والمهر والثروة هما أساس
الزواج في أوروبا وخاصة في باريس

وكذلك يفترق العاشقان بعد أن تكون الفتاة قد ألقت نفسها
إلى الأبد في هاوية الشقاء . ومن هنا ينشأ الحقد الخالد حقد الفتاة
اللعوب على كل قتي جميل ، فان سمعت أن فتاة باريسية سلبت
عاشقها ما يملك ، أو ضربته بالمسدس ، أو طعنته بالسكين ، فاعلم
يا صديقي أنها تنتقم من عاشقها الأول ، وكل عاشق هو في عينها
صورة مكررة لذلك الغادر الختال . . .

افهم هذا واقع بصيد القاهرة ، واذكر أخاك بخير ، والسلام .

باريس في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

شهداء السين

شهداء السين ؟ إى والله ! وكم للسين من شهداء
إننا لا نتحدث فى هذا المقال عن ضحايا الحب ، ولا عن
الصرعى الذين تنقل الجرائد أخبارهم صباح مساء ، فان باريس من
بين مدن العالم تمتاز بهذه المآسى الشنيعة المزعجة التى تقع بين العشاق
فى كل حى من أحيائها العديدة . ولعل السر فى هذا يرجع إلى أن
أهل هذه المدينة شديدو الحساسية ، سريعو التأثر والانفعال .
والباريسى بطبعه رجل قلق كثير الوسوس والشجون . ويزيد فى
هذا سيادة النظام الخطر : نظام المخادنة ، وهو نظام لا يقصر شره على
الأعزاب وحدهم ، وإنما يتعداهم إلى الأزواج : فليس من المستغرب
هنا أن يكون لكل زوج خلية ولكل زوجة خليل . والقوم قد
درجوا على الشر حتى لا يرجى لهم شفاء ، فحوادث الحب والخيانة
هى كل مايجرى فى المسارح ودور السينما ، وكل مايجرى أيضا فى
الدراسات الأدبية التى يتلقاها الشبان فى المعاهد والجامعات . ولنظام
المخادنة خيره وشره : فهو خير لانه شبه دواء لهذا الجنون المستعمر
جنون الشباب ، وهو شر مستطير لانه يخلق من الفساد الخلق
والاجتماعى أمراضا كثيرة أيسرها الموت الذريع كما هبت رياح الشقاق

لا نتكلم هنا عن ضحايا الحب ، وانما نتكلم عن شهداء الفاقة
والبؤس ، فان باريس لم تستطع ولن تستطيع أن تصير أهلها جميعاً
سعداء ، وكيف يمكن ذلك ونحن في عصور لا تعرف ما القناعة
وما الزهد وما الرضا بالقليل ، وقد عفت منها جميع الرسوم الدينية
التي كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم
في الحياة ، ومن النادر أن ترى كنيسة مزدحمة بأسراب المؤمنين
والمؤمنات ، حيث تلقى العظات والكلمات الحكيمة للتأسى بالأنبيا
والقديسين ممن قضوا أعمارهم ينتظرون ما تسوق إليهم الرحمة
الالهية من صنوف البر والاحسان . انما يعيش أهل باريس
في التطلع بعضهم إلى بعض وحسد من يجد لقمته في الصباح
وحسائه في المساء ، وقد يتشوفون إلى من تواتيه الظروف فينحدر
إلى الحانة يعبّ ما طاب له من ألوان الشراب . تلك هي حياة
أهل هذه المدينة التي تأكل أبناءها كما تفعل القطرة المجنونة ،
وليس في الدنيا مدينة يموت فيها الإنسان جوعاً إذا نفدت دراهمه
غير باريس ، وتشبهها لندرا وبرلين في هذا الجانب المظلم . فليس
ازدهار المدن في الواقع إلا مُتعة للأغنياء والموسرين ، أما الفقراء
فلهم من المدن المزدهرة حظ البأساء والضراء

في باريس طائفة كبيرة من أهل البطالة والفراغ ، وهذه
الطائفة كثيرة التطلع والتشوف إلى حوادث الطريق ، فهذه

الملاهى الوقتية التى تسوقها الحوادث هى كل ما يملكون من أسباب التسلية . وكذلك ترام يتجمعون تجمّع النمل فى لحظة واحدة إذا تصادمت سيارتان ، أو سقط كلب تحت الترام ، أو قبض البوليس على رجل متشرد ، أو وقف بائع متجول فى ناحية يعرض ما عنده من طرائف الأشياء ، وهؤلاء الناس يسميهم الباريسيون « بادو » badaud ولهم فيهم قصص وأحاديث

كنت أمس فى الساعة الحادية عشرة صباحا أمشى على شاطئ السين فاراعنى الإفتى يلقي بنفسه فى الماء . وسرعان ما تجمّع الناس وفى دقائق معدودة جاء البوليس وجاء رجال الاسعاف ، وفى هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة: من عسى أن يكون هذا الفتى ؟ ومن أى طبقة ؟ وما هى محنته ؟ وكيف استسلم إلى هذا المصير الفاجع ؟ وكيف بداله أن يودع باريس ؟ وكيف كان حقه على الودعين والودعات ، والآمنين والآمنات ، قبيل اللحظة التى أقدم فيها على هذا الجرم الفظيع ؟ وما الذى كان يرباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها ، حين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء ؟ وكيف كان شعوره بالموت والحياة ، والعدم والوجود ؟ وفيمن كان يفكر ؟ وإلى من كان يحن ويشتاق ؟ وعلى من كان يعتب ؟ وكيف كان يتمثل ظلام الهلاك ؟

مرت هذه الأسئلة بالخاطر مرّ الطيف ، ثم رفعت بصرى .
أتأمل ما أُمأى ، فاذا رجال الاسعاف قد نزلوا فى فُلك صغير
يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لا يهتدون ، وبعد
لحظة تراءى للمتجمهرين شبح على الماء فأهابوا بالبحارة ، فضى
بعضهم فى فُلكه حتى أدرك ذلك الشبح . ولكنه لم يجده إنساناً
إنما هى لفافة من الورق تطفو على وجه الماء ، فعاد البحار يبحث
فى مكان آخر ، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة
الغريق فرفعوه ، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس ينوس ،
ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة ، وزادهم طمعا فى نجاته ما بدا
من بريق شعره ، ونضارة جسمه . وجاء الطبيب فخلع عن المسكين
ملابسه ، وشرط أذرعته فخرج الدم يتصبب ، وبدأت عملية
التنفس الصناعى فى مهارة ونشاط

وكان الناس يشاهدون هذا المنظر فى تطلّع لا يصحبه ألم
ولا حزن . أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب أنظر ما سيكون ، ولعل
هذا يرجع إلى أننى كدت أغرق فى عهد الحداثة لولا أن أتاح الله لى
مروءة ذلك الفلاح الصالح المرحوم أحمد الصواف ، وقد أنقذت
بنفسى أربعة من الغرق ، أعانى الله على إنقاذهم من تلك الميتة الشنعاء
ميتة الاختناق

منظر محزن يخلع القلوب . رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس

في باريس ، وقد أدهشني أن رجال الاسعاف كانوا يتضحكون أحياناً وهم يجرون عملية التنفس ، وزادت دهشتي حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت في طمأنينة وهدوء ، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس في القهقهة بشكل مخجل مُريب ، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم ، ثم تركهم في غيهم يعمهون

ومضت ساعة كاملة في عملية التنفس والصريع ملقى على وجهه يقاسى جسمه الفانى ألوانا من الإجهاد ، وطال بي الوقوف وقرصني الجوع فمضيت أتناول الغداء ، ولا أدري كيف عدت بعد ذلك لأرى مصير الغريق ، وقد رأيت الناس لم يتفرقوا ، ورأيت رجال الإسعاف ماضين في عملية التنفس بنفس النشاط الذي ابتدؤوا به فلما دقت الساعة الثانية وكان قد مضى على عملية التنفس أكثر من ساعتين عرفوا أن لا أمل في ذلك الصريع الذي سقط شهيد البأساء في باريس

وسرعان ما جاءوا بنعش صغير حملوا فيه جثة الميت ، حملها رجلان اثنان وتبعهما الناس وهم يتزاحمون كأن لم يروا من قبل ميتاً يحمل على الأعناق ، وسرت مع السائرين أنظر ما سيكون فرأيتهم يدخلون به المستشفى الذي يسمى (بيت الله) فعجبت كيف صحت التسمية لذلك المستشفى الذي يتلقى على الرحب والسعة من لم يبق لهم غير رحمة الله

وقد خفت حركة الناس حين وصلوا بالميت إلى ذلك المكان
إذ رأوا أن ملاحقته هنالك ضرب من الفضول المرذول ، وأقبل
عدد من السيدات في الثياب البيض ثياب التمريض فتلقين الميت
ببعض التسبيحات والدعوات

كان ذلك الحادث أمام كنيسة نوتردام وكان مفهوما بالطبع
أن الغريق من أهل ذلك الحى . ومع ذلك لم يُرَ أحد يهتم بالميت
فلا أهل ولا أصدقاء ، ولم يُرَ فى الحاضرين من يقول : هذا هو
المسكين فلان الذى كان يعمل فى مخزن فلان
فكيف وقع ذلك ؟

الجواب حاضر : ذلك أن باريس تستقدم إليها العمال الفقراء
من جميع الأقاليم الفرنسية : ثم تتركهم بلا ناصر ولا معين
وفى باريس منازل للإيواء البائسين فيها ما يسمونه « منازل
الجبال » وسميت كذلك لأن فيها جبالا يضع عليها البائسون
ثيابهم ثم ينامون على البلاط : بأجر مقبول هو ثلاثة مليمات فى
الليلة ، وفيها ما يسمى « بيت الشعب » وهو بيت كبير جداً ينام
فيه الفقراء ويتناولون لقمة فى الصباح وحساء فى المساء : بأجر
مقبول أيضاً هو ثمانون قرشاً فى الشهر . ولكن أظن أن جميع
الشبان البائسين يصبرون على مواجهة الحياة فى بيت الشعب

ومنازل الجبال ؟ هيهات ! فقد غرست في أبنائها روح الترف ،
وعلمتهم كيف يشورون على أوضاع الاجتماع ، كما غرست فيهم روح
السخرية ، وعلمتهم كيف يشهدون مصارع المتحرين في
هدوء مطبوع

باريس ! أيتها الطاحونة العاتية ! أيتها الدنيا الغادرة ! كم فيك
من قلب مفطور ! وكم فيك من دم مطلول ! ومع ذلك لا تزالين
أمل الآمل وأمنية المتمنى ، ومأوى ماندٍ وشرد من ألباب الشعراء
وعباقره الفنون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٠

حديث المائدة

كنا خمسة على المائدة وكانت ربة الدار تسأل كل واحد عما عمله
في يومه ، فابتدأ أحدها وقال :

في هذا اليوم تغديت في فرساي ، في مطعم أنيق لم تقع العين
على مثله ، فإكلنا كيت وكيت ، وشربنا زيت وزيت ، وأخذ يعدد
أصناف الطعام والشراب بشكل شائق جذاب ، حتى كاد لأعاب
الحاضرين يسيل شوقا إلى ذلك الطعام الموصوف

قلت : ومن الذي هداك إلى ذلك المطعم ياسيدى ؟ فأجاب :

إنه قسيس ، ولا يعرف قيمة الطعام غير رجال الدين ! فهم وحدهم
أهل الخبرة الدقيقة بمختلف المطاعم وحانات الشراب !

ماذا يملك

رئيس الجمهورية الفرنسية

صديقى ...

لقد ظلمتني حين كتبت تسألنى أن أفصل لك بعض الأنظمة الدستورية فى فرنسا الحاضرة ، فانا رجل حُبِّب إلى أن أهتم بالماضى من حياة الشعوب . وهذا بنفسه جانب من جوانب الضعف فى حياتنا العلمية والأدبية ، وهو ضعف يكاد يُقصر شره على أهم الشرق . فالمصريون مثلاً يعرفون من أخبار الأمويين والعباسيين ما لا يعرفون من أخبار الفاطميين والماليك ، حتى إذا وصلت إلى العهد الأخير الذى تكوّنت فيه مصر الحديثة وجدت سواد المتعلمين يجهل ذلك العهد تمام الجهل . ومن أجل هذا كانت حماستنا لدراسة التاريخ حماسة فاترة ، لاننا نبدأ بدراسة ما لا تمسنا دراسته ، وننتقل بأذهاننا وعقولنا الى أجيال بعيدة لا تربطنا بها غير روابط ضعيفة أصبحت على أهميتها فى ضمانة التاريخ . ولو أننا ابتدأنا فدرسنا حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية لكان نشاطنا أوفر ، وإحساسنا أعمق ، وفهمنا أدق . لان العصر الحاضر أقرب إلينا ، وأعلق بنفوسنا وعقولنا وقلوبنا وحواسنا . وهو لذلك جدير بأن يجعلنا أكثر

استعداداً لفهم العصور التي خلقتهم وكونته ووصلت به الى صورته الحاضرة . وإنك لتعلم أنه لولا اهتمام الشبان في مصر بمتابعة الحوادث اليومية لكان من الممكن أن تجد عددا كبيرا من طلبة المدارس الثانوية يجهلون كيف ابتدأت النهضة الأخيرة في سنة ١٩١٨ . وأنا حين أقول (١٩١٨) متأكداً أن بعض الشبان سيتلفت ويقول : « هذا خطأ ، إن النهضة المصرية الأخيرة ابتدأت سنة ١٩١٩ » ويندر جداً أن تجد من الشبان من يميز جيداً كيف ابتدأ مصطفى كامل وكيف انتهت حياة محمد فريد : لأن الكتب المدرسية لا تعنى بذلك ، وهي حين تُعنى به تذكره مقتضباً مخطوفاً لا يغنى ولا يفيد . وقل مثل ذلك في الشؤون الأدبية ، فإن الشبان يعرفون عن امرئ القيس وزهير ، على بعد العهد ، ما لا يعرفون عن البارودي واسماعيل صبري ، وقد لقيت في باريس شاباً من « البوسنة » يحفظ قصيدة امام العبد في مناجاة الاهرام ! فخذني بربك كم شباب في المدارس الثانوية يعرفون من هو امام العبد وكيف ناجى الاهرام ! وعساك لا تجد من يعرف « امام العبد » غير من ساجلوه واكتووا بأهاجيه مثل شوقي وحافظ . ومطران

وهذا الجهل الذي نرمي به شباننا مصدره أنهم يكتفون في الأغلب بما يتلقونه في المدارس الثانوية . وأساتذة تلك المدارس يحدثون الطلبة عن كل شيء إلا ما يختص باليهود الأخيرة ، وعساك

تذكر مهرجان شوقي : فقد كان من المقرر أن تلقى عنه محاضرة في الجامعة المصرية ، وكانت الكلمة للدكتور طه حسين ، أفتذكر ما قال ؟ لقد ألقى محاضرة عن الأخطل ، بحجة أن الجامعة لا يدرس فيها غير الأموات من الشعراء !

وهذا الإحجام عن دراسة العهد القريب والحاضرة له سبب : ذلك أننا في مصر تغلب علينا الوساطة الشخصية ، ونكاد نقع صرعى لمناوشات الأحزاب . فهناك كتب عن « التريية الوطنية » لمدارس المعلمين عرض فيها المؤلفون لحوادث العهد القريب ثم أغفلوا عمادين اسم « سعد زغلول » لأن اسمه قد يثير حقد بعض الناس ! !

وبعد فهذه مقدمة ضرورية طويت فيها السبب الذي أحجمت من أجله عن موافاتك بما سألت . وأنا محدثك اليوم عما يملك رئيس الجمهورية الفرنسية لأنه على أى حال « مسيو » كما يقول الباريسيون ، ولا تنتظر منى تفصيلا طويلا لأنى رجل ملول ، ولا أقول هيبوب : فقد أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هيباب ، وما عهد الثورة ببعيد

ولتعلم أولا أن غرام فرنسا بالنظام الجمهورى غرس فى نفوس أبنائها الحق على العهد الملكية . وهذا الحق قد أفسد عقول كثير من أساتذة التاريخ . حتى رجال السوربون . فمن النادر أن يتكلموا عن ملوكهم بعبارات الاحترام . والغالب عليهم أن يخوضوا

في أحاديث ملوكهم خوفاً أثماً . وقلّ منهم من يفرق بين الحياة الاجتماعية والحياة الشخصية ، حتى أنك لتدرك أنهم لا يصلحون أن يكونوا أساتذة تاريخ . والفرنسي كما تعلم من أذكي الناس ، وهو يوجّه ذكاه أحياناً توجيهها خطراً حين يؤرخ الملوك ، ويكفي أن أذكر لك أن بعض أساتذة السوربون أخذ مرةً يعدد مثالب ملك من ملوكهم الماضين ثم ختم محاضرتَه بالعبارة الآتية إذ قال :

« وبعد هذا كله لا ينبغي لنا أن ننسى أن ذلك الملك آتى بحسنة غطت على جميع سيئاته : وهى أنه تفضل فأت !! »

وهذه العبارة تُريك الى أى حد يبرّع أولئك القوم في إلقاء النكتة . . . وقد انقضى عهد الملكية بخيره وشره ، ولم يبق له من الأنصار إلا أقلية ضئيلة لا يحسب لها حساب ، أفترى مانصيب رئيس الجمهورية في فرنسا الحاضرة ؟

اسمع واعجب أيها الصديق

إن رئيس الجمهورية الفرنسية يشابه تمام المشابهة ذلك الخليفة العباسي الذي قال

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

فهو يملك كل شيء ، وليس بيده شيء . إن رئيس الجمهورية الفرنسية له حقوق تفوق حقوق الملوك . فهو بحكم الدستور

الفرنسى يملك من السلطة أكثر مما يملك ملك الانجليز وملك البلجيكي ؛ وهو مع هذا أضعف من أصغر فلاح فى انجلترا أو بلجيكا . وأصغر فرنسى يملك من الحرية الشخصية ما لا يملك ذلك الرئيس . . . وإليك بعض البيان :

رئيس الجمهورية الفرنسية يملك حل البرلمان ، فالنواب والشيوخ يعيشون تحت رحمته : إن شاء أبقي عليهم ، وإن شاء مزقهم شراً ممزق ، وتركهم يخطبون وداد الناخبين من جديد ، وياله من عبء ثقیل !

ولكن مهلاً ! فان ذلك الرئيس بحكم الدستور لا يملك حل مجلس النواب إلا إذا صادق مجلس الشيوخ ، وهيهات أن يصادق الشيوخ على حل مجلس النواب ، لأن النواب إليهم الأمر فى انتخاب الشيوخ ، وبذلك تتلاشى سلطة رئيس الجمهورية على البرلمان رئيس الجمهورية له حق العفو : فبيده أن يعفو عن حكم عليهم بالإعدام أو قُضى عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فهو بذلك سيد ترحى رحمته ويخشى غضبه

ولكن عفواً ! فان رئيس الجمهورية لا يملك حق العفو إلا إذا اقترحتة اللجنة الخاصة بذلك فى وزارة الحاقية

وعلى هذا صانع فضله فى إنقاذ من أشقام القضاء . وقد يحدث أن يقتنع هو ببراءة بعض المتهمين ، ولكنه مع ذلك لا يملك أن

يتدخل أو يتعقب ، لأن الدستور لا يجيز له ذلك ، وهو للدستور من الخاضعين

رئيس الجمهورية هو الذى يرأس مجلس الوزراء فلا يُقضى بشئٍ إذن وهو غائب

ولكن رويداً ! فان الوزراء هم الذين يُعدون كل شئ ، ويتقضون فى كل شأن . وليس لرئيس الجمهورية أكثر من شرف الحضور ، وليس له بحكم الدستور أن يناقض الوزراء ، وله فقط أن يبدى ملاحظاته . وللوزراء أن يخالفوه إن شاءوا ، وأن يوافقوه إذا أرادوا . وقد كان يقع حين كان بوانكاريه رئيساً للجمهورية ، وكان كلنصو رئيساً للوزارة ، أن لا يفكر رئيس المجلس فى دعوة رئيس الجمهورية : فكان بوانكاريه لا يعلم بموعد انعقاد المجلس إلا حين تصله برقيات هافاس !

رئيس الجمهورية مطابق التصرف فى جميع أعماله ومشيداته يؤلى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويعطى ويعنق كيف أراد

ولكن هذا كله لا قيمة له ، وليس فيه أثر للحرية الشخصية إذا لاحظنا أن الدستور الفرنسى ينص على أن أعمال رئيس الجمهورية وتصرفاته لا تعمل عملها المنشود إلا إذا وُضع إمضاء الوزير المختص بجانب إمضاء الرئيس

ولا تدهش إذا قلت لك إن رئيس الجمهورية الفرنسية

لا يملك حق مخاطبة الجماهير . فان سألت ما معنى ذلك فاني مخبرك بأن رئيس الجمهورية ليس له أن يعدّ الخطب التي يلقيها في الحفلات الرسمية ، وإنما يكتبها الوزراء بأنفسهم ثم يقدمونها إليه مطبوعة وفي أكثر الأحيان يجلس الرئيس من الوزير مجلس التلميذ من الأستاذ حيث يُريه الوزير المواطن التي يخفض فيها صوته والمواضع التي يتكلم فيها بشدة وفقاً للقاعدة المأثورة : « لكل مقام مقال » !

ولك أن تسأل بعد ذلك : إذا كان هذا مركز رئيس الجمهورية، فما الموجب لبقائه ؟

وأجيبك بأن الفرنسيين أنفسهم يسألون هذا السؤال ، ومنهم من فكر في إلغاء هذا المنصب اكتفاء بقوة البرلمان ولكن هل معنى ذلك أن النواب والشيوخ يعيشون في فرنسا عيش الحكام المستبدين ؟

لا . لا . فان الفرنسيين يكرهون السيطرة والاستبداد وقسوتهم على نوابهم وشيوخهم شديدة ، ورقابتهم عليهم قاسية . وقد حدثنا بعض الأساتذة أنه كان أستاذاً بإحدى المدارس الثانوية فقدم أحد النواب لزيارته في مكتبه وأخبره أنه يقترح بصفته أباً لتلميذ لا بصفته نائباً أن يتفضل الأستاذ فينقل ابنه إلى فرقة أعلى . فرفض الأستاذ الاقتراح بحجة أن ذلك الابن

جاهل وكسلان . وهنا ثار الزائر وقال : بصفتي نائباً أفرض أن ينقل ابني إلى فرقة أعلى من فرقته . فغضب الأستاذ وانتهر النائب وطرده من مكتبه . وفي اليوم التالي - بعد مفاوضات سرية - جاءت إشارة من وزير المعارف بنقل ذلك التلميذ إلى فرقة أعلى : فثارت هيئة المدرسين واحتجوا على الوزير وكشفوا مهزلة ذلك النائب المختال !!

وقد عقب الأستاذ على هذه القصة بأن فرنسا لم تكن لتطرد الملك المسؤول لتقع تحت سيطرة ٥٠٠ ملك غير مسئولين !

والخلاصة أن رئاسة الجمهورية الفرنسية نكبة على كبار الرجال : فقد يكون الرجل من أنفع الناس لأمته ، ثم ينتخب رئيساً للجمهورية فيُشَلَّ نشاطه سبع سنين . وقد حُرمت فرنسا من عبقرية بوانكاريه أيام الحرب ، لأنه كان سجيناً طليقاً في قصر الأليزيه ، وأنت تعرف ما يقاسى القائد المغوار حين يحال بينه وبين الميدان

ماذا يملك رئيس الجمهورية الفرنسية ؟ ماذا يملك ؟

إنه لا سلطان له إلا بفضل ماضيه ، إن كان من أصحاب الماضي النبيل ، إنه لا يملك إلا كلمة الخير يقدمها خالصة الى الوزراء ، وقد يكون سلطانه لا حدَّ له إذا كان ممن رُزقوا قوة العقيدة

وحرارة الاخلاص ، فان الفرنسيين أهل كبرياء وعناد ، ولا
يطيعون إلا راضين مقتنعين

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

باريس في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

كان ياما كان

تحدث بعض الناس في هذه الأيام عن وصول العرب إلى
أمريكا قبل كريستوف كولومب ، وهي مسألة تحتاج إلى تحقيق
طويل ، والذي لا شك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم
من الأمم القديمة ، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو
ثلاثة قرون ، وهي مدة ليست قليلة في سيادة الشعوب

كل هذا جميل ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر
من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الاسبان ، أو يدري
القارئ ما هي تلك الأعجوبة ؟

تلك هي احتلال فرنسا وانجلترا وإيطاليا لأكثر أقطار الشرق
الأدنى في أقل من أربعين عاما

لقد آن أن نفكر في الحاضر ، وأن نعرف أن احتلال العرب
لجزء من أوروبا وتفكيرهم في فتح أمريكا لا يغنيان شيئا في هذه
الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستعباد

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار ، لو فكرت جدًّا في الخلاص
وزهدت في المجد المكذوب الذي يمثله هذا البيت :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

زفرات

لم أَقْضِ مِنْكَ مُرَادِي وَلَا شَفَيْتُ غَلِيلِي
 يَافِتْنَتِي فِي مُقَامِي وَمَحْنَتِي فِي رَحِيلِي
 ضَلَلْتُ، وَالْحُبُّ تُيَّةٌ إِلَى النِّجَاةِ سَبِيلِي
 فَمَنْ سِوَاكَ نَصِيرِي وَمَنْ سِوَاكَ دَلِيلِي
 أَحَبُّ فِيكَ عَذَابِي يَا هَاجِرِي وَذُبُولِي
 وَتَسْتَطِيبُ جُفُونِي عَلَى الشَّهَادِ عَوِيلِي
 يَا طِيفُ أَنْتَ كِتَابِي عَلَى النَّوَى وَرَسُولِي
 فَصِفْ لظِلَّامِ قَلْبِي مَدَامِي وَنُحُولِي
 وَانْقُلْ إِلَيْهِ شَكَاةِي فِي حُبِّهِ وَذُهُولِي
 وَمَا جَنَاهُ رَقِيبِي وَمَا جَنَاهُ عَذُولِي
 وَصِفْ غَلِيلَ قَوَادِي لِرَيْقِهِ الْمَعْسُولِ
 وَمَا تُجْنُ ضُلُوعِي لِلْحَظِّهِ الْمَكْحُولِ
 رَبَّاهُ مَنْ لَا سِيرَ مُصَفِّدٍ مَكْبُولِ
 يَهِيمُ بَيْنَ رُسُومِ مِنَ الْمَنَى وَطُلُولِ
 حَبَسْتَ وَقَدْ حَشَاهُ عَلَى غَرِيرِ مَلُولِ
 مُصَرَّدَ الْعُطْفِ ضَارٍ عَلَى الْعُقُوقِ مَطُولِ

سهرة في قهوة الجامع

صديقي الأستاذ أحمد الزين

تحيتي اليك من هذه الديار التي طالما تشوقت اليها ، وحننت
إلى ربوعها العامرة ، وقرأت أخبارها فيما تُرجم عن حياتها إلى
اللغة العربية

وبعدُ فقد كنت سألتني أن أكتب اليك ، ووعدتك مخلصاً
بذلك ، وهأنذا أفى بالوعد ، فسامحني أولاً ان لم أقل « هأنذا » فانها
ثقيلة ولم يلتزمها إلا المتكافون ، وأنت تعرف إلى أي حد يُملّني
التكلف ؛ ويشغل على التزام ما لا يلزم في الكتابة وفي الحديث .
لقد ذكرتك يا صديقي ؛ ولكن حاشا أن يمر ببالك قول
عنتر العبسي

ولقد ذكرتك والرماح نواهلُ

منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها

برقت كبارق ثغرك المتبسم

لا تذكر هذا لأنك تعرف أولاً أن الله كتب علينا أن

نعيش في سلام هو شر من الحرب : فلا رماح ولا سيوف ،

وتعرف ثانياً أنه ليس فيك أى سمة من سمات الملاحه حتى نذكر
بسماتك العذاب ، وهذا لا يجرحك بالطبع ، لأنه ما حاجتك
إلى الجمال وقد وقفت حياتك على مغازلة الصحف البالية فى دار
الكتب المصرية . إنما يحتاج إلى الجمال أديب متأنق تقضى عليه
تكاليف الحياة بأن يلتقط الأسرار فى صالات الرقص وأبهاء
الوزراء ، أمثال فلان وفلان ، وقد أراحك الله من كل
ذلك ، فاحمده حمد المخلصين على أن منحك فقط بنية متواضعة
وذهنا ثاقبا ، ولسانا فصيحاً يصل بك إلى ما تريد ، أو بعض
ما تريد ، فى عصر لا تغنى فيه بلاغة القلم ولا فصاحة اللسان .

لقد كنت نسيتك يا صديقى ، ولم يذكرنى بك إلا قهوة
الجامع فى باريس ، فقد سافر خاطرى الى قهوة الحامية الجديدة
بالقاهرة . حيث تقضى سهراتك فى صحبة أصدقائنا الأساتذة
محمد المروى وحسن القاياتى وكامل كيلانى ومحمد عبد المطلب .
وحيث تشربون مالد و طاب من قهوة أبى الفضل لاقهوة أبى نواس .
وأنا لا أتهمكم يا صديقى بأنكم تؤثرون قهوة أبى الفضل لأنها
رخيصة ، كلا ، معاذ الله أن يمر بخاطرى ذلك ، فأنا أعرف أنك
لا تعاقب الراح لأنها لا تتناسب على الأقل مع رجل معمم يحمل
إجازة الأزهر الشريف ، وصديقنا المروى رجل محتشم أشد
الاحتشام ، والسيد حسن القاياتى من سلالة أنى هريرة رضى الله

عنه ! وأخونا كامل كيلا نفي مشغول بتدبير صحته ؛ وهو عافاه الله
مهدّم لا يخاطر بحياته في منازلة الصهباء . يبقى الشيخ عبد المطلب
وهو رجل لو رآته الكأّس لوّلت هاربة الى حيث لا تعود ، فليس
منها وليست منه ، مهما حشر نفسه في زمرة الشعراء ! وبهذه
المناسبة تستطيع أن تطمئن على أخيك من هذه الناحية ، فأننا أيضاً
لا أشرب الراح ، أو على الأصح لا أشربها الا مُشعّشة مقتولة
لا ترخي المفصل ، ولا تزيغ البصر ، ولا يسري روحها الى قرارة الأسرار
وليس لي منها يعلم الله صَبُوح ولا غَبُوق الا حين أبكي عهداً سلف ،
أو أطرب الى عهد مأمول . وقد صحا القلب ، والحمد لله ، فلم تبق
داعية الى معاقرة الشراب ، وتذكّر الأحاب . وأغرب ما يمر بخاطري
في هذه اللحظة حديث الشيخ يوسف الدجوى حين كان يقول
في دروسه بالأزهر إنه لا يشرب إلا الماء ويلتصق على ذلك بقوله :
والماء مع هذا شراب الحمير ! وكنت إذ ذاك أعجب كيف يتحسر
مثل هذا العارف بالله على أن لم يرزق من الشراب إلا ما يشاركه
فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك أن الكلام قديم ، وأنه يرجع الى
الأخطل الشاعر النصراني المعروف . وهذا الكلام له معناه على
كل حال ، فأكثر الناس يتنسكون كارهين ، ولا يعزّيهم إلا
ما يرجون أن سيكون من الرحيق المختوم في دار النعيم . والرحيق
المختوم سر لا يعلمه إلا الله ، فقد كان أبو نواس يصف قهوته بأنه

ختم عليها من عهد نوح . وستعرف بعد عمر طويل إن كان مصيرك الى الجنة كيف يقول شعراؤها في ذلك الختم الذي ورد ذكره في القرآن الشريف ، على أنه سيكون هناك أيضا رحيق غير مختوم ، ستكون هناك أنهار كاملة من عتيق الشراب ؛ وستنسى يا سيد احمد تلك القهوة السوداء التي تتصبّح بها كل يوم في دار الكتب المصرية ، والتي يلقانا بوجهها البني القاتم صديقنا الأستاذ احمد زكي العدوي كلما زرناه في مكتبه حتى كدنا ننتقطع عن زيارته فراراً من وجهها الآدم المحبوب !

وأعود فأقول : إنني ذكرت في قهوة الجامع ، وذكرت معك قهوة الحامية ، وهى قهوة سخيصة لا هى بالجديدة ولا هى بالقديمة ، ولا أعرف لأى سبب هجرتكم من أجلها قهوتكم الأولى التي كانت تسمى « قهوة الآداب » وقد كان يُظن أنها سميت بذلك من أجل حضراتكم ، ولعنة الله على العقوق ! هى قهوة سخيصة لا تحفظ شيئاً من تقاليد الماضى . وخير منها في هذا المعنى قهوة احمد عبده في حى سيدنا الحسين ^(١) . وليس فيها أيضاً شيء من سمات الحاضر ، فليس على جدرانها صور ولا خرائط ولا لوحات فنية ،

(١) في هذه القهوة كان يسهر الوراق الشهير الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ليستشير أهل الفضل في إحراق كتاب « الأخلاق عند الغزالي » وكان ذلك قبل سفره إلى بيت الله الحرام !

وليس فيها قانون ولا عود ، ولا يخطر ببال أهلها أن يضعوا فيها معدات السينما ، أو يستقدموا لها - ولو مرة في السنة - بديعة ، أو نعيمة ، أو أم كلثوم ، ومن المحتمل فقط أن يكون صديقنا الأستاذ راى يطر فكم هناك ببعض أغانيه وتغريداته : فعهدى به رخم الصوت مخضرم الملامح ، فيه بقايا من اللطف والليناس !! على أن في إنشادك الشعر يا صديقي مُتعة كافية لقضاء السهرات في مرح وطرب ، وهذا لا يمنع أن أقترح عليكم أن تهجروا الى مقصف حديقة الأزبكية ، فانكم ان فعلتم ذلك دلتم على ان المصرى يميل بطبعه الى المهاجرة ، وأنه ليس كالماء الآسن الذى يفسده الركود .

أما قهوة الجامع فى باريس فهى تختلف عن قهوتكم أشد الاختلاف ، هى قهوة عربية بكل معانى الكلمة ، وتذكر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والاسنانة والقيروان ، فحيثما رفعت بصرك فنظر عربية وإسلامية طريفة لا نقص فيها ولا تحريف . وأنت حين تجلس فى قهوة الجامع ترعك الموسيقى الشرقية التى تطالعك بأجل الألحان . وفى القهوة مغنون بعضهم من تونس ، وبعضهم من بغداد ، وفيهم مغن من الاسكندرية ^(١) ، وقد سمعت فى الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية ، وليتك كنت معى لتعرف كيف يحيا ابن هانىء

الأندلسى حين يردد المغنى قوله فى ترجيع مملوء بالمطف والحنان :
حسبوا التكحل فى جفونك حليةً

تالله ما بأكفهم كحلوك
ودعوك نشوى ماسقوك مدامةً

لما تمايل عطفك اتهموك

والدور الذى مطلعته « على روحى أنا الجانى » والدور الذى
فيه « امتى أشوف أنس الجليل » وقد طربت الى هذه الأغانى
حتى كدت أقترح عليهم أن يغنونى « صيد العصارى باسمك » أو
« يا نخلتين فى العلالى يا بلجهم دوا » أو « الفؤاد ناوى ونادر ، إن
جفاك ما عاد يعود لك » لولا أن صديقا أفهمنى أن مثل هذا
الاقتراح له ثمن فى مثل هذه القهوة ، وأنا كما تعلم فقير أو بخيل !
وبهذه المناسبة أرى من واجبى أن ألومكم على التهاون فى
الأنس بالموسيقى ، فأنا لا أذكر أنى رأيتكم مرة فى حفلة غناء
تهز رأسك وتقول : الله ! الله ! ولم أر المhraوى أيضا يطرب لمثل
ذلك ، ولعله يتوقر عن تشجيع الغناء ، وإن كان يشجع الكتاب
والمؤلفين ، والسيد حسن القاياتى يجلس دائما فى ركن مظلم إن
ذهب الى حفلة ساهرة ، وأخونا كامل ترك تقاليده الجميلة حين
كان يفتش عنا بحماسة لاحدا لها لنسمع معه أغانى الأنسة ملك

أوعبد اللطيف البناء أو صالح عبد الحى . والشيوخ عبد المطلب
لا يطربه المغنى إلا إن رفع عقيرته وصاح :
أمن تذكر جيران بنى سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وانصرفكم عن الموسيقى والغناء هو سبب تخلفكم في الشعر
فقد أصبحت شياطينكم مستأنسة لا تنزع إلى واديهما الأول
وادی الجن وادی عبقر الذى نسبت إليه العبقرية ، كما أن السر
في نبوغ شوقي هو تهالكه الفاضح على الموسيقى والغناء ، ولولا
السهرات الطروبة المجنونة التي يقضيها شوقي في بيئات اللهو
والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان ! وقد كانت
تكونت في مصر عصابة تقتل شوقي ، وأعدت لذلك « نبوتا »
غليظا اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان وانهمزمت العصابة
وبقى شوقي يطغى كالحية النضناض . إني لألومكم على ترك
الموسيقى لوما عنيفا ، ولا ألوم نفسي لأنى تركت الشعر وتركت
معه عالم الأحلام . وصناعتي الآن كما تعرف : مؤلف كتب ،
ومنشئ مقالات ، ومدرس ، وهى أثاف ثلاث . والله المستعان
وهو حسبنا ونعم الوكيل !

وينجذب الناس الى قهوة الجامع في باريس لعدة أسباب :

منها القهوة التركية البديعة التي تنقلك الى عالم غير عالمك

فى لطف ساحر أخاذ، ومنها الشاى المنعنع الطريف الذى يذكرك
بقول السيد عبد العظيم القاياتى :

وعسجد الشاى يُجلى فى أكؤسٍ من لجَينِ

هذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

ومنها النساء الجميلات اللائى يطفن بأركان القهوة بعد

العشاء فيسحرن السامرين . وأكثر هؤلاء الجميلات يردن من

ألمانيا والنمسا وأمريكا فى طلب الحب والغرام . وهن يذكرننى

بموسم السياحة فى مصر حين تهبُّ أرواح الشتاء ، وموسم

السياحة فى مصر شئ لا تعرفه ياسيد احمد ولا يعرفه أحد من

زوار قهوة الحامية ، هو موسم بديع تجلب فيه إلى مصر

عرائس العالم القديم والجديد ، ومن الفرض الواجب على كل

غانية مُترفة أفاض الله عليها من نعمة المال والجمال أن تزور مصر

فى الشتاء التماساً لبركات سيدى (أبى الهول) صاحب الأنف

المجدوع ! ولا تكون السيدة أنيقة حقاً حتى تستطيع أن تقول

وهى تحاور أترابها الساحرات : « حينما جلست فى سفح الهرم

أمام أبى الهول » أو « حينما ركبت الجمل وطففت حول الأهرام »

أو « حينما ركبت الحمار وتوجهت إلى مقبرة توت عنخ أمون »

الخ . الخ . والسيدة التى لم تمكنها ظروف الحياة من التحدث

بمثل ذلك تتوارى خجلاً وحياء إذا خاض النساء فى حديث

مصر وما فيها من عجائب وغرائب . موسم السياحة هذا
يا صديق فرصة عظيمة للشبان المصريين يعرفون به طرائف
الحسن المجلوب من وراء البحار ، ويقضون بسببه ليالى سعيدة
لم يشهد مثلها خوفو ولا عمرو بن العاص . وأخوك يعرف هذا
الموسم معرفة جيدة ، وليس معنى ذلك أن لى فيه حوادث
وتجارب سعيدة أو شقية ، كلا ، فأنت تعرف أن حملى ثقیل ،
وأن أعمالى لا تمكنى من اقتناص أمثال هذه الفرص الشوارد ،
وقد يمضى العام ولا أعرف كيف طعم السهر فى مغانى القاهرة ،
ولكن عندى فى هذا الموضوع كتاب معتبر خط يد اسمه
« منحة الفتح ، فى حوادث السَّوَّاح » وهو كتاب ممتع لم يدع
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من حوادث السائحین
والسائحات ، وما يقع للشبان المصريين مع الامريكيات
والألمانيات . وفى النية طبعه ونشره تعميما للفائدة ، وإن كنت
أخشى أن يصرف الطلبة عن الاستعداد للامتحانات ، وتنظيم
المظاهرات ، ومصر الآن فى دور جدى خطير من حياتها
السياسية والدستورية والاجتماعية . على أنه لا مانع على كل حال
أن يأخذوا من كل شىء بطرف ، مجارة لأمثالهم فى الأم الحية
المستقلة ، ونحن بحمد الله أحياء ومستقلون . أليس كذلك ؟

كل مافى قهوة الجامع جميل ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع ، وأنها بالفعل فى جناح من مباني الجامع . فاذا ركب انسان سيارة وقال : إلى الجامع ، فإن السائق لا يعصى به إلا إلى القهوة ، وأكثر السائحين والسائحات لا يفرقون بين الجامع والقهوة : حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين ، وفى هذا عار وخزى يندى له جبين الرجل الغيور . فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شئون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لابدّ لهم من قهوة عربية فى باريس ؟ !

كل ما عندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة :

Une tenue très correcte est exigée

ومع هذا نجد للعشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق ، ويمجها الطبع ، ولا تجمل مطلقاً بمحل يتصل بيبيت من بيوت الله .

إن باريس تحتل كل شىء ، وأهلها لا ينجلون من شىء ، ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خطرة يجرى فيها اللهو

واللعب ، مهما قيل إن الغرض منها شريف ، وأنه لا يقع فيها
إلا اللهو المباح ...

أقد كنت أصلى فى المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلاً
بقول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه ولله منى والخلاعة جانب
ولكنى لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التى تطغى
بها القهوة على كرامة الجامع^(١)
وبعد فانى أرجو أن يقع خطابى من نفسك موقع القبول ،
وأن تبلغ تحياتى إلى صديقنا عبد الله حبيب وسائر زملائك
الفضلاء. والسلام.

باريس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠

(١) ونحن مع هذا نعتذر للصديق الحميم الحاج طاهر الصباغ مدير قهوة
ومطعم الجامع فى باريس : فلك ملاحظة أثبتناها لوجه الله والحق

الحديث ذو شجون

ما فرطنا في الكتاب من شيء^(١)

وردت هذه الكلمة الجامعة في القرآن المجيد . ولرجال الدين فيها تأويلات طريفة : فقد سئل بعضهم كيف يصح أن يكون القرآن لم يفرط في شيء وهو لم يتكلم عن الأسلاك البرقية وخطوط سكة الحديد ؟ فأجاب : لقد أشار الكتاب العزيز الى كل ذلك بقوله « ويخلق ما لا تعلمون »

ولقد مرَّ بالخاطر هذا التأويل حين قرأت ما كان بين معالي وزير الأوقاف ودولة النحاس باشا : فقد استطاع الامام أن يقرأ على المصلين (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لننْزِلنَّه لنسفعا بالناصية : ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب)

(١) كتبت هذه الفكاهة بمناسبة خطاب حلى عيسى باشا الى مصطفى النحاس باشا يلفت نظره الى مايقع من المظاهرات حين يتوجه لصلاة الجمعة

والشيخ الكارم حين تخير هذه الآيات كان يرمى بالطبع الى أن القرآن لم يفرط في شيء ، حتى الرد على وزير الأوقاف !
غير أنه من المستظرف أن نشير الى أن الآيات القرآنية لها مع حلمى باشا عيسى تاريخ عجيب : فقد كان وزيراً للمواصلات فى إحدى الوزارات السابقة ، وماتت قرينة الأستاذ الشيخ شاكر ، فذهب الوزير للتعزية ، ولكنه لم يكذباً أرض السرادق حتى صاح القارىء : (والخيال والبغال والحمير تركبوها) فقال بعض الحاضرين : شكر الله سعيك يا وزير المواصلات !

شئ ثقیل

وبمناسبة صلاة النحاس باشا نرجح أن ستفكر بعض الدوائر الوزارية فى مسابقة المصلين . وعلى ذلك ينتظر أن يتكرر الدرس الذى أخذه رشدى باشا عن سعد باشا ، رحمة الله على الجميع !
وتفصيل ذلك ان السلطان فؤاد (جلالة الملك) لما تولى السلطنة فى أيام الحرب أخذ يصلى الجمعة بمواظبة فى مساجد القاهرة ، وكان من المفروض أن يصحبه رئيس الوزراء ووكيل الجمعية التشريعية ، وهناك اضطرب رشدى باشا لأنه كان قليل العلم بأركان الصلاة . فلما التقى مع سعد باشا قال له :
« الحقنى يا سعد ، الله يسترك ، أنت يا حبيبي كنت

في الأزهر وصليت على الأقل مليون صلاة ، وما أظن أنك نسيت ، فأرايك فيمن يريد أن يتعلم ذلك حتى يتعلم فروض الصلاة ؟ »

وكانت ضحكات وفكاهات ، فقد أخذ سعد باشا يعلم زميله الفاتحة والتحيات ، ولكن ذلك لم ينفع ، لضعف ذاكرة رشدي باشا ، ولصعوبة الموضوع !

وأخيراً قال سعد باشا لزميله : ما عليك ، أنت ستصلي بجوارى وتصنع كما أصنع ، وهذه كل الحكاية

وقد ذهبوا بالفعل للصلاة ، غير أنه لسوء الحظ كان الامام يطيل الركوع والسجود ، فقال رشدي باشا بالفرنسية وهو ساجد : شئٌ ثقيل !

وفي ذلك الحادث الطريف قال حافظ بك ابراهيم :
سعدٌ يصلي ورشدي ؟ آمنت بالله ربّي !
وذاك فتحٌ جديدٌ قد جاء من غير حرب
يارب أبقِ فؤاداً حتى يصلي أُنبي
والاشارة في البيت الأخير الى اللورد النبي وستبقى المشكلة على ما كانت عليه: ففي الوزراء من نسي تقاليد الصلاة ، ومنهم من لا تحظر له في بال إلا أن قرأ أن مظاهره قامت بعد صلاة الجمعة في حي سيدنا الحسين !

لوحة السباعي

للأستاذ محمد السباعي فضل كبير على أكثر أدباء اللغة العربية ، وترجمته لكتاب الأبطال كانت ولا تزال من أبداع مازدان به مكاتب المتأدين ، ولا أدري لم لا يطبع ذلك الكتاب طبعاً يتناسب مع ما يستحقه من الخطر والجلال

لم أر الأستاذ السباعي الى الآن، ولكن صديقنا الأستاذ العقاد، آنس الله وحدته ^(١) ، كان يحدثنا عنه أحاديث عجيبة لا يمكن أن تنشر في صحيفة سيارة ، ويكفي أن نشير الى أن ميدان السيدة زينب كان من الأماكن المختارة لمخاطراته الغرامية !

وقد تعودت ان أقرأ خواطر الأستاذ السباعي وأنا أبتسم لأنني أقدر ما وراءها من القلق والاضطراب ، وكنت أفترض دائماً ان الرجل يلهو في خواطره الوجدانية ، الى أن رأيته يقول :

« ناشدتكم الله يا أهل هذا الجيل اذا وقعت كلمتي هذه

في أيديكم مصادفة فلا تهزأوا بها ، ولا تسخروا منها ، ولا تهملوني بأني أشتكى آفة موهومة ونكبة خيالية ، محتجين بأن العواطف من كواذب الاحساسات ، وأن آلام الحب أوهام وأحلام ، وأن التعقل والتروى خير مملكات النفس وأصح وظائفها ، وأنه

(١) كان الاستاذ عباس العقاد سجينا عند كتابة هذا المقال

لاحقائق في هذه الحياة الا البورصة والسمسرة والبنك والأسهم
والسياسة والنقابات ومائدة الطعام ومائدة القمار وصحة البدن
وقوة العضلات، الخ »

المسألة إذن جدّ في جدّ، والأستاذ السباعي في خطر ،
ولكن كيف السبيل الى إنقاذه وشباب هذا الجيل لا يكاد أحدهم
يظفر بقطعة حب حتى يأخذها ويجري الى السطوح !

على أن الأستاذ السباعي لا يعدم سبيلا الى السلوة والعزاء
أليس هو الذي يقول :

« أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة
في صحيفة محياك فقرأناها في صحيفة الطبيعة منشورة ، فأنت لم
تحتجبي مادمنّا نراك في الصباح المنير ، والجدول المنير ، فهلا
منعت النجم لمعانه ، والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير
ألحانه ؟ »

الحمد لله ! الآن اطمأنت على الأستاذ السباعي ، فلا شقاء
ولا عناء ، وقديماً علل نفسه بمثل ذلك من قال :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدان
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

وقد مرت بي أزمت تشبه أزمت الأستاذ السباعي ،
وسأجتهد في الاكتفاء بنور الصباح ، ولمعان النجم ، وسريان

البرق . ولكن ، وأأسفاه ! أنا أعيش الآن في بلاد لا يُرى فيها
شمس ، ولا قر ، ولا نجم ، ولا برق . فكيف الغزاء ؟

أتريد الحق ياسيد سباعي ؟ العشق نعيم على أن تكون لك
حبيبة كتلك التي زعمت أنها تزورك سرّاً في بعض الأحيان ، أما
الطواف بالديار ، وتقييل الآثار ، فهو في عالم الحب يشبه أزمة
القطن في عالم الاقتصاد ، فما أحوجك إذن الى صدق باشا جديد !

تزوج يامسيو راسين

على أن الأستاذ السباعي يحملنا في بعض خواطره على
الاقتناع بأنه صار من عباد الله المخلصين إذ يقول :

« الحمد لله على تقطع أسباب الأمل . هذا الغدر والغش .
والخيانة هو قصارى حظ الإنسان من المرأة التي يهوى ...
هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها ... هذا هو الشمع الذي
تنتهي إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة
الحب القذرة »

وقد ذكرتنا هذه الكلمة ما كان من شأن راسين الشاعر
الفرنسي : فقد كان المعروف أنه ترك التأليف المسرحي غضباً
من تحامل النقاد على رواية فيدر . ثم ظهر بعد البحث أنه كان
يتهمياً في سريرة نفسه للرجوع إلى الحياة الدينية ، فقد كان.

له رؤساء رويون يكرهون التمثيل والمثليين ، وقد صبر على
مغاضبتهم له طوال أيام الشباب . فلما أخذ عوده في الذبول فكر
في هجر التأليف المسرحي والرجوع إلى حظيرة الكنيسة .
وكذلك ذهب إلى رئيسه الروحي يطلب إليه أن يُعده حياة
الرهبان . ولكن رئيسه كان يعرفه كما يعرف نفسه ، وكان
يقدر أنه سيظل طوعا أو كرها زير نساء ، وأنه لن يتوب عن
جولاته في ميادين باريس . وإذ ذاك قال له : خير من هذا كله
أن تزوج يامسيو راسين !

فما رأى الأستاذ السباعي فيمن يطلب إليه أن يكتب
مقالا عنوانه : تزوج يامسيو راسين !

٩ فبراير سنة ١٩٣١

جواب الاستاذ السباعي

الى الأستاذ النابغة الدكتور زكى مبارك

قرأت بمزيد الشكر والاعجاب كلمتك التي دبحتها عنى
يراعتك الرشيقة فطرحت عن كاهلى عباً من الهم ما كان لشيء
خلافها أن يريحنى من فادحه ، وأطفأت عن كبدى مُشواظاً من
الكمد ما كان لغيرها أن يحيرنى من قاده ، ولا عجب ياسيدى
فكثيراً ما كنت أشعر أثناء قراءتى بدائع مُلحك ونفائسك
بائتلاف بين طبعك وطبعى ، وامتزاج بين روحى وروحك ،
ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحدثنا وتسامرنا ، ولكن
قضى الله ألا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرفى الكرة
الأرضية وبيننا المهامه البيد والآكام ، والتنائف الفيج والآجام
وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وألاً يصلك صوتى أو يصلنى
صوتك الا بعد أن يجوب شطرى قارتين ، ويقطع دقتى عالمين ،
ويعر بالجم العديد من أجناس الناس وصنوف البشر وشتى
المدنيات واللغات والثقافات ، فحيا الله رسالتك تلك الزكية
المباركة التى

تخطت إلى الهول مشياً على النوى

وأخطاره لا يبعد الله ممشاها

سیدی ! لقد مضى على شهور وأيام ، بل دهور وأعوام
وأنا أبكى مصاب الإنسانية في مصابي ، وأندب ما بها من
كوارث الحن ومابی ، وأضج لوعة وأیننا ، وأنتحب حرقة
وحیننا ، وتارة أرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ، حتى یخیل
إلى أن أعین النجوم تنرو إلى شفقة وعطفا ، وتدمع على
بقطرات النور أسفاً ولهفاً ، وأن الريح تُعول معی أسی
ووجداناً ، والموج یصطفح حسرة لی وتحناناً ، كل ذلك ولا
أسمع من بنی آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتاً یلبي
الدعاء ، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافاً مُواس ، كلا ، ولا
متعجب لی ولا متألّم ، ولا متبرّم ولا متسخط ولا مستنكر ،
لا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط
ولا « قبض » كأني أهتف بكلماتی بین رسوم بالیة وأطلال ،
أو أعكف على أصدانم وأوثان ، وكأني أضرب فی حديد بارد ،
وأصیح فی واد ، وأنفخ فی رماد ، وكأني مع هذا الجیل الأصم
الوسنان كما قال القائل :

فما یرتاح للمدح ولا یرتاع للذم
كأنا إذ سأله وقفنا سائلی رسم

وكذلك تعودت فی هذا الشعب الحی « الحساس » أن
أُتقرب وأقابل بالصد والإعراض ؛ وأتراف وألقی بالجفوة

والانتقباض ، وأستدنى وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ،
وأسهر فى صناعة القلم وأسهد وأكفأ ممن أسهر على مصلحتهم
بالوسن والرقاد ، وأزلف للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد
وأجازى بالكفر والإلحاد ، حتى ألفت من القوم هذه المخزيات
المخجلات ، ووطنت نفسى على اليأس من كل خير ، وتوقع
كل شر .

تعودت مس الضر حتى ألفتُهُ وأسلمنى طول البلاء إلى الصبر
وأصبحتُ حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف
الزمن من السرور واللذة كاسفة حزينة ، جافة جذبة ، ناضبة
مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة . وأصبح
القلم فى يدى أشد بؤساً ومسكنة من المزمар فى يد الشحاذ
المتسول ، ترى نغمة أقرب إلى أنة الشكلى منه إلى رنة المسرور ،
وأشبه بصوت النعى منه بصوت البشير ، وكذلك صرير
القلم فى يدى أشبه شئ بصرير أعواد النعش ، ولا عجب
فإنما قلنى نعش لنفائسه يحملها من المهد الى اللحد ، والله الأمر
من قبل ومن بعد .

وعلى هذه الحال من اليأس والقنوط ومن الجمود والركود
كنت ياسيدى حين هبطت على كلكك من أفق المدنية وسما
النور — نور العلم والعرفان ، والأمل والأمانى — فاطفات

لوعتى ، وشفّت غلتى ، وحركتْ همتى ، وأنهضتْ عزمى

لقد جلىّ كتابك كل همّ جوّ وأصاب شاكلة الرمى

وكان ألدّ فى قلبى وأندى على كبدى من الزهر الجنى

وضمّن صدره ما لم تُضمّن صدور الغانيات من الحلى

ولقد كنت قبل ورود رسالتك تأمّها حيران فى بحار الأدب

والأمواج من حولى جامدة ، والأمواء آسنة راكدة ، وسفينة

الأدب واقفة معطلة ناشبة بين صخور الفقر والإفلاس ، والنحس

والياس ، فلم يك صوتك إلا نفحة من نفحات الإيمان ، وروحا

من الله وريحان ، فأبدلتنا من الموت حياة ومن القنوط رجاء ،

وأعلمتنا أن لله معشراً أصفياء ، وقوماً أتقياء . ولولم يكن غيرك

يقرأ كلماتى لكان حسبى بك مشجعاً ومقدراً ، ومؤيداً وناصرأ

لقد داعبتنا طويلاً فى كلمتك يا سيدى ، وتالله ما رأيت أرق

منك مداعباً ، ولا الطف مفاكها ومطايباً

ولقد فتحت علينا باب موضوع الغانيات وهذا باب

لايسد ، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، وماذا

أقول فى الغايات إلا قول بعضهم :

فان تسألانى بالغوانى فانى أرى فى الغوانى غير ماتريان

انى ياسيدى لاأعرف سحرة ولا مشعوذين أشد مهارة

وحذاً باختتالنا واحتبالنا واختبالنا لدى كل فرصة سانحة ،
وبسبب وبدون سبب ، ولجورد اللهو بنا والعبث بعواطفنا
— بأقدس عواطفنا وأسمها — ولجورد الضحك علينا من
النساء ، وتراهن يلعبن بنا ألعيبهن بمتهى البساطة ، وبمتهى
الجرأة والوقاحة ، وبمتهى الحذق والبراعة ، وهذا ياسيدى
طبعهن ودأبن يأتينه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ومن
غروبها إلى مطلعها . وأعجب العجب انهن فى ذلك جميعه
سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفسادات ،
والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفريات ، والرقاقات
والقاسيات .

هذه نفثة من يراعى المحطمة ، متاع إلى حين ، وأرجو
أن أوفق إلى أمثالها ، ولا تحرمنا تحفك وملحك ، أبقاك الله .
للأدب ذخراً ، والسلام .

ثورة على الوجود

الى السيد حسن القاياتى

صديق العزيز

إنك لتعلم أننى فى حياتى الفلسفية والأدبية منصرف بعض الانصراف عن جو الشعر والخيال . ولكننى أحمل بفطرتى قلب الشاعر ، وأحيا حياة شعرية فى كل ما عيس العواطف والمشاعر والأحاسيس ، وتغلب الفطرة أحيانا فتلقى على أبجائى العلمية نفحة من نفحات الوجدان . وأنا مع هذا لأنظم الشعر إلا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار من شيطان القوافى والأوزان . فان رأيت لى يتا ، أو مقطوعة ، أو قصيدة ، فلا تحسبنى كنت مختاراً فى صياغة ذلك الكلام الموزون ، وإنما هى أزمة وجدانية أو عقلية أنطقتنى به فى حدود من القهر يعرفها من يعيش فى العالم بقلب الشاعر وعقل الفيلسوف . . . وهذه قصيدة فى الثورة على الوجود ، رأيت أن أهديها إليك ، تحية من باريس ، ولك أن تعارضها بقصيدة ، أو رسالة ، تمحو أذاها من نفوس القراء . والسلام .

ياجيرة السنين يحيا في مراتبكم
 فتى إلى النيل يشكو غربة الدار
 جنت عليه لياليه وأسلمه
 إلى الحوادث صخب غير أبرار
 أحاله الدهر في لأواء غربته
 روحاً معنى وجسماً نضوا أسفار
 يسعى إلى المجد ترميه مخاطره
 بنافع من شظاياها وضرار
 عزاءه أن عقيب كل عادية
 يشقى بها الحرث إكليل من الغار

يا خافق البرق ترتاع القلوب له
 كوقدة الغيظ في أحشاء جبّار
 تعال أهديك من روحى بعاصفة
 تُردى الأنام ومن قلبى بإعصار
 الناس ما الناس لا تدرى سرائرهم
 وما يُجنّون من كيدٍ ومن نار
 لو يفصح الغيب يوماً عن مصائرهم
 لأقصر اللؤم قوم أى إقصار

حار النبيون في تطهير فطرتهم
فما عسى نفع أمثالي وأشعاري

رباهُ آمنت لكني على خطرٍ
يغتالني الشك في جهري وإسراري
سوَّيتَ في الناس أخلاطاً مبعثرةً

تشوكُ عشاق صُنع المبدع الباري
أرى وجوهاً بصدق الود واعدةً

ولا أرى ظل قلبٍ غير ختارٍ
كم من عشير أواسيه وأنصره

يرعى حمى بقلبٍ جاحدٍ ضارٍ
غفرانك الله هذى نفثةً غلبتْ

ألقى بها الشعر لم تُسبق بإصرار

باريس في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨

الأدباء وأساتذة الآداب

وصلتني دعوة لحضور أربعاءات الأليانس فرانسييز. وهذه الأربعاءات لها برنامج خاص . فالأربعاء الذي يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب . ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب في المعاهد والكليات، فان كلمة : Homme de lettres غير كلمة

Professeur de littérature

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية . أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التي تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق في العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة . وكذلك يفرق الجمهور الفرنسي بين رجال الأدب وأساتذة الآداب ، وهو فرق رسمي ، ولكن له دلالة وله معناه : فان رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات .

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم في وزارة المعارف وفي المعاهد والكليات . ومن الصعب أن تحكم بأفضلية أولئك أو هؤلاء ، فإن من الحق أن الدراسات الجامعية مُثْقَلَةٌ بأعباء الجهود والمشاق ، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء مُعْجِزٍ وشقاء موصول . ومن الحق كذلك أن الأديب الذي حرّمته الظروف من الدرجات والألقاب لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لا يصبر عليها إلا الأقالون

وهناك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الإنتاج : فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التي تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم ، بنوع خاص ، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات . وما إلى ذلك مما يستطيع الجمهور الإقبال عليه في أوقات الفراغ . أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف في الموضوعات الصعبة المعقدة التي لا تجد من يُقبل عليها غير الطلبة والمدرسين ، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق ولهايتين الوجهتين مزايا وعيوب . فرجال الأدب يؤثرون في الجماهير تأثيراً بليغاً ، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التي يفهمون ويسايرونهم في دروس مشاكلهم الروحية والعقلية بطريقة

خلافة قد تصل بهم إلى الإِسفاف وإلى ضياع الكرامة في بعض الأحيان . وأساتذة الآداب يؤثرون في جماهير قليلة العدد ، هي جماهير الطلاب . ولكنهم يبالغون في التحفظ والتصوُّن إلى درجة مملة . ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يصاب في عقله بالزمانه والضيق . ومن هنا صح ما نجد في بعض الأوساط الفرنسية من التحامل على رجال الجامعة ورميهم بالحق وضيق العقل : والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله جامعى ، ويسمون رجال الجامعة « فيران المكاتب » !

ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير المباشر في الجماهير ، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة الأدب في عصره ، ثم تقدم للانتخابات فلم يكن له من عواطف الناخبين نصيب : ذلك بأن الرجل تعود مخاطبة الجماهير المثقفة ، وتعود الاعتماد على ذكاء من يستمعون إليه ، فلما واجه سواد الشعب التبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب

أما رجال الأدب فهم أقدر الناس على كسب المعارك الشعبية : لأن لديهم من الكياسة ومرونة الذهن والخلق ما يقربهم من أنفس الجماهير ، وحسب القارىء أن يعرف أن الذين يخوضون معارك الانتخاب في فرنسا يجب على الأقل أن يكونوا ألقوا إدمان الشراب ، ولم ذلك ؟ لأنهم لا يلتقون بناخبهم الا

في القهوة ، وهى ملتقى الالهالى فى الاقاليم . فمن واجب المرشح
أن يذهب الى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه : ماذا تطلب ؟ وإذ
ذاك يشربان معا . وهذه هى الوسيلة لكسب الاصوات !
ولا يليق بالمرشح أن يكتفى بقهوة أبى الفضل لأن الذى
لا يشرب قهوة أبى نواس يبخل عليه الفرنسيون بلقب
« مسيو » !

فإذا يصنع أساتذة الأدب فى هذه الحال وهم قوم تلفت
أمعائهم من كثرة الجلوس ، ولم تُبق فيهم مراجعة المعاجم ، ونقد
النصوص الأدبية والفنية والعلمية ، بقية من نضارة الجسم ،
وصفاء الذهن ، ورقة الحس ، يستطيعون بها فهم ما يختلف
وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة ؟ !
وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدين ،
فروق قلما يتنبه اليها الجمهور الذى ينتظر كل شىء ، ولا يطالب
نفسه بشىء

فأساتذة الآداب قد يُحسدون على ما يظفرون به من
مناصب الدولة : فهذا موظف فنى فى وزارة المعارف العمومية .
وذاك مدرس فى مدرسة من كبريات المدارس الثانوية . وذلك
استاذ فى كلية الآداب . وهى مناصب قد تحمى أصحابها من
التفكير فى هموم المعاش . ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة البلاء

الذى يعاينيه اساتذة الآداب ؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب التى يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا أو كارها فى مكتبه لا يفارقه فى صباح او فى مساء ؟ من الذى يفهم الآن كيف كان يقول الفراء : « أموت وفى نفسى شىء من حتى ؟ » من الذى يعرف أن الباحث قد يقضى اعواما طويلة فى تحقيق كلمة أو تصحيح غلطة ، وهو يرى ذلك كل شىء فى حين أن الجمهور قد يراه نوعا من الوسواس ؟ أين النافذون الى بواطن الامور الذين يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون الى لحظة من لحظات المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب والجدران ، ثم لا يستطيعون : لأن رأى العام قد يرميهم بالتبذل والإسفاف ؟

وكم من مرة يقول الناس : ماذا يصنع الاستاذ فلان ؟ لقد سكت منذ زمان !

وذلك الاستاذ لا يستطيع الجواب لانه لا يضمن الاحترام ان أجاب : لقد شغلتنى « حتى » فى هذه السنوات !

ماذا يصنع أساتذة الآداب فى عصر الأحجام والمكايل والأوزان ! ان القارئ لا يشتري الكتاب فى هذه الأيام قبل أن يعد الصفحات وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون الإسهاب : لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد ، ومهنتهم تقضى

عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل. فياويح رجال المعاني
في دولة الألفاظ !

إنها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة
الآداب في هذا الجيل، تضحية تصغر بجانبها عظام التضحيات .
لأن الأستاذية مهنة قلما تُجازَى بحفظ الجميل ، ولا يخفف من
همومها في أنفس أصحابها إلا فكرة واحدة : هي أن الأستاذ
يقف حيث يقفه الواجب : فهو جندي في الجيش لا يليق به غير
الامتثال ، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد
الصَّيت ، لأن الأستاذية الحق لا تكتمل قوتها إلا في ظلال
الحمول .

إن الأستاذ المخلص لو أجبه قد يُنسى كل النسيان ، وقد
تُجرَح نفسه جرحاً بليغاً حين يجد من يسأله : من أنت ؟ فإن
المسكين لا يستطيع أن يجيب : (أنا الذي شرحت الرسالة
العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فإن هذه في
نظر السَّواد توافه لا يحسب لها حساب !

وبعد هذا كله يبقى الله عز شأنه الذي لا يضيع أجر المحسنين
فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل !

ورجال الأدب ، أو الأدباء ، كيف حالهم ؟

لقد أشرت الى انهم أبعد أثراً في الجمهور من أساتذة الآداب
ولكن تعال ننظر ما حظ هؤلاء المحسودين

ان كثيراً منهم يعملون في الصحافة ، ويبد كثير منهم إسقاط
وزارات وإقامة وزارات ، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات
جذابة تنفذ الى أعماق النفوس ، فهل نستطيع مع هذا أن نعدم
سعداء ؟

ان الأديب لا ينبغي إلا إذا ارتطم في الغواية والبؤس ، وتلك
سنة الطبيعة منذ خلق الأديب الى اليوم ، ويكاد يكون من
المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صهرتهم الهموم
والأحزان .

أضف إلى ذلك انهم لا يؤثرون في قرائهم إلا إن تأثروا هم بما
في الحياة من لين وبأساء . ولا يقع شيء من هذا إلا إن عاشروا
الناس وشاركوهم في جدهم وهزلهم ، وحلمهم وجهلهم ، وعقلهم
وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين .
وهذا كله : أحسبه بلا ثمن ؟ هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية
والمال !

ان الكاتب الذي تقرأ له فيشعرك الحكمة وفصل الخطاب
ليس في حقيقة الأمر الا رجلاً بأسافل طريق الرشاد ، وهو
في أكثر الأحوال موزع القلب بين الحب والكأس ، فان سمعت

عن ضلالات الكتاب والشعراء ، أو حدثك النقاد عن بؤس
ميسيه أو ييرون أو بودلير فاعلم انك أيها القارىء كنت بعض
السبب فى شقاء هؤلاء ، فقد ارتبطت حياتهم بحياتك ، وكتب
عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا بعجائبك بهم ، أو
انصرافك عنهم ، وانك أيها القارىء قد لا تعرف نفسك : فان
لك شهوات ونزغات خفية يغيب أكثرها عنك ، ويفهم أولئك
البؤساء حاجتك الى من يطلعك عليها فى حديث شائق خلاب .
والأدب فى صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن
الاهواء والشهوات والنوازع والميول : من حب وبغض ، وبسط
وقبض ، وأثرة وإيثار ، وحقد وصفاء ، وإقبال وإعراض

والكتاب لا يصل الى مرضاتك حتى يضع نفسه ، لأنه
لا يمد يده الى مكتبته فيخرج الرسائل محبرة موشاة بلا تعب ولا
عناء ، وإنما يتنقل من حى الى حى ، ومن ملعب الى ملعب ،
ومن ناد الى ناد ، ويرى الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، وما
يزال كذلك حتى تفتتح أسرار قلبه ، وسرائر نفسه ، ثم يعود فينقل
روحه ، ويسكبها على بياض القرطاس

أتفهم ذلك ؟

نعم ؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك ! وأنت نفسك مطمئن الى أن

رجال الأدب لا خلق لهم ولا دين . ومن أجل هذا تتحدث عنهم بما تعرف وما لا تعرف ، وتضيف اليهم كل ما يمر ببالك من المنكرات !

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشئون النسبية : فقد يكون لهؤلاء الذين تجرّحهم ضائر أطهر من الماء ، وأصفى من سماء مصر ، وقد يكونون في عربدتهم أقرب الى الله من بعض المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم يبض الوجوه سود القلوب !

إن ألفريد دى ميسيه الذى بكى لبؤسه وشقائه ألوف الألوف من القراء ، هذا الرجل كان يتشهى البؤس ، وكان يحسد رفاقه على ما (ينعمون) به من الضجر والاكتئاب ، وما زال يتباكى حتى بكى وأبكى . أفندرى لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم ؟ لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمت قلوبهم الاشجان وأصمتهم الخطوب

فإذا أعددت أيها القارىء لرحمة أولئك المساكين ؟ لا شيء ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد ، كأنهم لم يشقوا في سبيلك ولم يفتحوا لك ميادين العواطف والاحاسيس ، وكأنك لم تتخذ شعرهم ونهرهم ذخيرة للحظات اللذة وأيام الشقاء : فقد كانوا ولا يزالون أو تاراً لوثبات الفرح ونبرات الأنين

فأى الصنفين أشقى : رجال الأدب أم أساتذة الآداب
لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين فى نزاهة
وإخلاص ، فاحكم بما تشاء



أما بعد فهذه خواطر مرت بالنفس حين تقدم السيو هوج
لاير ليلقى محاضراته عن ذكريات الحى اللاتينى ، وهو من رجال
الأدب الذين سمحت لهم الشهرة بأن يُدعوا لإلقاء محاضرات بأجر
معلوم ، ماأتى فرنك أو تزويد ، وقد لحت هيئته لأول وهلة
فأدركت أنه حريص على تملق أهواء الجمهور ، وفى الرجل ذلاقة
وطلاقة تليقان بخشبة المسرح لا كرسى المنبر . وفى وجهه وقوامه
وشمائله بقايا من الشباب تدل على أنه خليق بأن تكون له ذكريات
عن الحى اللاتينى : فإنه حى لا يفهمه الا من رُزق نصيبا من
من نضارة الصبا ، وصفاء الروح . ومع هذا لم يتحدث عن الحى
اللاتينى بما كنت أنتظر من رجل قضى شبابه فى حى السوربون
وان كان هذا لا يمنع أن الجمهور صفق له أكثر من عشرين مرة .
فاذا قال ذلك المحاضر وما هو إحساس من يعيشون بذلك الحى
الذى يسمى حى الشباب ؟ وكيف يفهمه الغريب حين يفاجأ
بما فيه من غرائب وأعاجيب ؟

أول فبراير سنة ١٩٣١

ذكريات حي الشباب

حي الشباب في باريس هو الحى اللاتينى ، وهو حي الشباب بأجل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة ، وليس في الدنيا التى رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها باذاننا أو قرأنا أخبارها في أساطير الأولين ، ليس في الدنيا كلها بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب وتندى أوراقه ، وتمايل أغصانه ، ويتأرجع عبيره ، كما يرى رؤاد الحى اللاتينى في باريس

ولا يعرف المرء صنعة الله ، جلت قدرته ، الا في ذلك الوادى من أودية الوجود ، وان لحظة واحدة في پول ميش (تصغير بولفار سان ميشيل) لتتفتح الجاحد بأن الله أجل وأعلى من أن تتناول الى نقد صنعته أوهام المكابرين ، تعالى الله عما يصفون !

وما ظنك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجرى عليها من أسراب الملاح ؟ ما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما يملك العالم من نضارة الشباب ، وروعة الجمال ؟

الحى اللاتينى هو حي الشباب ، وليس في قدرة أفصح

الكتاب وأبلغ الشعراء أن يثنى على ذلك الحى بما هو أهله ،
 وقصارى المفتون به أن يقول : حى الشباب ، حى الشباب !
 لقد ذكرت للقارئ فى كلمة سألقة أن المسيو هوج لاير
 ألقى محاضرة عن ذكريات ذلك الحى ، والآن أفصل الكلام
 بعض التفصيل : لقد وقف المسيو هوج وابتدأ محاضرتة
 بصراخ عنيف :

الشباب ! الشباب ! الشباب !

ثم أخذ يهذى بكلمات شجية كادت تجرى لها دموع
 السامعين ، وقد تأملت المسيو هوج لاير فإذا هو رجل قد
 امتد به الزمان ، ولكن فيه بقايا من رشاقة وصباحة تدل على
 أنه قضى فى الحى اللاتينى لىالى قصيرة من لىالى الشباب المطول
 لقد ذكرتنى لوعة المسيو هوج على شبابه بلوعة منصور
 النميرى إذ قال :

ما تنقضى حسرةً منى ولا جزعُ

إذا ذكرت شبابا ليس يرتجعُ

بانَ الشباب وناَبَتْنى بفرقتِه

خطوب دهر وأيامٌ لها خدَعُ

ما كنت أوفى شبابي كُنه غرته
حتى انتضى فاذا الدنيا له تبعُ

وقول الآخر :

أتأمل رَجعة الدنيا سِفاهًا
وقد صار الشباب إلى ذهابِ
فليت الباقيات بكل أرض
جُمِعْنَ لنا فنُحْنِ على الشباب !

تكلم المحاضر عن الحى اللاتينى فى أدواره التاريخية وذكر
عدة نوادر وقعت من طلبة الطب وطلبة الحقوق ، وأظرف
ما جاء على لسانه حوادثُ الطلبة الذى كانوا « يأكلون » إيجار
المساكن ، فقد وقع غير مرة أن امتنع بعض الطلبة عناداً
ومكابرة عن دفع أجرة المسكن ، وكان ذلك يجرى بين دُعابة
المالكين وابتسامهم : « لأن المفلس يغلب الحاكم » كما يقول
المصريون !

ومن نوادر ذلك الحى أن أحد الطلبة دخل دكان بعض
الحلاقين ومعه عشرة من الرفاق ، وكان الجو مطيراً ويبد كل
منهم مطرية مثقلة بالماء ، فما كادوا يستقرون بمطرياتهم حتى
تحول الدكان إلى بحيرة ، أو كاد ! وهنا قال الحلاق : مَنْ الأول ؟

فأجابه ذلك الطالب في هدوء : أنا الذي جئت لأصلح من شعري ، وهؤلاء جميعاً في معيتي !

وهذه نكتة لا يدرك قيمتها إلا من عرف جو باريس ، وأهل باريس ، فهم قوم لا يحملون مطلقاً أن يروا إنساناً لا يغمرهم بالمال ، فكيف إذا رأوه لا يغمرهم بغير الماء !

وقد وقع لبعض الأساتذة في كلية الطب أن أولع الطلبة بمهاجته وهو يلقى محاضراته ، ولكن كيف ؟ كانوا يرمونه بقطع من النقود تساوى في قيمتها أرباع الملايم ، وكان الفريق الراضى عن ذلك الأستاذ يرميه بباقات الأزهار : فكانت تتجمع أمام الأستاذ وعن يمينه وعن شماله عشرات الباقات ومئات الملايم ، وهو يتلقى ذلك كله بين الحوالة والاسترجاع ، فإذا انتهى من محاضراته جمع الأزهار والنقود ووضعها جميعاً في محفظته ، ثم خرج يتوسم الوجوه ليوزع النقود على الفقراء ، وليهب الأزهار للعيد الحسان !

ومما يؤثر عن شجاعة الطلبة ونبلهم في ذلك الحى أن إدارة الجامعة غضبت مرة على بعض الأساتذة وقررت فصله ، وكان الطلبة معجبين بمواهبه ، فكانوا يذهبون في صبيحة كل يوم إلى منزله ، ويكرهونه على الذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضراته ، وكان ذلك يقع بدون أن تجرؤ إدارة الجامعة على التدخل خوفاً

من ثورة الطلاب ، وفي نهاية العام ذهب الطلبة متجمهرين إلى مجلس النواب فخلوه على أن يقرر إعادة الأستاذ إلى منصبه ، وردّ ما ضاع من مرتبه في العام الذي فصل فيه : وكانت هزيمة مُنكرة لمدير الجامعة عرف فيها كيف ينتصر الشباب الحى على الكهولة الباغية التى تمشى إلى الفناء !

وقد استطرد السيولابير فذكر الشعراء والكتّاب الذين كانوا يستمدون وحيمهم من الحى اللاتينى ، وأنشد الجمهور قطعاً من شعر ميسيه وفرلين وبودليير ، وقد صفق الحاضرون أكثر من عشرين مرة للذكريات الطريفة التى رواها لهم خطيب حى الشباب



وأريد الآن أن أذكر بعض مشاهدته بنفسى فى الحى اللاتينى ، وأذكر أولاً أننى كنت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ مقالات فى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية بامضاء « الفتى الأزهرى » وكان مما اقترحته حينذاك أن تُنشأ حديقة أمام الأزهر ، وحديقة فى فناءه ، ليكون شبيها بالسوربون محفوفاً بالحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء ، فلما جئت إلى باريس سنة ١٩٢٧ كان أول ما فكرت فيه الذهاب لاستنشاق

الهواء في بساتين السوربون، فماذا وجدت ؟ لم أجد في فناء السوربون ولا حولها شجرة واحدة، ودَهْشْتُ إذ رأيت فناء السوربون يشبه صحن الأزهر تماما: فلا نجم ولا شجر ولا نبات ولا ماء!!

يا عجباً! ما الفرق إذن بين جامعة الأزهر وجامعة باريس ؟ أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يفرسوا في فناء السوربون شجرة أو شجرتين ليصحَّ ظنى فيهم ، ولتصدق المقالات التي كتبتمـا في جريدة الأفكار وأثبتتمـا في كتاب البدائع ؟!

ولكن مهلاً ! فهناك على مقربة من السوربون وعلى بُعد دقيقتين اثنتين حديقة الكسمبور : وهى حديقة أولى بها أن تسمى (جنة الحى اللاتينية) لأنها تشبه من بعض الوجوه الجنة التى وُعد بها المتقون ، ففيها السّدر المخضود ، والطلّح المنضود ، والظل الممدود ، والماء المسكوب ، وفيها الحور العين ، والولدان المخلّدون ، وإن كانوا لا يطوفون بأكواب وأباريق وكأمن من معين

هى تشبه بعض الشبه الجنة التى وصفت في القرآن ، والفرق بين الجنتين أن الجنة القرآنية لا يسمع فيها المؤمنون لغوا ولا تأثما ، إلا قليلاً سلاماً سلاماً . أما الجنة اللاتينية فبستان أنيق

طالما رنّت فيه القُبْل الأثيمة ، وتمت فيه مواعيد اللهو والمجون .
وقد تكون تلك الجنة اللاتينية أشهر مهّد من مهود الغواية
الفِطرية التي يقع فيها الشباب بوحى الطبيعة ، قبل أن تصطبغ
نفوسهم بلوّم الفُجّار وخبث الما جنين

وحديقة لكسمبور لها عهدان متميزان : عهد الربيع
والصيف ، وعهد الخريف والشتاء ، وأقصى أيامها هو العهد
الآخر ، ففي الخريف تتساقط أوراق الأشجار رويدا رويدا في
حالة تثير الأسى والشجن . فإذا جاء الشتاء عادت الأشجار مجلّة
بالسواد كأنها في حداد . وفي هذا العهد لا تزار لكسمبور الا
لِماما . وقد تطيب زيارتها في أيام الجليد حيث تبدو أرضها ناصعة
بيضاء كثنيايا العروس

أما عهد الربيع والصيف فهو عهد الحب والشباب في
لكسمبور ، فاشتت من حُسْن منثور ، وغزل رقيق ، ودُعابة
يتبادلها المتحابون المتعاشقون ، وعطف تتجاذبه القلوب التي
هياتها الطبيعة لكسر أغلال الوجد المكبوت

وأغرب ما في الامر أن حديقة لكسمبور ليست للشباب
وحدهم : فهناك كهول يتخذونها مواعيد للغرام . وقد حدث
مرة أن شهدت فيها مدرسا مصريا ما كنت أحسب أن الله
خلقه لَوْجَد أو صباة أو تشبيب : حيث لا يفتح الله عليه بكامة

إلا في لوم العشاق والغزّلين . رأيته وإلى جانبه عجوز فانية
شمطاء يئس من خداعها الشيطان، وهما يتناجيان بأرق من نجوى
الطير ، فتذكرت قول الشاعر

لكل ساقطة في الحى لاقطةٌ

وكل بائرةٍ يوماً لها سوقُ

ولا تحسب أن هذه الحديقة خلقت للحب وحده ! كلا
فهى أيضا أطيب مكان لمذاكرة الدروس ، وهى تذكر من هذه
الناحية بمحادثات قصر النيل ، ولكن هل يراجع الطلبة فيها دروسهم ؟
قد يكون ذلك ! ولكنى أذكر أنى ماشاهدت فيها الطلبة إلا
متجمعين أسرابا أسرابا يتبادلون شهى الحديث ، وفى ظنى أن كلا
منهم كان يقول : بقى على الامتحان سبعة أيام . خير ! لا يزال
أمامنا وقت ! وغداً سنأخذ فى المذاكرة بجد لا هزل معه ! فاذا
جاء الغد تجمّعوا من جديد ، وأخذ كل منهم مقعدا بليمين
وعادوا يتنادرون بفاتنات الاحاديث ، وشائقات الاقاصيص

وأعجب ما يلفت النظر فى شباب الحى اللاتينى أنهم لا يلتفون
بعضهم حول بعض الا قبيل الامتحان . وهم بذلك يتعاونون
على قتل الوقت ، وترجية أيام الانتظار ، فاذا جاء الامتحان
ذهبوا بقلوب من حديد ، وألقوا على القراطيس ما يحسنون وما
لا يحسنون ، وتركوا وزارة المعارف تفعل ما تشاء ! فمن نجح

منهم ذهب فباع كتبه كلها بالثمن الذي يُعرض عليه ، ثم مضى
يبيع ما اقتضاه منها في مراقص موبارناس . ومن كُتِب عليه
الخذلان انطلق إلى أهله يصف المتحنين بالعنف والجبروت
والرغبة في التعجيز : وهى وسيلة لا بأس بها لستر الكسوف !
أشرت إلى أن حديقة لكسمبور معهد من معاهد الحب ،
ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائما عند الغروب ، حتى لا يتمتع
أحد بخلواتها في أمسية الصيف والربيع . ولكن هل معنى هذا
أنها تحمل شارة الرفث والفسوق ؟ لا ، فكل ما يجرى فيها يتقبله
الناس على العين والرأس ، وأستطيع أنؤكد أن أعف المتخرجين
يشهد ما يقع فيها بنفس مغمورة بالجازبية والعطف والحنان .
ولست أعرف لهذا تفسيراً ولا تعليلاً ، وأكبر الظن أن إشراق
الأزهار في الحياض ، وإشراق العقود في الأحياد ، وعبير الشباب
الذى يتأرجح بين الأشجار والتماثيل ، كل أولئك يلقي على الروح
شُعاعاً من الرفق بما يشرد فيها من جوامح العيون ، وخوافق
القلوب

وما يدرينا ؟ لعلنا نحن الشرقيين الذين نقيّد ذلك ونلتمس
له التأويل ، أما الفرنسيون فلا يرون في حديقة لكسمبور شيئاً مما
نراه ، فهم يرسلون إليها أطفالهم في طمانينة تامة ، بحيث يشهد
المتفرج حول الفسقية عشرات الاطفال من ذكور وإناث .

وييد كل طفل سفينته المحبوبة يلقي بها في الماء وينتظر عبورها
في فرح وشوق لا يفهمها غير الصبية الناشئين .

وفوق ذلك هناك ملاعب التَّنْسِ، وهى ملاعب يسعى
إليها البنون والبنات في أيام العطلة وساعات الفراغ . فهل تظن
أن أحدا يتخرج من إرسال بنيه وبناته إلى ذلك الوادى
الجميل ؟

أتريد الحق؟ إن أهل باريس لا يرون في الحب ما نراه : هو
عندهم شريعة من شرائع الحياة . وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق
أحد المقاعد، وبجانبهما صبية مشغولة بكتاب تقرأه أو شعار
تَحْكُوه، أو أمل مرموق تُقْلِبُه في صدرها المفتون ؛ ثم تظل في
في عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين
رنين القُبْل وهدير العناق !

إن أهل باريس لا يعرفون الفضول . ولهذا كانت تلك
المدينة ولا تزال أحفل معالم الصباية بأسباب الأمان

هذه السطور تعطى صورة مبهمة جدا عن جنة الحى اللاتينى
وعذرى فى ذلك مقبول: فتلك بقعة لا تسمو إلى تحديدها الاقلام.
والكاتب يخذع نفسه حين يتوهم أنه قادر على وصف ما تشهد
عينه، ويُنْجِن صدره من ألوان المحسوسات والمعقولات. وحسب

القارئ أن يدرك أن تلك الحديقة هي ملعب الشباب في الحى
اللاتينى . وفي سحرها وجمالها تعليل بسيط لما سنعود إلى سرده
من ذكريات ذلك الحى الجذاب

باريس فى ١٥ فبراير ١٩٣١

كيف النجاة

وقد فطر القلب على الحب

رباهُ صُغْتُ فؤادى من الأسى والحنينِ
ولم تشأ لضلوعى غيرَ الجوى والشُّجونِ
فكيف تصفو حياتى من الهوى والفتُونِ ؟
أم كيف تُرجى نجاتى من ساجيات الجفونِ

باريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٧

غريب في باريس

يَا بَجَنَّةَ الْخُلْدِ كَيْفَ يَشْقَى فِي ظِلِّكَ النَّازِحُ الْغَرِيبُ
النَّاسُ مِنْ لَهْوِهِمْ نَشَاوَى وَدَمْعُهُ دَافِقٌ صَبِيبُ
يَقْتَاتُ أَشْجَانَهُ وَحِيداً فَلَا صَدِيقٌ وَلَا قَرِيبُ
أَقْصَى أَمَانِيهِ حِينَ يُمَسَّى أَنْ يَهْجَعَ الْخَفَقُ وَالْوَجِيبُ

مَعَانِي النَّيْلِ كَيْفَ أَقْصَتْ رَيْبَ أَزْهَارِكَ الْخُطُوبِ
وَكَيْفَ أَلْقَيْنَهُ بِأَرْضِ أَصْحَ أَحْلَامِهَا كَذُوبِ
أَدِيمُ أَجْوَاهِهَا سَوَادٌ فَلَا شُرُوقٌ وَلَا غُرُوبُ
وَحُبٌّ غَادَاتُهَا مَوَاتٌ فَلَا سَكُونٌ وَلَا هُبُوبُ
وَمَنْ تَبِعَ جِسْمَهَا بِشَيْءٍ فَقَلْبُهَا مُقْفَرٌ جَدِيدُ

أَحْبَبْتِي ، وَالْفِرَاقُ وَيلٌ تُرْمَى بِأَرْزَائِهِ الْقُلُوبُ
جَزَا كَمِ الْحُبِّ ، هَلْ نَسِيتُمْ مَا كَانَ مِنْ وَرْدِنَا يُطِيبُ

أَيَّامَ نُسْقَى الشَّمُولَ صِرْفًا ووجهها عابسٌ قَطُوبُ
 نصارع الكأْسَ لانبألى ما يكتُم الدهر والغُيُوبُ
 والزهرُ من حولنا شهيدُ والنجم من فوقنا رقيب
 غِذاءُ أَسْمَاعِنَا غِنَاءُ يكاد من لُطْفِهِ يذوبُ
 وزاد أَبْصَارُنَا جَالُ تُبَاحُ فِي حَبِّهِ الذُّنُوبُ
 إِذَا دَعَانَا الصَّبَا هَبْنَا وَكَلْنَا سَامِعُ حَبِيبُ

* * *

لَا تَسْأَلُوا الْيَوْمَ كَيْفَ حَالِي فَالْعَيْشُ مِنْ بَعْدِكُمْ عَصِيبُ
 مَجْنُونٌ لَيْلَا كَمْ اسْتَبَدَّتْ بِعَهْدِ أَحْلَامِهِ الْكَرُوبُ
 لَا أَكُوسُ الْحُبِّ دَائِرَاتُ وَلَا عُيُونُ الْمَهَا تَجِيبُ
 يَسَدُّ السَّهْمَ لَيْسَ يَدْرِي أَيَخْطِئُ السَّهْمُ أَمْ يَصِيبُ
 يَطَارِدُ الْمَجْدَ فِي زَمَانِ إِقْبَالَهُ غَادِرُ لَعُوبِ
 الشَّهْمُ مِنْ نَاسِهِ شَرِيدُ وَالْحَرُّ مِنْ أَهْلِهِ غَرِيبُ

باريس ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩

ملاهى طلبة الطب

يمتاز الحى اللاتينى من بين أحياء باريس بتلك الحيوية
الجذابة التى تنبعث من ساكنيه وأكثرهم شباب ،
ولكن سكان ذلك الحى الذين ييثون فيه من روح الابتهاج
والانشرح ينقسمون إلى طبقات ، ولكل طبقة خصائص
ومميزات ، فهناك طلبة الآداب ، وطلبة العلوم ، وطلبة الطب ،
وطلبة الحقوق

ونستطيع أن نحكم بأن الفريق السعيد من بين هؤلاء جميعاً
هم طلبة الطب ، لأن طلبة العلوم والآداب والحقوق يعرفون
ما ينتظرهم فى دنياهم من الجهد والعناء ، أليس مصير طلبة الآداب
والعلوم إلى التدريس فى المدارس الثانوية ؟ ويكفى أن تقدر أن
أن هذا مصير الطالب لتعرف أنه مُخلق للتضحية : فإن التدريس
محنة من محن الحياة لا يصبر على لأوائها غير المحتسبين الذين
وطّنوا أنفسهم على المجاهدة والمجادة فى سبيل أمهم ، وأصحاب
هذه المهنة جديرون بأن يكتهلوا قبل الأوان ، لأن إحراق
الدم والأعصاب فى سبيل التعليم بلية لا يتحملها غير من اطمأن
إلى حمل راية الجهاد ، وليس فى مقدور واحد من طلبة العلوم

والآداب أن يطمع في غير المدارس الثانوية ، لأن المدارس العالية تتطلب من المدرسين مؤهلات أهمها إجازة الدكتوراه ، والدكتوراه لا يظفر بها طالب في فرنسا إلا إذا وصل به علمه وعقله إلى أن يضع قدمه بين صفوف الباحثين . وللقارىء أن يتأمل كيف يتأتى لطالب أن يُعَدَّ رسالة للدكتوراه وهو قد يتعثر في موضوع إنشاء !!

وهذا المستقبل المظلم الذى يتطلب ما يتطلب من المشاق خليقته بأن يجلس طلبة العلوم والآداب في أقفاص من التوقر والاحتشام . من أجل هذا تنحصر ملاهى هؤلاء الطلبة في لعب الشطرنج والبليارد ومعاكسة البنات في مدرجات السوربون ، ومناوشة الأساتذة إذا اقتضى الحال ؛

وقد يتفضل مدير الجامعة ، رفقا بطلبة العلوم والآداب ، فيقيم حفلة راقصة أو حفلتين في أبهاء السوربون ، وهى حفلات طريفة يتراقص فيها الطالبات والطلاب ، لولا أنها مصحوبة ببعض التكاليف ، وبهذا يُجرَم منها كل طالب لا يملك ثوب السهرة ، أو لا يجد ٢٥ فرنكا للاشتراك

وهذه الحفلات تمر غالباً في سلام ، وإن كان الناس يتوقعون غالباً أن يطلق فيها الرصاص ، بسبب العداوات الخطرة التى يحترق فيها الطلاب وهم يتسابقون في كسب قلوب الطالبات

فَاللَّهُمَّ (فَوَّتْ) حفلة هذا الشتاء بخير ، لأننى سأكون بين
السامرين !

تلك لحظة عن المساكين طلبة الآداب والعلوم . أما طلبة
الحقوق فلست من أمرهم على يقين ، لأننى لم أدخل كلية الحقوق
فى باريس إلا زائراً ، ويظهر مما رأيت أن طلبة الحقوق أقرب
إلى الأندية والمراقص من طلبة العلوم والآداب . ولكنهم
على كل حال يُعِدُّون أنفسهم لمهن المحاماة ومناصب القضاء ،
وتلك أودية من وجهات الرزق كثر فيها الزحام وقل فيها
الثراء ، ولهذا يعيشون مُثْقَلِينَ بما ينتظرون من مصاعب الحياة .
كان الله لنا ولهم ، إنه نعم المعين !

بقى طلبة الطب ، أهلاً وسهلاً بأسعد الناس فى حى الشباب !
أنا لا أعرف أيضاً طلبة الطب . ولكن حظهم من مُتَعِ
الحياة فى باريس وصل إلى جميع الآذان ، وشهدته أكثر
العيون ، وكلمة « طالب طب » تساوى فى باريس كلمة (خليع)
فقد جرت التقاليد بأن يظفر طلبة الطب بنوع من الحرية ،
لا نمجده له شبيهاً إلا فى كتب الأساطير ، ولعل السرفى ظفر
طلبة الطب بتلك الحرية المرنة أنهم يصبغون ملاهيمهم بالصبغة .

العلمية ، وحظ أهل الطب قديم في هذا الباب ، فقد أباحت لهم الشرائع رؤية مالا تحل رؤيته من الحمى الممنوع . وسبحان مقسم الحظوظ !

ولكن ماهي تلك الصبغة العلمية

هذا سؤال له جواب طريف ، فليعلم القارئ إذن أن كلمة « علم » في العصر الحاضر تقابل كلمة « دين » في العصر القديم ، فقد كان القدماء يقولون : « لاهياء في الدين » إذا بدا لهم أن يخوضوا في حديث يجرح الحياء . وكذلك يقول المحدثون : « لاهياء في العلم » إذا بدا لهم أن يقوموا بتجربة فيها ما يجرح الحياء .

وأظرف ما في تجارب كلية الطب في باريس أنها تقع ، كما يقتضى العلم ، بحضور الأساتذة والطلبة والطالبات ، ولتلك التجارب معانٍ خاصة يفهمها الألباء ، ولا حرج على من يدرس العلم في أصوله وتفصيله على المنهج الحديث .

وفي هذه النقطة يختلف حظ رجال العلوم ورجال الآداب فليس لأديب مهما جلَّ خطره ، وسلمت نيته ، أن يشرح على طريقته ما يجب أن يشرح من المشاكل الجنسية ، لأنه لو فعل لاتهم الناس بالرغبة في إذاعة أسباب الفسق والمجون ، ولكن العالم يدخل تلك المضايق في طمأنينة وأمان بلا رقيب ولا

حسيب ، وهو فوق ذلك مشكور السعى ، محفوظ المقام ،
 فله أن يدرس ما شاء من المسائل الجنسية ، وله أن يفسر دراساته
 بالرسوم والتصاوير ، وليس لكائن من كان أن يتهمه بسوء النية :
 لأنه يتكلم باسم العلم ، ولا حياء في العلم كما لا حياء في الدين
 وهذه الخطئة قد عرفها الأدباء الأقدمون ، فقد بدا مرة
 لأبي العلاء المعري أن يذيع بين معاصريه آراء الزنادقة والمرتابين ،
 فعمد إلى تلك الحيلة الملفوفة : وهى شرح آراء الزنادقة مصحوبة
 بلعنهم وتسفيهمهم ، وبذلك تم له ما أراد من عرض آراء الملحددين
 في رسالة الغفران

ومن أدباء العصر الحاضر من يسلك هذه الطريقة فيقول
 مثلاً : هذا كاتب يعجبني أسلوبه ، ولكنى أكره مذهبه ، ثم
 يعضى فينقل إلى قارئه خلاصة آراء ذلك الكاتب الذى ذكر أن
 مذهبه بغيض ممقوت ^(١)

أترانا بذلك نحرّم على أهل الطب أن يقوموا بما يوجبه
 الدرس من التجارب العلمية ؟ هيئات أن يكون ذلك ما نرى

(١) اشارة إلى كلمة كتبها الاستاذ لطفى جمعة عن أندريه جيد

إليه . ولكننا ننقل في تحفظ ما سمعنا من قيامهم ببعض التجارب الجنسية في الحفلات الموسمية ، وهذه مسألة لانبج الإفاضة فيها ، لأنها خطرة التفاصيل ، ولأن علمنا بها لم يتعدّ السماع ، وما أكثر ما نسمع في حى الشباب !

فلنكتف إذن بسرّد ماشهدهنا بأعيننا وشهده معنا ألوف
الألوف :

فى نهاية العام الدراسى يقوم طلبة كلية الطب فى باريس بمهرجان مشهود ، حيث يشترك الطلبة والطالبات فى مواكب سيارة تجومس شوارع المدينة ، ويكفى فى خطر هذه المواكب أن يكون الطالبات عاريات الأجساد ، اللهم إلا سترارقيقاً جداً يكفّ عادية المكان المرموق !

وقد رأيت فى أحد هذه المواكب فتى عرياناً وهو يحمل لوحة كتب عليها : (الباريسى الحقيقى يجب أن يأخذ السيّلان ولو مرة ، فمن الواجب أن يكون رئيس الجمهورية أخذه ألف مرة !!)

ورأيت فتاة عريانة فى أشنع حالة ومعها علم كُتب عليه (جيش الخلاص) وجيش الخلاص هذا جمعية كبيرة تعمل لسلامة الأعراض ، وظهارة الأخلاق !

وللقارئ أن يتصور بقية التفاصيل ، فهنا يكون تداعى

المعاني وتنادى أشتات الخيال ، فإننى لا أريد باسم الأدب أن
أنقل مايقع باسم العلم فى باريس . فان العالم يباح له ما لا يباح
للأديب ، وحرية التعبير من جملة الأرزاق !

وبعدُ فهل هذا شر كله ؟ أم خير كله ؟ الجواب عند
رجال الدين والأخلاق . أما أنا فأسجل فى تحفظ بعض
ماتراه العيون .

باريس فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣١

وزير مراکش

فى باريس الآن وزير مراکش المقرئ وهو رجل كهل ،
تقول الجرائد الفرنسية : إنه يحب فرنسا حبا شديداً ، وإنه مستعد
لتقديم أولاده ضحية فى الدفاع عن فرنسا إذا اقتضى الحال ، وقد
دعى بالأمس إلى زيارة السوق الكبير فذهب إليه فى الساعة
السابعة صباحاً ، والسوق قائم على قدم وساق ، وقد أظعموه
هنيئاً مريئاً طعاماً خاصاً أعدّ لقطوره ، فارتاح إليه . وطلب الوصف
ليعمل مثله فى المغرب إذا جاء العيد ، وقد أبدى فيما يقال مهارة
عظيمة فى تعرف الأسماك والنص على القديم منها والجديد

ولنا أن نقول إن الوزير الذى يقدم أولاده عن طيب خاطر
للدفاع عن فرنسا لو قدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدى وأشرف ،
ولكن صدق شوقى حين يقول : « الذليل بغير قيد مقيد ، كالكلب
للم يسدّ لبحت عن سيد ! »

٩ يوليو سنة ١٩٣٠

غانيات الحى اللاتينى

بعض الحقائق البشعة فى مدينة النور

لقد قصرتُ أوقات فراغى فى الأسابيع الماضية على قراءة الكتب المؤلفة عن الحى اللاتينى ، ولم يزدنى ذلك الا كلفاً بدراسة ذلك الحى فى حاضره وماضيه ، وكان أجمل ما عرفته ما تلقيته شفاهاً عن الأدباء الذين شهدوا ذلك الحى منذ ثلاثين عاماً . وقد اتفق جميع من حادتهم على أن الحى اللاتينى فقد جماله منذ أزمان ، فقد كان فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو المعهد الوحيد لمخاطر الحب والشباب . ثم أخذ يفقد سحره رويداً رويداً بسبب الأحياء الجديدة التى اجتذبت إليها أهواء الملاح ، وكان حى مونمارتر أول طعنة وُجِّهت الى صدر الأُنس فى حى الشباب . وانتهت المأساة بظهور حى مونبارناس . وبهذا أصبحت لا ترى فى الحى اللاتينى وجهاً صبوراً ولا طلعاً بهية ، إلا فى ساعات خاصة من الصباح والمساء ، فاذا انتهى وقت الدرس مضت أزهار الشباب الى ملاهى مونمارتر ومونبارناس ، وبقي الحى اللاتينى هامداً لا روح به ولا حراك

هذا حق ! فلنا أن ننشد إذأ قول المتنبي :

أتى الزمان بنوه فى شيبته فسرّهم وأتيناها على الهرم
ولكن هل فرغ الحى اللاتنى من جميع أسباب الحياة ؟
لا قدر الله ولا سمح !

فلا تزال هناك عصابات من النساء ، وأسراب من الفتيات ،
يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللأنى يبحثن عن معالم
الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظماء الى الحسن الغض
الذى يتأرج عبيره فى كلية الطب وكلية الحقوق . وفى كلية
الآداب بالسوربون دروس خاصة ليست فى نفوس بعض النساء
الا مواعد لقاء .. وهناك كذلك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن
عن الرفيق ، ولا يجدن السبيل اليه الا بالانتساب الى السوربون !
فان مشيت فى بول ميش صباحا ورأيت الفتيات يتهادين
وفى أيديهن الكتب والقراطيس فلا تحسب دائما أنهن يطلبن
العلم مخلصات ، ولكن تذكر أن فيهن بنات شقيات قضت أزما
الحياة الأوربية على ما فيهن من كرامة وحصانة ، فهن يسمعن
الى الورد المنوع بمشاركة الشبان فى تلقى الدروس !

والقارىء المصرى أو الشرقى لا يكاد يدرك مغزى ذلك ،
لأن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال
المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أفاص .
هى سيدة لأنها لا تزال تطلب وتعيش ، ويقال فيها الشعر

البليغ . أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولت أيامها ، لأن الغرب رُزى ببلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أن زهد الرجال في النساء ، وأصبح الجنس القوي والجنس اللطيف في صراع ، والصراع في هذه المرة لا يمثل رجلاً يتولاه وامرأة تتمتع ، ولكنه يمثل رجلاً وامرأة يقتتلان حول فضلات الأرزاق وقد يخطيء من يظن أن هذا التحول في سير الحياة أحمد حرارة المرأة ، فإن الطبيعة الانسانية أعمق جذوراً من ذلك ، ولكنه بالفعل أحمد عواطف الرجل أو كاد : فقد أصبح الشبان ينظرون الى المرأة وكأنها في أعينهم مخلوق سخيـف ، والفتاة صارت لا تحظى بمودة الفتى إلا إن شاركته في ألعابه ، ورافقته في أسفاره ، وأغنته عن ارتياد مواضع الإسفاف . ومهما يكن من شيء فإن أهل هذا الجيل عادوا أضن من أن يسفكوا قطرة من الدمع في سبيل المرأة . ونظرة الى ثمار الأدب الحديث في أوروبا تكفي للاقتناع بأن وظيفة الحب في القصص والروايات صارت وظيفة صناعية أو فنية ، يوردها الكاتب مراعاة للقواعد والأصول ، أو ما كان اصطلاح عليه الأقدمون من قواعد وأصول وهناك دليل أوضح : وهو الشعر ، فمن ذا الذي يزعم أن الشعر في هذا العصر يقارب الشعر في عصر ميسيه ولا مرتين ؟ لقد ضعف الشعر حتى لا يرجى له نهوض ، والسبب

في ضعفه هو انصراف العبقرين عن المرأة ، وذلك أخطر مقتل
في أدب هذا الجيل

هذه الحقائق تبين للقارى السر في خمود الحى اللاتينى ،
فقد كانت الفتيات من قبلُ زينة هذا الحى ، يوم كان الشبان
يتغنون بالحب العذرى ، ويوم كانت الفتاة لا تسقط إلا إن
ذهب الهوى بعقلها المكبول .

فاذا نرى اليوم ؟ ماذا نرى بعد انقراض الحب النبيل ؟
نرى عدة قهوات كأنها مواخير ، فان الشاب حيثما توجه
في ملاهى ذلك الحى كان جديراً باقتناص انسانية تزيد في دفء
غرفته إن أعوزه الدفء في ليالى الشتاء !

وقد يحدث أن تعرض الفتاة نفسها في غير حياء ، كما كان
الفتى يهاجمها قديما في غير حياء

ولكن أين من يقبل ؟ فان فتيات الحى اللاتينى طاغيات .
ولا تكاد الفتاة تحدث من يقبل عليها حتى تصارحه بأنها
مَدِينَة ، وانها لم تدفع نفقات غرقها منذ شهور ، وأنه ليس
لديها إلا فستان واحد ، وانها لم تأكل منذ يومين !

والويل كل الويل لمن يسلس القياد لهؤلاء البائسات ،
فانهن ألزم من الظل ، وأثقل من تطرف الثقلاء !

وللقارئ أن يسأل : هل نساء الحى اللاتينى كلهن
فرنسيات ؟

ونجيب بأن الفرنسيات قلائل جدا فى ذلك الميدان . ولم
تُظلم أمة من الوجهة الأخلاقية كما ظُلمت فرنسا بين الأمم
الأوروبية . فالناس جميعا يكادون يتفوقون على أن المرأة
الفرنسية ماحنة خليعة ، وذلك خطأ مبين . والواقع أن الفتيات
الأوروبيات يستفدن من الحرية الشخصية فى باريس ، حيث
لا يتقدم أحد مطلقا لإزعاج العشاق : ففى باريس ألوف مؤلفة
من الرومانيات ، والنمسيات ، والألمانيات ، والإيطاليات ،
والاسبانيات ، إلى آخر ما تعرف من الشعوب الأوروبية
والأمريكية ، وكل تلك الروافد تنصبُ فى باريس : فهى
ملتقى طلاب الغواية من جميع الأجناس

أتحسبني بذلك أعدو الحق ؟ هيهات ! فأنا رجل أعشق النبرات
الفرنسية ، وللغة الفرنسية الخالصة سحرٌ قهار يفعل فى نفسى
مالا يفعل الشراب . وقد تمضى أسابيع ولا أسمع من فتاة واحدة
نبرةً تشعرنى أنى أحادث فتاة فرنسية ، وكذلك اقتنعت أوكدت
أقتنع بأن الجمال الفرنسى أعز وأمنع من أن يبتذل فى الحى
اللاتينى . والمصادفات الطيبة التى ظفرت بها فى باريس زادتنى حزنا
وخوفا على مصير المرأة الفرنسية ، فانه لا تزال فيها بقايا من

الطهر والتبيل ، ولكن الجيل الحاضر يكاد يعصف بما كان لفرنسا
من شريف التقاليد ، وتكاد الأزمات الطارئة في عالم الاقتصاد
والاجتماع تبدل الشئائل والنحائر والخلال

فماذا بقى اذا من مواقع العيون والقلوب في باريس ؟
لم تبق إلا الشهوات الحسية السافلة التي تقدم بلا حساب
في الفنادق والحانات حيث يباع الهوى بلا ميزان — كما يقول
صديقنا الأديب توفيق وهبة — ولكن كيف والعرض أيسر
ما يُبذل في تلك البقاع ؟

أليس في ذلك ما يؤيد قرار لجنة البعثات في مصر بمنع
الطلبة من تزوج الأجنبية ؟

أليس في ذلك ما يؤيد خوف الآباء على أبنائهم من مفسد
باريس ومناكر باريس ؟

لقد أصبحت أومن بأن الحرب من أشرف نزعات الانسانية
فهى التي تعلم الشعوب قيمة الواجب ، وهى التي تفرس في الشباب
حب الرجولة . ولئن دام السلم نصف قرن ليصبحنّ الناس من
جامع الحيوان

وبعد فان لم يرق للقارىء هذا الكلام فليعذر الكاتب :
فانه رجل أمضته الخلائق في باريس

صلاة الجمعة في مسجد باريس

ماشهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين في هذه المدينة العجيبة التي طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجنان ، وكان يرضيني في تهدئة الروح الظامئ إلى سلسبيل السلام والسكون أن أذهب إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التي تزدان بها الجدران والسقوف ، وبين خرير المياه في تلك الأحواض البديعة التي تذكر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام ، ثم آوى إلى قهوة الجامع فأتناول كأساً من الشاي محفوقاً بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يسمعونك في باريس بعض ماتسمع على ضفاف النيل

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذي يعتادني منذ ثلاثة أعوام : فقد فكرت غير مرة في أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام في نصيح من يعيشون في باريس ، وما هي قائمة المنكرات التي يحاربها الخطيب في مسجد باريس ، وكنت أقدر أبنى سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير

الزمان والمكان في تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات الواعظين .

وهنا لا أكتف القارئ أنى انصرفت عن صلاة الجمعة في مساجد القاهرة منذ أعوام . ويرجع السبب في ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتني في أصحاب الخطب المنبرية : ذلك أننى كنت أحرر جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ فزارنى بعض خطباء المساجد وفى يده مقالة يلح فى نشرها ولكنى وجدتها مملوءة بالطعن فى الحكومة ، لماذا ؟ لأنها لا تمنح خطباء المساجد من المرتبات ما يعينهم على المظهر اللائق بهم . وفى اليوم التالى ذهبت أصلى الجمعة فى أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب !

وليس من التحامل فى شىء أن أذكر أن جمهور المثقفين فى مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة ، وقد يكون فى هذه الإشارة ما يحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراعى على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية ويدخل فيها من الجدة والروح والحياة ما يجعلها ورداً سائغاً تهرع اليه النفوس المتعطشة الى الحكمة والموعظة الحسنة ، فقد دبّ الشباب فى كل شىء إلا خطباء المساجد عند المسامين

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفى نيتى أن أقف موقف

المشاهد الذى يقيد ما يرى من الظواهر والفروق، ولكنى لم أكد أخطئ عتبة المسجد حتى شعرت بأن « روح النقد » انصرف عني ، وشعرت بأن « روح الايمان » أخذ يحتل مشاعرى وحواسى ، وابتدأت فصليت ركعتين لله ، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان ، ثم جلست أتأمل فيما يحتوى المسجد فاذا المنبر مهدي من « فؤاد الأول ملك مصر » وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغِلت بالآداب والفنون ، ونظرت إلى المصلين فاذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيما الخشوع ، ومن ذا الذى يهرب من فتنة باريس إلى المسجد بدون أن يجد في قلبه روح التقوى وحرارة اليقين ؟ ولأمر مآ عددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون . وانتظرت سورة الكهف . ولكنى وجدتها لا تقرأ قبل الصلاة ، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة ، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو في باريس أم البدع والضلالات ! وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب ، ثم صعد المنبر ، وأضيئت جوانب المسجد ، ثم كانت مقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين وافتتح الإمام في أثرها الخطبة ، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون مَلَزَمة مفردة من كتاب . فتذكرت الخطب المنبرية التى تطبع في مصر

ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها في كل عام على اختلاف
الجمع والشهور ، وتوقعت أن تكون هذه أيضاً مقتطفة من
بعض الدواوين المصرية . ولكن هذا الخطيب ظالعنا بخطبة
فصيحة ، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد الببلاوى
في مسجد الحسين . لقد ترك هذا الخطيب كل شئ من حياة
باريس ، كأن النصيح فيها لا يغنى ولا ينفع ، وأخذ يحدثنا عن
شهر ربيع الأول وما وقع فيه من الحوادث الجسام في عهد
الرسول ، فسألت نفسي : أتكون هذه المرة الأولى التي يتحدث
فيها الخطيب عن ربيع الأول مع أننا في الجمعة الأخيرة منه ،
أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون ؟ !

ورأيت لأول مرة في حياتي خطيباً ينشد الشعر في خطبة
الجمعة كلما بدت مناسبة، فقد أنشد هذا البيت :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذُخراً يكون كصالح الأعمال

وإذا صبح أن هذا البيت من شعر الأخطل — وكان نصرانيا
لا يفارق الشراب — فانه لدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها
نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفرق
والملة وعلى أطراد الأجيال

وأنشد في مكان آخر الأبيات التي يقول في بدايتها الحريري :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شَرَك الردى وقرارة الأ كدار
 دار متى ما أضحككت في يومها أبكت غدا تبأ لها من دار
 وفي مكان ثالث أنشد أبياتا في مناقب أبى بكر رضى الله عنه
 غابت عن الذاكرة . وكنت لا أعرف لأى سبب يترك خطباء
 المساجد الاستشهاد بالشعر ، وإمكن بعض رجال الدين له رأى
 فى الشعر قد يكون السبب فى العدول عن الاستشهاد به: إذ لا يراه
 من الأمور ذوات البال !

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملاً خطبته بالنفحات
 الوجدانية ، فهو يقول مثلاً « وأين ربيع الروح من ربيع العين »
 هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع ، وكنت أحب أن تكون
 « وأين ربيع العين من ربيع الروح » على أن السجع يقع خفيفاً
 جداً فى خطبة ذلك الرجل ، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من
 التكلف ومن اللبس ، وكان له فى تصوير الظروف التى اقتضت
 الهجرة ذوق جميل

وبعد انتهاء الخطبة نزل الامام صلى بنا صلاة خفيفة جداً
 رجونا أن يكون فى بساطتها ما يؤكدها القبول ، فان الرياء
 والتصنع لا يغنيان فتىلاً عند علام الغيوب . ثم قرأ المصلون جميعاً
 دعاء شائقاً لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفاً
 واحداً، وإن كنت هينمت منه بضع كلمات لأسترجهلى بفقراته

الحسان ، وأنا والله معذور فاني لم أسمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و (بونسوار مدام) !

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت الى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب باخلاص
 — أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم
 — أنا الفقير الى الله زكى مبارك

— أهلا وسهلا ! ياسيد قدور تعال سلم على السيد مبارك فالتفتُ فاذا السيد قدور بن غبريط يصافني ، فتأملت في وجهه طويلا ، وكنت سمعت انه سعى في إنشاء هذا المسجد ليعلم فرنسا ! ولكنني تيقنت الآن انه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبني مكانا للصلاة في باريس وفي جوار حديقة النباتات ، وصدق الامام الغزالي حين قال
 « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

بين فصول الكتاب

وآيات الوجود

صديق ...

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة ، وتطلب بيان ذلك التعقيد ؟ اسمع اذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء :

في مساء ١٤ يوليه الماضي ، بعد أن تناولت العشاء ، مضيت الى شاطئ السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين .

ثم بدا لي فجأة اني شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية ، وانه لن يكون فيه جديد ، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلا في العمل الذي جئت له ، ثم انحدرت إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا وليجددوا ما بلى من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس ، وليروا أخيراً الأسهم النارية تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة الشعراء

عدت إلى المنزل ، وأقبلت على مكتبي ، ثم أدنيت الدواة والقلم

والقرطاس ، ولكنى لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت دوى
الأسهم النارية يحترق الفضاء ، وسمعت تهليل المهلين وصياح
الصائحين ، والضحكات جميعاً من قوّة تنبؤ عن رجولة ،
ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة ، ودارت بى الغرفة فلم
أدر ماذا أكتب ، وعزّ علىّ أن تنهزم إرادتى وأن أخرج
ثانية للاشتراك فى الاحتفال ، وأخذت أرهف العزيمة لأكتب
شيئاً يعوض تلك الخسارة الفادحة التى مُنيت بها حين تركت
أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس
نفسى طائماً فى غرفة مغلقة الأبواب بين ما أعجم واستبهم من
مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات
ولكنى لم أكتب شيئاً ؛

ثم خلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير ذاهلاً حائر
اللب ترمينى قذائف التفكير من هنا وهناك . وتجمّعت فى رأسى
أسباب الثورة الفكرية التى تهاجنى وأهاجمها من حين إلى حين ،
وبدأت أمطر نفسى وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المخرجة
التي تقف أمامها النفس الإنسانية حيرى موهلة لا تدرى
كيف تجيب :

أنا تركت العالم يموج على شواطئ السين ، ولكن لماذا ؟ ..

لأقرأ كتابا يتحدث عن العالم ؟ ... هذا حق وسفه . كيف
أترك الحقيقة ثم أبحث عنها في ألفاف الخيال ! ألا أكتب بحثا
يشرح بعض حقائق العالم ؟ كيف ! وأنا أهرب من العالم لأجأ
إلى القلم والكتاب والمصباح !

وانطلقت أفكر في أمثالي من الذين يتسامون إلى شرح
حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى في منازلهم يخشون
إذا همموا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال . فكم من عالم مفكر
— وتلك دعوى قديمة — يجلس في عقر بيته ليضع الشرائع
للناس ، وهو لا يعلم شيئا عن غرائز الناس . في حين أن التشريع
ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية ، وإنما هو تنظيم
وتهذيب للغرائز والميول والأهواء . وكم من فيلسوف
— وتلك أيضا دعوى قديمة — لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا
يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين ، وهو مع ذلك يرى نفسه
أهلا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب !

ثم ماذا ؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التي درج عليها الناس منذ
أجيال ، والتي تقضى بأن الجمهور لا يحترم الرجل الذي يشاركه
في أسباب دنياه ، وإنما يتصور العظمة محبوسة في أقفاص
المكاتب والمعاهد والجامعات . وقديما شك الناس في نبوة

الأنبياء : لأنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما
حدثنا القرآن

أبجرك يا صديق هذه الملاحظات ؟

معذرة اليك ، فأنا رجل ثائر عنيف ، وسأظل في ثورتى
الى أن أنتصر في حرب ما أمقت من نفاق التقاليد . وأستطيع أن
أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق
ستحطم عما قريب ، وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى
أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات ، وستهدم
صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ ، وخلق
أسباب التبجيل ، وفرض الاحترام بالأساليب المعجوجة التى
تخلى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب فى شرف الحرية
والإخاء والمساواة ، ويوم فضّل الحقيقة المرة على الباطل المعسول
متى أشهد مصر عك يا عهد النفاق !

ثم كان مساء الأحد الماضى حيث يجرى سباق السباحة
فى السين ، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها
تحتى عظمة البساطة والخفة والسذاجة والرشاقة فى أجسام السابحين
وخرجت أنا أيضا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات
فى الصّوان وأغلقتة اغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط
لئلا يهجم على كتاب فلسفة مثلا فيحول بينى وبين الخروج !
يا لله ! هذا شباب باريس يطوق السين كما يطوق العقد

جيد الحسنة . وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلي موضع قدم ، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار ، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين ، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان تتم له أسباب الإبداع ، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الانسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول

والسين ؟

السين ! قد تحول يا صديق إلى أمواج من النور البنفسجي الجذاب ، حتى حسبته قلبا يحقق بالمني ، أو مخدعا يتناجى فيه عاشقان ، وحسب السين ليلة من هذه الليالي في كل عام لتيهه على أنهار العالم جمعاء ، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديما يوم كانت تزف إليه في كل عام فتاة هيفاء ، والحسن في كل عصر خير ما يهدي وخير ما ينال

وأنا ؟ . . . أتريد الصدق ؟ لم تكن معي مرآة أرى في يياضها مشاهد السابحين ، ولم أنشط الى تسلق الأشجار لأرى مالا يراه الواقفون ، ولم أجد مكانا على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق ، وانما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسي ، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهى الاحتفال . أتدرى لماذا ؟ لأقرأ كتاب سبنسر في علم الاجتماع !

فان شئت أن تعرف كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة
فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد
الوجود

باريس في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

شفاعة النساء

المرأة مخلوق لطيف يعرف قيمته من يعيش في مدينة مثل باريس
حيث لا يُفتح باب من أبواب الرزق والمجد إلا بيد المرأة فهي مفتاح
كل شيء ومغلاق كل شيء : تعطى الحظ من تشاء وتنزعه ممن تشاء
أغنانا الله من فضله عن شفاعتها في باريس وغير باريس ؟

ويظهر أن شفاعة النساء كانت معروفة في الزمن القديم ،
يدلنا على ذلك هذا البيت

وَنُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةِ إِلَى فَهَلَا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعَهَا
وأصرح منه في الدلالة قول الآخر

ليس الشفيع الذي يلقاك مؤثراً مثل الشفيع الذي يلقاك عرياناً
والعن من هذا وذاك قول صديقنا الحوماني أحد شعراء سورية
قضى عصرنا أن يكون الشفيع لنيل المناصب نهدً وقد
فمن شاءها فليزِرْ أهلَهُ رئيسَ الحكومة يوم الأحد
وهذا كلام لا يحتاج إلى شرح ولا تعليق . ويرحم الله من
استطاعوا الفرار من زينة الدنيا إلى وعورة القفار والفلوات

محمود بيرم

فى طريقى إلى المنزل الذى أقیم فيه حديقة صغيرة يؤمها
الناس من جميع الطبقات إلى وَهْن من الليل . وهى حديقة
تهوى إليها نفسى فأخترقها فى الصباح وعند المساء ، ويعجبني
فيها تمثال فولتير ، ذلك الرجل المعجز الذى علم الكتاب كيف
يسخرون وكيف يرتابون ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة
التي لاندري كيف استطاع الصخر وهو أصم أن يحفظ منها
صورة ناطقة ، ويعجبني فيها أيضا أولئك النسوة النبيلات
يخرجن إليها فى الضحى وفى الأصيل ومعهن أطفالهن يرحون
ويلعبون ، فأتذكر والأسى يلذع قلبي أولئك الصبية الأعزاء
يحيطون بي فى حديقة المنزل ليمعنوني من الخروج و
من الرحيل !

فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة
الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد انسان
لا أعرفه ، وعلى وجهه مسحة من سماحة الشرق ، وكتلة من أثره
الغرب ، فقلت :

— سلام عليكم (بحقة ونشاط)

—عليكم السلام (بتناقل وبرودة)

—لا تُرْعِ أيها الرجل ، فأنا أريد أن ألقى نظرة على هذه الجرائد

لا أكثر ولا أقل ، وأنا والله فاعل ذلك رضيت أم غضبت !

—اقرأ ، ولكن أسرع فاني ذاهب الى العشاء ، فقد شغلني قبلك

هذا الفتى بجانبك اذ رجاني أن أسمح له بنظرة سريعة ينظر بها

أخبار مصر والشرق ، كما يقول ، أما أنت فبارك الله لك في هذه

الجراة ، أأست تريد أن تقرأ هذه الجرائد رضيت بذلك أم

غضبت ؟ ولا أدري والله ماذا أصنع اذا حاولت منعك وفيك

هذه الجراة وهذا الهجوم ، وقد تكون قوي البطش ، سليط

اللسان !

ثم سكت ، وأخذت أقرأ تارة وأدرس وجهه تارة أخرى :

هذا شاب قصير ، نحيل ، متضعع ، مهدود ، لم تبق أيامه

من جسمه باقية ، وهو لذلك ضيق الصدر لم يستطع أن يتكلف

البشاشة لرجل بدأه بالتحية ، وانه ليحمل رزمة من الجرائد

المصرية . وهذا الحمل الثقيل يدل على انه مغرم بتتبع الحياة

في مصر بألوانها السياسية والأدبية . فياليت شعري من هو ؟

—أنت هنا منذ زمان أيها الأخ ؟

—منذ عشر سنين !

—عشر سنين ؟ وماذا تصنع ؟

—عامل في أحد المصانع

—وما الذي ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل؟

—هذه بلوى قديمة !

—منذ متى ؟

—منذ كنت أحرر المسلة . فأنا محمود بيرم التونسي

أهلا وسهلا !

وحضرتك ؟

زكى مبارك

أنت الدكتور ؟ الله يسامحك ! كيف نسيت أن ترسل إلى
نسخة من كتاب الأخلاق عند الغزالي . لا . . . بل كيف
استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفيلسوف . . . إلى آخر
ما قال

أيها القارئ !

أتذكر صيف سنة ١٩١٩ ؟ ان كنت لم تشهد ذلك العهد
وذلك العام الميمون فاسأل من شهدوه ومن اكتبوا بناه
يخبروك أن محمود بيرم التونسي كان شاغلا لجميع الأندية
المصرية بمجلته الصغيرة اللذاعة (المسلة) وهو — مع احترامي
لمن يشتغلون بالرسائل الفكاهية في مصر ؟ — رجل ممتاز له طابع
خاص . ولقد رأيته في حالة محزنة ، فقد سقط عليه في ذلك اليوم

برميل ييره فى المصنع الذى يعمل فيه . ولكن الله لطف فلم
يُصب إلا بجرح خفيف ، أتم الله شفاءه وعافاه

بعد أن تعارفنا تطلَّقت أسارير وجهه ، وأخذ يسألنى عن
مصر وعن صحف مصر وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن
يراسلهم مجاناً وهو فى أشد الحاجة الى المال ، وعن الذين
يستطيعون أن يسهلوا له سبيل العودة الى مصر ولكنهم
لا يفعلون !!

ثم تناولنا معاً طعام العشاء . وطفنا طويلاً على شواطئ
السين ، وأستمعنى مواويله وأرجاله القديمة التى كانت تضحك ناساً
وتبكي آخرين ، فى سنة ١٩١٩ ، وأستمعنى كذلك طائفة من
المقامات الهزلية التى تضحك الشكى . خصوصاً مقامة « الفقى »
الذى خرج يصطاد امرأة ، والذى « شال العزال » الى المحطة ! ؟
وانتهى المطاف الى احدى الحداثق العمومية التى تظل
مفتوحة الى نصف الليل ، وكان يبرم افندى قد تعب ، فطلب أن
نجلس قليلاً على أحد المقاعد ، ولكننا وجدناها جميعاً مشغولة ،
فاضطررنا تبعه الى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان ،
والأدب فى باريس لا يسمح بازعاج العشاق ، وظل الفقى يقبل
الفتاة وهى بين يديه كأنها الغصن المطلول ، وكأننا لسنا هنا
وكانهم ليسوا هناك ؟

— لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق

مقدمة زواج

— اطمئن ! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف

من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التي تطوى عليها جوانح

الغدرّة الفجّرة ممن يدعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم !

ثم هممنا بالعودة الى منازلنا بعد سهرة جميلة نفينا بها

أشجان الاغتراب

— اسمع يا محمود افندى ، أنا سأكتب عنك مقالة

— أنت تمزح . ألم يبق لديك الا أن تكتب عن بيرم بعد

أن نسيه الناس؟

باريس في ٢٩ يولييه ١٩٢٩

لطفك !

يافوقَ ما يسمو لجأج الهوى ويطمح الوجدُ ويبغى الهيام

الطُفُ بمشاكك وارفق بهم فقد طغى الحسن وجار الغرام

باريس في ٨ سبتمبر ١٩٢٧

هذه باريس وهذا باريس

باريس في ١٤ يولييه سنة ١٩٢٩

صديقي . . .

لقد ألف الناس في مصر والشرق أن يلحظوا في باريس صيغة التأنيث ، فهم يقولون (باريس الجميلة الفتاة) ولكن الفرنسيين يعطون لعاصمتهم القوية صيغة التذكير ، وإنهم يقولون (باريس القوى القهار) فها هو السبب في ميل الشرقيين إلى تأنيث هذه المدينة ؟ السبب واضح ، لأن الشرقيين يتوهمون هذه المدينة مدينة اللهو والدعارة والفسوق: فهم لذلك يعطونها اسماً ليناً مؤنثاً يتناسب مع ما يحسبونه ينهار فيها من أركان الأخلاق ، أما الفرنسيون فيعرفون فضل عاصمتهم ويعلمون أنها قوية جبارة غالبت الأعداء ونازلت الخطوب زمناً غير قليل ، ثم ظفرت من ذلك كله بمجد باق خالد تغلب عليه سيما البشر والابتسام: إذ لم يعد في حاجة إلى التبرم والعبوس .

أتذكر أنك سألتني غير مرة أن أحدثك عن باريس ؟ إذن فاعلم أن صمتي عن جوابك لم يكن جهلاً لقدرك ، ولا تهاوناً

في حقك ، ولكنى ظننتك تنتظر منى جوابا يساير الفكرة التى ينتظرها الشريون من يصف باريس ، لذلك استبحت لنفسى الإغضاء عنك ، وأنت أنت فى ودك الصادق وعهدك المتين . واليوم ، أتدرى لم فكرت فى جوابك ؟ لسبيين : الأول لرد التحية الجميلة التى حيتنى بها جريدة الصباح والتى وعدت فى ختامها القراء بأنى سأوافيهم بشيء عن الحياة فى باريس ، والثانى لأن هذا اليوم - يوم ١٤ يولييه - أخرجنى عن وقارى ، فتركت عملى وخرجت أهم كالكائنات المجنون أتلأس أسباب الحياة فى هذه المدينة الصاخبة التى أغوت من أغوت ، وأضلت من أضلت ، وهدت من هدت من العالمين ، فلم أجد أمانى إلا ذكرى النصر والحرب والسيف والمدفع والبأس والصبر والكفاح ، وما شئت يا صديقى من الأسماء والمسميات التى خلقها الله لتمجيد البطولة والرجولة والقوة والبأس الشديد .

ولقد تعودت فى الأعوام الماضية أن أشهد الحفلة القومية التى يعرض فيها الجيش صباحاً فى ساحة النجم عند قبر الجندى المجهول ، فبكرت من يومى هذا أسابق الناس إلى ذلك الميدان لعلى أجد مكاناً صالحاً أقضى فيه ساعات الاستعراض ، ولكنى علمت مع الأسف ان مجلس الوزراء قرر إلغاء هذه الحفلة فى هذا العام فراراً من وقعة الحر الذى هاجم باريس منذ يومين اثنين ،

وكنّا في بداية هذا الصيف نشكو شدة البرد . وكذلك حُرّم
 الباريسيون من ذلك المنظر الرائع منظر الجنود مدججة بالسلاح
 تذكر من عساه يغفل وينسى بأن الوطن لا يُحرم بغير القوة ،
 وإن الأمة التي عُرفت في العالم كله بأنها صاحبة الفضل في نشر
 المبادئ الانسانية هي أيضاً لا تعيش بغير القوة ، وإنها
 في وجودها وعظمتها مدينة لقوة البأس وصدق النضال
 أفهمت الآن أن باريس شيء غير الذي تعلم وغير الذي
 يتوهم الناس ؟

لقد أُلقيت في الشتاء الماضي محاضرة في نادي الموظفين عن
 تأثير المرأة في المجتمع الفرنسي ، فلما نُشرت خلاصتها في بعض
 الصحف لقيني أحد الذين طالت إقامتهم في باريس وأفهمني
 بلطف أنني لم أعرف باريس . ولا أزال حتى الآن أجد من
 يلومني على حسن الظن أسديه الى باريس . ألا فتعلم يا صديقي أن
 الذي أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق كل الحق ، والذين
 يعرفونني يعلمون علم اليقين أنني تغلغت في أعماق الحياة الفرنسية
 وإنه لم يصل أحد الى مثل ما وصلت اليه من الألفة الصافية
 والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقهم وعاشرتهم من
 الفرنسيين في باريس وغير باريس . فالمرأة الفرنسية الصميمة
 الأصلية يغلب عليها النبل والطهر والعفاف ، وإن نرة واحدة

من صوتها الرنان لتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وانها لتذل من تُذل ، وتُعزّ من تعزّ ، وهى فى مكانها كالطود الراسخ لا تلعب ولا تُنال . ولو كانت المرأة الفرنسية هينة الى الحد الذى يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات فى باريس لما أنجبت فرنسا شاعراً ولا كاتباً ، ولظل أهلها فقراء العواطف موتى الإحساس . والذين تراهم يتحدثون عن باريس ذلك الحديث الوقح المجرم المأفون هم قوم لا يزيدون فى أخلاقهم ولا معارفهم عن شواذ الفلاحين فى مصر حين يجيئون القاهرة عمداً ليطفئوا حرارتهم الحيوانية فى بعض البؤر الموبوءة ثم يعودون الى أهلهم فيعطونهم من القاهرة صورة تجرح الطبع والذوق وتبغض الرجل المهذب فى مظاهر المدنية وآثار النهوض فى باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان ، أفيعيش هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة ؟ هذا محال . فلم يبق الا أن نقف عند حدود العقل والمنطق فتتصور ان مثل هذه المدينة — وفيها نحو مليون من الأجانب — لا تخلو من أما كن تسود فيها الرذيلة ويغلب الشيطان . ولكن هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يذكر ان الرجل قد يعيش فى باريس

بضع سنين ثم لا تقع عينه على منزل يُبنى أو منزل يهدم ، حتى لا تصور أنا أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق الأرض والسماء؟! وهل فكر أحد من الذين رأوا باريس أن يلاحظ ان سكة حديد المترو التي تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والقصور والحدائق ، ومن فوقها أيضاً نهر السين بفروعه التي تزخر بالموج والسفين ، أقول هل لاحظ أحد من هؤلاء ان هذه الخطوط الحديدية فاقت وهي حقيقة كل ما كان يتصوره الناس عن أعمال الجن وهي خيال ؟ وهل أتجه فكر أحد من الذين يُجرّحون باريس الى ان رواد المكاتب وحدها ممن يسايرون الحركة العالمية في أرجاء العالم يزيدون أضعافاً مضاعفة على رواد الملاهى والملاعب والمشارب ، في حين ان نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمته ، وان اللهو عندهم قد يُقترف وله سحره وله معناه ، وله فضله في تلوين الحياة الانسانية بلون البشر والفتون: اذ كانوا قومًا جِدُّهم جِدٌّ وهزلهم جِدٌّ ؟

صديق !

هذا باريس ! ولا أقول : هذه باريس !

فان كانت عندك ذخيرة من المال فتعال أعلمك كيف يضع الرجل درهما في سبيل المجد والشرف ، وكيف يستطيع أن يستقي ماء الحياة من منبع الحياة ، فهنا معاهد العلوم والفنون

والآداب . وان كنت تريد أن تضع مالك في الفولى بيرجير
والمولان روج فانى أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك
لتبقى لك نعمة المال والشباب والعرض المصون
أيها الناس !

لكم باريس ، ولى باريس ، والسلام

الطلبة عندنا وعندهم

الطلبة فى جامعة باريس يشبهون إخوانهم فى الجامعة المصرية فى
كثير من الوجوه ، وهم جميعا شياطين : فحيثما جلست فسهم ونشاب
تخف لها الأحلام وتطيش العقول ، وأكثر ما تصوب القذائف إلى
الفتيات اللاتى يتلقينها فى جدل وابتسام
وأظرف ما أذكر من حوادث الطلبة فى الجامعة المصرية كان فى
قصر الزعفران سنة ١٩٢٦ حيث نثر الطلبة مسحوق الفلفل بين
المقاعد ، وكان الدكتور طه حسين يحاضر فى انتحال الشعر الجاهلى
وكنت بجانبه ، فلم تصبنا ولله الحمد شظية من شظايا الفلفل ، غير أن
صديقنا الأستاذ الأهياوى كان قد حضر ليعرف إلى أي حد كان
انتحال الشعر الجاهلى ! فجلس بين الطلبة وهو أقصر منهم ، ويظهر
أن خياشيمه كانت ضعيفة فأخذ يعطس وحده باستمرار ساعة
كاملة ، وأنا أشهد صابرا ما يقاسيه المسكين من خطر العاطوس
المجهول . . ! فإن تذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه عطس مرة
فى الجامعة المصرية فليعرف الآن أن ذلك لم يكن مصدره البرد ،
وإنما كان مصدره الفلفل المسحوق . وليس بسر ما أذعته أو عطسته
على أكثر من مائتين ! — أليس كذلك ؟

ويل الشجى من الخلى

الأستاذ (د) مدير معهد . . . فى باريس رجل فصيح المنطق ، رائع الهندام . أحسن مايكون إذا خطب أو حاضر ، وهو لا يُلقى محاضراته إلا واقفاً . وله فى امتلاك قلوب من يستمعون إليه قدرة عجيبة لا يمتري فيها مكابر ولا حقود عرفته منذ أربعة أعوام ، وأعجبت به ، ثم صادفته ، فلقيت فيه أكرم صاحب وأوفى صديق

وطالما سألت نفسى : ما الذى وصل بينى وبين هذا الرجل ؟ أهو علمه ؟ ما أظن ، فقد كثر العلم والعلماء . أهو كلامه ؟ وكيف وكل الناس يتكلمون فى باريس ، وأهل هذه المدينة يجيدون الكلام بنوع خاص

وقد انتهيت إلى أن الذى وصل بينى وبين هذا الرجل هو إخلاصه لمهنته ، مهنة التدريس ، فقد كان يبلغ به الجِد فى محاضراته إلى أن يتوقف فجأة ويسند رأسه بيده فى مثل المغشى عليه ، ويظل كذلك نحو ثلاث دقائق إلى أن يعاوده صوابه ، ثم يأخذ فى الكلام من جديد ، بعد أن يسأل ما الذى كان يقول !

وأنا قد اختبرت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها ،
ورأيت ما يقاسى المدرسون ، وتبينت كيف تكتوى قلوب
المخلصين فى هذه المهنة العنيفة التى لم يصبر على عنائها غير
الأنبياء ، فمن الحق أن أعطف على الأستاذ (د) وأن تقرب
نفسى من نفسه ، وأن تتوثق بيننا أواصر المودة والاخلاص
لكن صديقى هذا لم يكن ظريفاً إلا فى محاضراته ، فاذا
خرج من حجرة الدراسة فهو انسان ضيق الصدر ، جذب
الكلام ، لا يجذبك إليه ، ولا يقربك منه ، وإنما هو مخلوق
متوحش لا يعرف ما الألفة وما الإيناس .

كنت ألقاه فى مكتبه فينقبض صدرى لانقباضه ،
وأستوحش لوحشته . وكنت أقدرُّ أنه مريض الأمعاء . فقد
شكا ذلك مرة ، لذلك كنت آسى عليه ، وأواسيه ، وأراجعه
فى بعض شئونه علّه يميل إلى أنس الحديث

وأقدم الذكريات بينى وبينه أننا تناولنا الغداء معا فى أحد
المطاعم ، ثم دعانى إلى منزله ، ولكنه اشترط علىّ أن أحتمل
بعثرة أمتعة المنزل إذا دخلته : لأنه يعيش وحده ، إذ كانت
زوجته فى الريف ، فابتسمت وقلت : إننى دائماً أعتذر بمثل
عذرك : فان أمتعة المنزل عندى مبعثرة باستمرار ، بسبب
الكتب والمطبوعات ، وأنا أرجح أن منزلك مبعثر كذلك بسبب

الكتب والمطبوعات ، ثم دخلنا فاذا الكتب مبعثرة فوق البُسْط والأرائك والمناضد ، فتذكرت منزلى ، وحمدت الله على تشابه حظوظ الأدباء والمدرسين

وأذكر أنى كنت أماشيه مرة ، فلما وصلنا إلى ميدان الأوبسرفتوار وقف بغتة وقال : هذه سيارتى ! ويظهر أن ابنى جاء لتوصيل إحدى صويحباته ! فلنقف لحظة حتى يعود لنرى ماذا يصنع الخبيث !

فقلت : ياسيدى ! إن الطبيعة تعمل عملها ونحن غافلون فامض بنا وخلّ ابنك يفعل ما يشاء الشباب !

فقال : ولكن الطبيعة ليست فى حاجة إلى سيارتى لتعمل عملها ، وقد كانت الطبيعة تفعل ما تفعل قبل أن تخلق السيارات وأنا منتظر حتى يعود ذلك الغوىّ المبين !

فقلت : أرجوك ، ليس من الذوق أن تجرح ابنك فى ساعة

حب ، فلنمض بسلام

وأغرب ما مرّ بى متصلا به أن ألقى على أحد الطلبة هذا السؤال : أنت كثير الاتصال بالمسيو (د) فهل صحيح انه يضرب زوجته ؟ فدهشت وقلت : حتى الطلبة فى باريس يتقولون على أساتذتهم ويخلقون لهم أقاصيص ! إنه لمدهش أن أسمع أن أستاذا فرنسيا يُتهم بضرب زوجته ، وكنت أعرف أن

الفرنسيين عبيد نساءهم ، وانه إذا ساءت أخلاق أحد الزوجين
فلا مفر من أن تكون الزوجة هي الجانية !

وكان زملاء المسيو (د) قلما يرضون عنه ، ويرون فيه
رجلا مزهواً قليل الرعاية لحقوق الزملاء ، وكنت أعتذر عنه
وقد لاحظت أن المسيو (د) لا يذكر المرأة في محاضراته
إلا بشر ، ولا يرى إلا أنها مخلوق سخيف ، فكنت أقترح
أن صلته بزوجته لا تخلو من اضطراب

لقيت هذا الصديق منذ أشهر فدعوته إلى تناول الغداء
في مطعم الجامع ، فأخذ يعتذر ، فقلت ألا تزال زوجتك غائبة ؟
فقال : لا ، ولكنها سبب ارتباكى . فقلت : كيف ؟ فأجاب :
حالتها الوجدانية

فأخذت أسائل نفسى : ما معنى كلمة (وجدانية) فى هذا
الحديث ؟ أتكون كلمة (سَنَتِيْمَتَال) مرادفة لكلمة (ملاد) ؟
أيحتمل أن تكون هذه من دقائق اللغة الفرنسية التى لا يزال
يفوتنى منها شئ بعد دراسة عشرين عاما ؟

ثم جاءت أيام قدمنى فيها إلى زوجته ، فإذا هى امرأة فى
حكم المريضة ، وليس لها ما تشكو منه غير ضعف الأعصاب

وتواترت بيننا الدعوات والزيارات ، وتبادلنا علامم المودة بغير حساب . وكنت كلما ذهبت لزيارتهم بعد العصر احتجزوني بالقوة لتناول العشاء .

وكان المسيو (د) يتبسط معي في الحديث ، فيسامرنى في كل شئ ، وكان يُدهشنى أن أرى معايب الفرنسيين مشابهة لمعايب المصريين في كثير من الوجوه ، فقد كان يذكر أن الحكومة الفرنسية لا تهتم باستشارة أهل الخبرة ، وان علماء فرنسا لا تنتفع بهم حكومتهم إلا إذا ماتوا ، أو طعنوا في السن وأصبحوا في حكم الفانين

وكانت زوجته تشاركنا في السمر ، فرأيت الفرق بين عقليهما بعيداً ، ورأيتها مع ضعفها تسيطر عليه ، وهو يداجيها ويماريها ويتلمس لرضاها ألوانا من متكلف الأسباب

ثم جاءت أسابيع شُغِلْتُ فيها عن هذين الصديقين ، وانتظرت أن يسألانى ، ولكن هيهات ! فإننى لم أتلّق منهما رسالة ولا دعوة تليفونية . فقلت : لا بأس ، هكذا يكون الفرنسيون ، وكذلك يكون وفاء الأصدقاء !

وجاء عيد رأس السنة ، فقلت في نفسى : أليس من البر أن أذهب فأترك بطاقة الزيارة في منزل المسيو (د) بالرغم من

إعراضه وتغاضيه؟ وترددت قليلا ، ثم أقدمت ، وبعد لحظات
كنت هناك

طرقت الباب ففتحته المدام (د) وهى ملوثة اليدين
مشوشة الأثواب. فتراجعت وقلت : عفواً ياسيدتى ، إني أعفيك
من استقبالى ، فان البوادر تدل على أنك فى شغل ، وإليك
بطاقتى إلى زوجك العزيز

فقلت : انتظر ، انتظر . وأسرعت فغسلت يديها ، وأصلحت
من هندامها ، وعادت فصاغتني وجذبتني إلى غرفة الاستقبال
— ما الذى حجبك عنا طول هذه المدة ؟

— إن مولاتى تعرف اننى مشغول ، وقد زادت أعمالى تعقداً
فى الأسابيع الأخيرة .

— ولكن أما كنت تستطيع أن تكتب إلينا كلمة ، أو تحدثنا
فى التليفون ؟

— كان هذا واجبا عليكم يامدام. فأنتم اثنان وأنا وحيد ، وأنتم
فى وطنكم وأنا غريب

وبعد هذه المحاورة القصيرة سكنت تلك السيدة لحظة ثم
قالت : أصحيح أنك انقطعت عنا بسبب أعمالك ؟ ألم يشر إليك
المسيو (د) بأن لا تجيء ؟

فقلت : كيف يشير إلىَّ بأن لا أجيء ، وكنت ولا أزال
من أكرم الأصدقاء ؟

فقلت : هل ذهبت إليه في معهد . . . بعد أن زرتنا آخر
مرة ؟ قلت : لا .

وما هي إلا لحظة حتى اغبرَّ وجه المسكينة وقالت :

— هل تعرف أن المسيو (د) يفكر في الطلاق ؟

— أبداً ياسيدتي ، لا أعرف ، وهذا نبأ مزعج ، كتب الله

لكم الوفاق !

وهنا اندفعت السيدة تبكي بأحر من بكاء الأطفال ،

وانقبض صدرى لهول المنظر ، وأخذت ألهيها عن بكائها بسؤالها

عن الأسباب

— الأسباب ؟ أتريد أن تعرف الأسباب ؟

إن الأسباب كلها ترجع إلى نقطة واحدة هي أن صديقك

(د) له صَبَوَات وقد شارف الحسين ! هناك نساء ملعونات

أفسدن ما بيني وبينه وحملنه على التفكير في الفراق . كانت

تترد علينا أرملة على شيء من الوسامة ، وكانت تدله وتناغيه في

حضورى . فليت شعري ماذا كانت تصنع في مغيبى ! وأنا امرأة

يتهمنى من يعرفنى بأننى لا أعرف العصر الحاضر ، ولا أفهم

تقاليد الجيل الجديد

فانهزت هذه الفرصة وتدخلت في الحديث على أشغل
المسكينة عن دمعها المسكوب وقلت :

ولكن ياسيدتى ماهو العصر الحاضر؟ وماهو الجيل الجديد؟
الناس هم الناس ، وفضل المرأة هو هو لم يتغير . ولا يُطلب من
الزوجة إلا أن تكون أمينة وفية ، وأنت فيما أعتقد مثال
الأمانة والوفاء

فقلت : لا . ليس هذا هو المهم ! المرأة العصرية في فرنسا
هى التى تعرف كيف تسوس زوجها ، والزوج لايسأس في هذا
الجيل إلا إن ترك له الجبل على الغارب ، وخلّته امرأته حرّاً
يذهب أتى شاء ، ويصاحب من شاء . وهذا شيء يثير جنونى ،
ولا أكاد أحتمل التفكير فيه . وكان من العدل أن يمنحنى
صديقك (د) ما يمنح نفسه من حقوق الغيرة ، فانه لم يسمح لى
أن أرقص مع رجل واحد أكثر من مرة ، فمن حق أن لا أسمع
له بمراقصة امرأة واحدة أكثر من مرة ! وليت الأمر وقف
عند هذا الحد ، فقد كان يشجعنى على الإقامة في الريف ويقول :
إن صحتك في حاجة الى الهواء الطلق ! وكنت أعرف أنه هو
الذى يفكر في الهواء الطلق في باريس ، والهواء لا يكون طلقاً
في باريس إلا لمن يعيش بعيداً عن زوجته ، ليتنفس كيف
شاء ، وينطلق حيث يريد ! ألم يحدثك عن شيء من ذلك ؟ قل ،

أرجوك ، لا تكتم شيئاً ، فقد ارتفعت بينكما الكلفة ، واني لواقعة
أنك تعرف مالا أعرف من سره الدفين !

فأقسمت لها — في صدق — أنني لم أر منه شيئاً غير
التألم لمرض زوجته

فقلت : وهل تعرف لماذا كنت مريضة ؟ قلت : لا ،
قلت : إن صديقك (د) لم يألّف الجلوس في القهوات ، ولم
يتعود التفرّج في البساتين ، ومع ذلك كانت أوقات فراغة تُقضى
خارج منزله ، فأين كان يقضيها الخائن أليس كان يقضيها في صَبَواته
ونزَواته مع أمثال تلك الأرملة الملعونة التي أفسدته على أهله
وفتحت لنا باب الشقاء ؟

أشرت في صدر هذا المقال إلى أن المسيو (د) له ابن ،
وأن ذلك الابن كان ينتفع بسيارة أبيه في نزوات شبابه ،
وكنت عرفت بعد ذلك أنه مقيم في بلجيكا وأنه موظف في
شركة هافلس . وقد رأيت أن أثير في نفس الزوجة عاطفة
الأمومة فقلت :

أليس لكأ أولاد ؟ فاني أعرف أن الأولاد يصلون بين
قلوب الزوجين برباط وثيق .

فقلت : لنا ابن واحد ، ولكنه فارقنا منذ زمان

فقلت : كيف ، ولأى سبب ؟

فقلت : لم يستطع ولدنا أن يكون تلميذا نجيبا ، وأنت

تعرف أن صديقك (د) من طبقة البورجواز : فمن الصعب

عليه أن يرى ابنه ينفر من اللاتينى واليونانى ، ويُحْرَم من

مستقبل الأستاذية . وأسرته كلها أساتذة مثقفون . وكم تأملت

من قسوة الأب على ابنه ، فإن ولدنا لم يكن لديه أى استعداد

للأستاذية ، وكانت طبيعته منصرفة إلى الزراعة وحياة الريف

وفى جميع المرات التى كنا نذهب فيها إلى الأقاليم كان ولدنا

يأنس بالمواشى والدواب ، وآلات الحرث والسقى ، ويطيب له

المقام بين الفلاحين . وكنت أحب أن أشجع فيه هذا الميل ،

ولكن والده كان يتأفف ويتألم من انصرافه إلى الفلاحة ، ويهمُّ

بزجره وإيذائه ، حتى ضاق صدره وأصبحت حياته بيننا أشبه

بشيء بحياة المسجون . ومنذ أعوام ذهب لتأدية الخدمة العسكرية

فلما عاد وجدناه قد ألفَ المطالعة والتهام ما فى الكتب من الشئون

العلمية والأدبية ، ورأى أن يعمل فى بعض المكاتب الكبيرة ،

حيث تنفع هذه الموهبة ، فإن هناك ناسا يذهبون إلى المكاتب

بدون أن يعرفوا ماذا يقرءون ، فيكون وجود مثل هذا الشاب

مصدر ثروة للمكاتب التى تحتاج إلى من يُعرِّف رُؤاها

ماهى أم الكتب ومن هم أشهر المؤلفين
ولكن ذلك لم يغن عند صديقك (د) فأخذ يؤذى ولده
ويضيق عليه ويحرمه من ارتياد الملاهى ، بحيث كان المسكين
لا يعرف كيف يقضى سهرته . فكان يذهب إلى عمته يحادثها
لحظات ثم يعود قبل الساعة العاشرة ، وأنت تعرف أثر هذا
الضيق فى حياة الشبان . وكذلك خلانا وهرب ليعمل فى مدينة
غير هذه المدينة ، وبلاد غير هذه البلاد !

ثم عادت السيدة إلى بكائها وعويلها فقلت لها : صبراً !
فقلت : هذه نصائح يحسنها الخليون ! وكل خلى فصيحٌ يُحسِنُ
القول ويحيد وصف العزاء ! لقد صممتُ على أن نعيش معا
أو نموت معا ، فله أن يساكننى فى البيت أو يجاورنى فى القبر
أما أن أصير أرملة ويظفر هو بعروسى تذهب همومه فذلك
من المستحيل . أأستقرأ الجرائد ؟ أأست ترى المأسى الدموية
بين الأزواج ؟ إذن انتظر فستفصل الجرائد فجيئتنا بعد قليل
قلت : أليس لكم أصدقاء يتوسطون فى فضّ الخصومة ؟
فأجابت : لا أأمل فى ذلك ، فقد أصرّ صاحبنا على الفرقة ،
ويكفى أن ترى كيف تخير أيام العيد لينشر خبر القطيعة بين

جميع المعارف والأصدقاء . على أننى قد فكرتُ فيما فكرتَ فيه ،
وربما ذهبت إذا اقتضى الحال إلى بعض الأسرات التى نعرفها
والتي تخاطبه بالكاف — «المخاطبة بالكاف اصطلاح عربى قديم
يقابل (التيتواما) عند الفرنسيين »

فقلت : من عسى أن يكون هؤلاء الأصدقاء ؟ فقلت :
إنهم زملاؤه . فقلت : احذرى يامدام أن تعتمدى عليهم ، فإن
الزملاء قلما يحب أحدهم لأخيه أن يكون له بيت معمور !
ثم خليتها وانصرفت وأنا أردد الحديث الشريف : أبغض
الحلال إلى الله الطلاق . ثم مرَّ بالخاطر بعد هنية ماروى عنه عليه
الصلاة والسلام : الغيرة مفتاح الطلاق

وبعد قليل ترددتُ فى الفكر عبارة قالها بعض الأصدقاء
الفرنسيين : (لاسبيل إلى السلام بين الزوجين إلا إذا تمتع كلاهما
بحريته . فان كان لا بد أن يسيطر أحدهما على صاحبه فمن الخطر
أن تكون السيطرة للمرأة)

وهذا هو الذى كان فى منزل الاستاذ (د) فانه لم يستطع
أن يظفر بحريته ، ولم يستطع أن ييسط سلطانه على زوجته ؛
فانتهى به الأمر إلى الهرب ثم إلى الطلاق

فيا حضرات القراء : احمدا الله على سداجة المرأة الشرقية ،
ولا تحسدوا أمثالكم فى الغرب فانهم أشقياء تعسون

حديقة النباتات

في باريس

حديقة النباتات في باريس ليست للنبات وحده كما يفهم من اسمها الفرنسي ، إنما هي حديقة النبات والحيوان . ولعل قَصَرَ اسمها على النبات راجع إلى أنها في الأصل أقيمت لذلك ، ووُضِعَ قسم الحيوان فيها بعد حين .

وهي من حيث الشكل جميلة الهندام . وهذا التعبير أدق ما توصف به تلك الحديقة المهندمة الرشيقة التي تبدو لزائرها وكأنها عروس في ليلة الزفاف .

في تلك الحديقة أشجار مرَّتْ عليها أجيال ، وشهدتْ من تقلبات الحوادث وصروف الزمان ما لم يشهده من أمثالها إلا القليل ، ومن الوجهة الفنية تُعدُّ من أغنى الحدائق في العالم : ففيها نباتات من جميع البقاع ، حتى ليخجل مثلي حين يجد فيها نباتات مصرية لم يسمع عنها ولم يرها في بلاده ، وفيها نباتات كانت في مصر منذ قرون ولا توجد بها الآن . ولا أكنم القارىء أنى رأيت بها نباتا لا يرحمه الفلاحون المصريون . وهو

ما نسميه « الزُّمير » وهو ينبت في مصر في حقول القمح ويهاجمه الفلاح ، وهو عند الفرنسيين يقدم طعاما للخيل . وتعد حديقة النباتات هذه أكبر مرجع للمشتغلين بالزراعة وتنظيم الحدائق والحقول . والرجل المتطلع يقضى فيها أياما وأسابيع لا يمل ولا يسأم ولا ينتهى درسه لما فيها من أنواع النباتات والأشجار والأزهار . وأمام كل حوض بيانات وافية تنفع الحريص على تعقب ما في هذه الحديقة مما يجب درسه وفهم ماله من الخواص أما قسم الحيوان فهو ضئيل بالنسبة إلى قسم النباتات ، ويمكن الحكم بأنه صغير جداً بالنسبة لحديقة الحيوان في مصر ، ولا ينتظر غير ذلك : لأن الجو في فرنسا لا يسمح بمثل ما يسمح به الجو في مصر من الرفق بالحيوانات الأفريقية والأسبوية . ولأجل هذا تعتبر حديقة مصر من كبريات حدائق الحيوان في العالم . لكن لقسم الحيوان في حديقة النباتات في باريس حظ ليس لأخيه الأكبر في حديقة مصر . ذلك بأن أهل باريس يخصصون حديقتهم بساعات جميلة جداً من أيام الأحد . والساعات الجميلة تبتدىء من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة حيث يدخل الجمهور مجانا لمشاهدة الحيوانات التي ألفت تقبل الهدايا من الزائرين ، وصارت تنتظرهم انتظار الصديق للصديق . وليس من المبالغة في شيء أن نقول أن ساعة في حديقة النباتات في يوم

الأحد تعدل جيلا يقضيه الرجل منعما في مدينة من مدن الشرق ، فالناس هنا يعرفون كيف يصيرون حياتهم جميلة محبوبة ، لا أثر فيها للسم والملل . فاذا رأيت ثم رأيت الفتى وأخته ، أو الزوج وزوجته ، يغدون إلى الحديقة في وجوه فرحة مستبشرة ، ومع كل فريق زاد خاص جاء به لدعابة الحيوانات ، وقد تعودت الحيوانات هذا البر فهي تقف على أظافرها وتمد أعناقها في رفق ودعابة لتأخذ ما يقدمه إليها الرجال والنساء والأطفال .

للأطفال حظ عظيم جدا من المتع البريئة أيام الأحاد في حديقة النبات ، فهناك تقدم الجمال والحميز والبغال لركوب الأطفال ؛ والجل مركب لطيف يُنَاخ فيصعد إليه الأطفال في مَرَح شديد ، ثم يقوم بهم فيتضاحكون ، ثم يمضي بهم في أرجاء الحديقة نحو خمس دقائق ، وفي عنقه الجلجل تمتع الراكبين والمتفرجين بصلصلتها الشائقة بين الأزهار والأشجار . وقد ينَاخ الجل فركب الأطفال ويمتنع من النهوض ، فلا يزال الجمال يلاطفه تارة ويحاشنه أخرى ، والجل يتأبى ويتبلد ، فإذا كلمه بالعربية نهض في غير بطء ولا استرخاء ، وإذا ذاك يتضاحك

الناس جميعاً إذ يذكرون أن لغة طرفة بن العبد أحب إليه من
لغة أناطول فرانس !

والعجيب الشائق أن يُرى جحش صغير جداً يقود عربية
يركبها الأطفال ، وتلك أكبر مُتعة للصبية الصغار الذين لا تقع
أعينهم على هذا الحيوان الألوف الصبور إلا في يوم الأحد في
حديقة النباتات ، والحمار حيوان مظلوم ، كما يقول بوفون ، يهتمه
الناس بالبلادة والقبج ، مع أنه في رأيه غاية في اللباقة والجمال .
وبهذه المناسبة أذكر أن أشهر الحمير في العالم حمير مصر وهي
غير الحمير المعروفة التي لا تُدرك ما ترى ولا تفهم ما تقول من
أدعياء العلم والبيان ، إنما هي الحمير التي تمشي على أربع لا على
اثنتين ، وتأكل الفول والشعير ، وكان من حظها أن اقتنت منها
عريب المغنية المشهورة معشوقة ابن المدبر حماراً مصرياً ظريفاً
كانت تطأ به راكبة أندية الوزراء والشعراء . ويظهر أنه لهذا
السبب كان شوقي يركب حماراً في الأيام الخالية ، كما حدثنا في
مقدمة الشوقيات ، وكان الشيخ عبد المطلب يُرى في الاصائل
والعشيات على ظهر حمار في حي المغربلين . . . إنه حقاً لحيوان
مظلوم كما يقول بوفون !

فى غير أيام الآحاد تكون حديقة النباتات هادئة فلا ترى فيها
الألوف المؤلفة من الفتیان والفتيات والأطفال . ولكنها تظل
مع ذلك مأهولة يؤمها الحريصون على العلم ، والمغرمون
بالصيد بين الحمايل والأزهار ! فهنا رجل يدرس نبتة أو زهرة ،
وهناك فتاة على موعد من حبيب ، وهناك فتى ضاقت به
الأرض فهو يبحث لروحه عن رفيقة مؤنسة تذهب بما فى
دنياه من أسباب الكمد والغيظ . وفى هذه الناحية شاب
مكدود بيده كتاب يدرسه بعناية وجهد ، وفى ذلك الجانب
شاعر مغترب يدمدم ويقول :

يا جيرة السين يحيا فى مرابعكم
فتى إلى النيل يشكو غربة الدار
جنت عليه ليليه وأسلمه
إلى الحوادث صحب غير أبرار

ثم تمر الساعات فى تلك الحديقة والطبيعة تفعل ما تشاء فى
تكوين عواطف الانسان والحيوان والنبات ، والجماد أيضاً ،
فقد يكون لهذا الوجود أسرار خفية من التألف والاتساق
لم يصل إليها الباحثون .

كل ما فى حديقة النباتات فى باريس ساحر فتان ، وفى كل

ركن من أركانها ، وحول كل حوض من أحواضها ، وفوق
هضبتها العالية ، نَعِمَتْ قلوب ، وشَقِيَتْ قلوب . والحب جنة
وسعير ، ونعيم وعذاب

لكن ما هذا القادم الجديد ؟ هذا مسجد باريس مُبنى منذ
أعوام قلائل أمام حديقة النباتات !
فان أُتِيح لك أيها القارىء أن تظفر بصيد في تلك الحديقة
التي طال عهدُها بالفخاخ والأشراك ، فترقبْ وحاذر ، فقد
يقرع سمعك في تلك اللحظة صوت غريب يصيح بالعربية
الفصيحة فوق مأذنة عالية :
الله أكبر ! الله أكبر !
اذكر هذا وتهيبْ عواقبه ، وتأدب مع غافر الذنب ،
وقابل التوب ، شديد العقاب

باريس في ١٣ يولييه سنة ١٩٣٠

الأدب والحياة

الى الأستاذ محمد السباعي

صديقي

اسمح لى أولاً أن أصارحك بأنك ظلمت نفسك وظلمت
قراءك فى الكلمة التى وجهتها إلىَّ منذ أيام . ظلمت نفسك حين
ظننت أنك كابن الرومى حين يقول :
مالى أراى كأنى قد زرعت حصّى

فى عام جَدب وظهر الأرض صفوانُ

فى حين أنك لم تزرع إلا كريم البذور فى أرض خصبة
مغمورة بروافد النيل . فإن كانت هناك لحظات ضَجَرَتْ تَحِيْلُ
إليك أنك منسىٌّ مجهول فلا تنس أن تستعيد بالله من شر
اليأس والوسواس ، وإن كنت ترى ناساً أنصفهم دونك
الزمان ، فافرق بنفسك فسيطغى النسيان على خلق كثير
ويبقى اسمك فى الخالدين . وظلمت قراءك حين حسبتهم غافلين
عن فضلك ، وكان ينبغى أن تذكر أنك قضيت أكثر من
عشرين عاماً وأنت فى أقدس مكان من أنفس القراء . والواقع

أن القراء في مصر جديرون بالاعجاب : فان إحساسهم قوى جداً بروائع الفنون والآداب . ولك أن تنظر إلى رقى الصحف المصرية التي كادت تفوق الصحف الأوربية ، إذا استثنينا الصحف الانجليزية ، فإن هذا الرقى تعاون في إيجاده القراء والكتاب ، وكان فضل القراء أكبر لأنهم أعانوا أرباب الصحف على الاتقان والتجميل . فلا تبتئس أيها الصديق الفاضل وامض في طريقك غير هياب ، وثق أن القراء فوق ما يظن المتشائمون

وأعود فأحدثك أنى أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبين لك أن القارئ والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران . فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعاً ، أو يخالفوك جميعاً ، لأنك وإياهم تستمدون حماستكم من الحياة . وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش ، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يُشغل برواية حوادث الناس . فهل تظن أن الناس جميعاً يجب أن يستطيعوا ما تكتب في حين لم يقدّر لهم جميعاً أن يعيشوا كما عشت ، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس !

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضى جميع القراء

لتقصفت مئات الأقلام . والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق . فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارئ لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك ، فتق أن هناك من يُقبل عليك وينتظر : لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك . ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون . في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون . فعلى البلبل أن يفرد حيث يطيب له التغريد ، وليس عليه أن يفتن مُصم الآذان ، أو غُلف القلوب

وإني لأقدم إليك مثالا من فهم بعض القراء للشعر البليغ وأذكر لك أن للبحترى قصيدة رائية بعث بها إلى ابن المدبر يستوهبه تحفة من تحف الجمال في عيد المهرجان . وتلك الرائية تعدّ من نواذر قصائد البحترى ، ويطيب لى دائما أن أطوف بها كلما واجهت شعره الرنان . وقد استعرت ديوان البحترى في هذه الأيام من أحد الأصدقاء المقيمين في باريس . وهذا الصديق يرتفع عن القارئ العادى لأنه في حكم المتأدين ، ومن عادته أن يضع على هوامش الصفحات حكمه على ما يقرأ ، وهو يكتفى بكلمة (جيد) أو كلمة (سخييف)

وإليك القطعة المختارة من تلك القصيدة ، وسأخبرك عن
حكمه عليها بعد ذلك :

وقد زعموا أن ليس يفتصب الفتى
على عزمه إلا الهدية والسحر
فان كنت يوماً لا محالة مُهدياً
ففي المهرجان الوقت إذ فاتنا الفطر
فان تُهد ميخائيل ترسل بتحفة
تقضى لها العُتْبَى ويُغتفر الوزر
غريراً تراء آه العيون كأنما
أضاء لها في عُقب داجية فجر
ولو يبتدى في بضع عشرة ليلة
من الشهر ماشكاً امرؤ أنه البدر
إذا انصرفت يوماً بعطفيه لفتة
أو اعترضت من لحظه نظرة شزر
رأيت هوى قلبٍ بطيئاً نزوعه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر
ومثلك أعطى مثله لم يضق به
ذراعاً ولم يخرج به أو له صدر

على أنه قد مرَّ عمرٌ لطيبه
ومن أعظم الآفات في مثله العمرُ
غداً تفسد الأيام منه ولم يكن
بأول صافي الحسن غيرَه الدهر
وئمنى بخطى حيةٍ مُدْهِمَّةٍ
لخدَّيه منها الويل إن ساقها قدُرُ
تجاوزُ لنا عنه فإنك واجدٌ
به ثمنا يُغليه في مدحك الشعر
ولا تطلب العِلاَّت فيه وترتقى
إلى حِيل فيها لمعتذرٍ عذرُ
فقد يتغابى المرء في عَظَم ماله
ومن تحت بُرْدِيهِ المغيرة أو عمرو
فأرايك في هذا الشعر؟ ألا ترى أنه لو تُرجم إلى اللغة
الفرنسية لاستطاع أن يزاحم شعر بودليير وفرلين؟ ومع هذا
لم يعفه صاحبنا من الحكم عليه بأنه (سَخيف)
وهذا السقم في الأذواق مرجعه إلى فقر الحيوية في
أنفس بعض الناس، وقد حدث مرة أن ثارت بيني وبين
أحد المتأدبين مناقشة حول المبالغات والتهويلات التي يصادفها

القارئ، في المؤلفات العربية ، وكان رأيـه أن حقائق الأدب العربي كلها خيالات ، وأن الشعراء والكتاب كانوا يصفون ما يتوهمون لا ما يشعرون . وقد ضرب المثل بالتعابير الآتية في وصف الرسائل الإخوانية :

كتاب كتب لى أماناً من الدهر ، وهنأى أيام العمر . . .
 كتاب لو قرئ على الحجارة لانفجرت ، أو على الكواكب
 لانتثرت . . . كتاب كدت أبلـيه طيًّا ونشراً ، وقبلته ألفاً ويد
 حامله عشراً . . . كتاب هو من الحسن روضة حزن ، بل جنة
 عدن ، وفي شرح النفس ، وبسط الأنس ، برد الأكباد
 والقلوب ، وقيص يوسف فى أجفان يعقوب كتاب
 تمتعت منه بالنعيم الأبيض والعيش الأخضر ، ووكلت طرفى
 من سطورـه بوشى مهلل ، وتاج مكلل . وأودعت سمى من
 محاسنه ما أنسانى سماع الأغانى ، من مطربات الغوانى . . .
 كتاب كتب لى أماناً من الزمان ، وتوقيع وقع منى موقع
 الماء من العطشان

وقد سألت ذلك الصاحب عما يأخذـه على هذه التعابير :
 أهـو الديباجة والصياغة الفنية ؟ أم هو ما تنطوى عليه من
 مستور الأغراض ؟ وكان جوابه أنه لا يعقل أن تصل الرسائل
 إلى هذا الحد من سحر النفوس ، وأن الكتاب كالشعراء كلهم
 كاذبون !

ولم أجد ساعتئذ ما أقنع به صاحبي غير رسالة فرنسية
كانت وصلت في الصباح فعرضتها عليه ، فما كاد يتم قراءتها
حتى اصفرّ لونه وقال : أهكذا تعيش في باريس ؟ !

ولا أكتمك يا صديقي أن تلك الرسالة كانت تعد
— لو صدقت في الوعد — بليلة سباعية ، لولا أنها كانت من
إحدى اللواتي عناهنّ من قال :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ
إذا غمزوها بالأكفّ تلينُ
تمتّع بها ما ساعفتك ولا يكن

عليك شجاً في الصدر حين تبينُ
وإن هي أعطتك اللّيان فإنها
لآخرَ من مُخلانها ستلينُ
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها

فليس لمخضوب البنان يمينُ
فلا تنس حين تبكي مصاب الإنسانية في مصابك أن
تذكر أن أخاك يقاسى أضعاف ما تقاسى أنت والإنسانية جمعاء !

بقى يا صديق أن أعترف لك في صراحة وإخلاص أنني
أصبحت أحقد أشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة : وهما
الأدب والمرأة

أحقد على الأدب لأنه لا يستقيم له حال إلا إذا حمل صاحبه
على المخاطرة في ظلماء الوجود ، ولن تجد في العالم كله أديباً ذا مكانة
إلا وله في ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء
الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لا يؤمنون بوجود الأديب
إلا إن رأوا أحشاه تشرق بين السطور . وقد ترى أحياناً ناساً
يهاجون الأديب ويتهمون به بالخروج على التقاليد . وهؤلاء
الناس لا يفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ، وإنما يقعون في
أعراض الأدباء حسداً منهم على ما رزق النابغون من مواجهة
أسرار الحياة ... ولكن ما قيمة ذلك ، وما الذي فيه من العزاء ؟
إن الأديب سيظل — ولو انتصر — كالشمعة تضيء للناس
وهي تحترق

وأحقد على المرأة لأنها لثيمة ، وأى لؤم أشنع من أن
تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائماً أن تجد إنساناً
سواك ... وهي مع هذا اللؤم شر لا بد منه ، لأن الحياة قضت
بذلك ، وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائئاً أو كارهاً إلى
سلاطان تلك الحية النضاض !

وقد فكرت كثيراً في شر الأدب على أهله ، ولكنى
لم أستطع الخلاص : لأنه كُتِبَ علىّ أن أحييا من مهنة الصحافة
ومهنة التدريس . فهل ترانى أفلح إذا اقتصرت على أن أحادث
قراى وتلاميذتى فى فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات ؟ !

وكذلك فكرت فى شر المرأة ، ولكنى كذلك لم أستطع
الخلاص : لأن المرأة شُبِّهَتْ صدقا بالشمس ، فهى تلاقنا فى كل
مكان ، وليس عن سحرها محميد

أضف إلى ذلك ياسيد سباعى أن هنا إنسانة فى الحى
— الحى اللاتينى لا الحى الحسينى — انسانة من بنات حواء ،
حواء المذكورة فى التوراة والقرآن ، حواء التى نقلت أبانا آدم
إلى صفوف المناكيد وأخرجته من عالم الأزهار والثمار إلى
عالم الشطة والفلفل والفول !

فبالله لاتنس أخاك حين تبكى مصاب الإِِسانية ، لأن
أخاك أيضا إنسان ، وهو فوق ذلك عاشق وأديب !

جواب الأستاذ السباعي الى الدكتور زكى مبارك

ما وجدُ صادٍ بالجمال مُوثَقُ بماءِ مزن بارد مُصَفَّقُ
بالريح لم يكدر ولم يُرَنَّقُ جادت به أخلاف دَجْن مُطَبَّقُ
بصخرة إن تر شمسا تُبرِقُ مادَ عليها كالزجاج الأزرقِ
صریحُ غيثٍ خالص لم يُمدَّقِ إلا كوجدى بك لكن أُنَقِّ
يا فاتحاً لكل باب مُعَلَّقِ وصَيرفيا ناقدًا للمنطقِ
إن قال هذا بهرَجٌ لم يَنفَقِ إِنَّا على البعاد والتفرقِ
لنلتق بالذكر إن لم نلتق

وردت على رسالتك القيمة التي حاولت في خلالها أن
تسكن من ثائرة غضبي على المجتمع المصرى ، وتحبب إلى الحياة
وترينها في نظرى

وفى الحق يا صاحبي انى على كل تسخّطى وتبرئى وصرخاتى
لا أعرف عن نفسى إن كنت فى الواقع شقيا أو سعيداً ،
أو محظوظاً أو منكوداً ، وما يدرينى لعل حين يُخيل إلى أنى أشد
الناس محنة وبلاءً أكون فى الحقيقة أشدهم لذة وصفاء ، ولا جرم

فأولى الناس بأن يكون المنعم المغتبط الفائز بالقسط الأوفر من لذات الحياة هو من كان في طاقته ومقدوره كلما شاء أن يترفع عن سفال ماديّات الحياة إلى ملكوت روحانيّاتها، وينتقل من عالم الحقيقة المرّة القاسية السمجة الجافية إلى عالم الخيال المملوء بمعسول الأحلام والأمانى، وكان في كفه مفتاح مملكة السحر وما بها من فراديس الحور وملاعب الجنة... كل ذلك منطو تحت لواء الفن ومن ميراث أهله وأربابه، وهذا مصداق كلمتك التي رميت بها في عرض رسالتك إذ قلت لى « ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون، فعلى البلب أن يغرد وليس عليه أن يفتن مُصمَّ الآذان أو غُلف القلوب ». ألا حيّا الله الفن والخيال والشعر ! إنه يترك الفقر أغنى من الغنى ويدع الوحشة أشد إيناساً من الأُنس، وإن هنالك من نوابغ الفنون وأئمة الآداب من إذا اشتد به البلاء لم يزد إلا غبطة وسروراً، ومن يدوم عليه الفقر حتى يودى بحياته فلا يشعر به ولا يحسه، فهو في حلم سرمدى ذهبي فردوسى، وهو وإن توسّد التراب وداسه الناس بأقدامهم ليحس على شفّيته قبلات الحور العين معطرة نفّاحة، ويعيش في الفكر والخيال في حدائق وجنات مسحورة وقصور وصروح مدهشات،

وكنوز مفعات بنفائس التحف والطرف من ماس الهند
وعقيانه ، ولؤلؤ الخليج ومرجانه

وكأني من شاعر تراه أعين الناس في أسمال وأطمار ، خاوى
الوفاض ، بادی الأفاض ، وهو من عالم الخيال في بحبوحة
يحسده عليها ملوك الأرض لو يفقهونها ولكنهم لا يفقهون . . .
كذلك يسير الفنان العبرى بين الناس ، ظاهره شحاذ وباطنه
« مليونير » مثله كالولّى الواصل تنظر عيناه إلى الباطن قترى
العجائب والغرائب ، ويطوف في مسالك الحياة كالطائف في
حلم ، لا يشاهد ما يشاهد ، ولكنه يرى ما قد حرّمت علينا
رؤيته ، وبعد ذلك فبأى حق نعد أنفسنا أعظم منه شأنًا وأحسن
حالا ، وبأى حق يسوغ لأنفسنا أن نتعطف عليه بالثناء والرحمة
ألسنا نحن الأحق برحمته وراثته . . . ماذا صنعنا وماذا صنع هو ؟
لقد أخذنا الحياة بآفاتنا وعلاتها . . . بأقذارها وأقذارها ، وعرف
هو كيف يحول سخف الحياة وسماجتها لذة وطربا ، وفتنة عجا ،
ويرد أجاجها نغيرا ، وسمها إكسيرا ، وترابها عنبرا ، وحصباءها
جوهرا ، وتنافرنا انسجاما ، وضوضاءها أنعاما

من أجل ذلك قال (أناتول فرانس) لما مات الكاتب
الروائي (فيليير دى ليل آدم) ما معناه :

— لقد مات وترك الدنيا غير آسف عليها ، مع أنه لم ينعم

قط بأدنى شيء مما يسميه الناس لذاتها وطيباتها . لقد أنشبت فيه
الفقر مخالبه وشد عليه قبضته فلم يك في طاقة مخلوق أن يستنقذه
من إيساره . لقد قضى ثلاثين عاما يغشى حانات الليل ثم يختفي
مع أول أشعة الفجر ، لقد طبعه الفقر بطابعه ، ووسمه بميسمه
وصَّبه في قلبه ، فأصبح كـ بعض أولئك المتشردين الذين ينامون
على المقاعد العمومية بقوارع الطرق ، وكان أصفر اللون لا يريق
بعينه ، مقوس الظهر ، وعلى الرغم من كل ذلك أرانا اليوم في
حيرة من أمره لا ندري أنكتبه في سِجِلِّ الأَشْقِيَاء أم في سِجِلِّ
السعداء ، وجدير هو بالحسد منا أم بالرحمة والثناء . لكأنى بطيف
خياله يهبط علينا من عالم الأرواح فيقف على إحدى تلك الموائد الملوثة
بآثار التبغ والنبيد فيصب عليها من أعاجيب أحلامه ذهباً وُجَماناً ،
وينفسجأ وأرجواناً ، ثم يميل رأسه ناحية ويخاطبنا بصوت تهتز في
نبراته أوتار الوحي والنبوة قائلا « معشر الخلان والأخدان اغبطوني
ولا ترحموني ، فإن من البغى والعدوان أن تأسفوا على المالكين
كنوز الجمال والفتنة ، ولقد كنت من أولئك ، لقد ملكت الجمال
ولم أك أبصر شيئاً سواه ، أليس عجيباً أن دنيا كم هذه التي ترونها
وتعيشون فيها لم تكن موجودة في شعوري ولا في نظري ،
وأني لم أنزل قط ولم أتسفل إلى محاولة مشاهدتها ؟ إنما لي عالم
باطني أعيش فيه وأتقلب ، وتظل روحي بين أرجائه الفيح تلهو

وتمرح في جنات تجري من تحتها الأنهار، وقصور من الياقوت والزبرجد... اقرأوا كتابي المسمى «اكسير» هنالك ترون اثنين من أجمل خلق الله رجلا وامرأة مابرحا يبحثان عن كنز من الذهب حتى وجداه، ولسوء حظهما وجداه، فإنهما ما كادا يحوزانه حتى أسلما نفسيهما للموت الزؤام، إذ علما أنه لا كنز هنالك يستحق أن يعيدش له إلا إنسان في هذه الدنيا إلا الكنز الروحاني المقدس: كنز الخيال والحكمة والجمال، واعلموا يارعاكم الله أن الكوخ الحقير الذي كنت أعزف فيه على أوتار مزهري المحطم كان في الحقيقة أجل وأنخم من قصر اللوفر (بباريس) ألم يقل لنا الفيلسوف الأعظم (آرثر شوبنهاور) مامعناه: «أى قصر مشيد سواء كان الحمراء أو الإيوان يدانى في رونق الجمال وأبهة الجلال ذلك الجحر المظلم الذي كتب فيه الروائي الأكبر (سرفنتين) كتابه الخالد «دون كيشوت»؟

لقد كان «شوبنهاور» نفسه يقتنى تمثالا من الذهب للإله «بوزا» ليذكره دائما بأن الثروة الحقيقية هي احتقار الثروة. لقد نلت بقوة خيالي ما لم ينله أعظم ملوك الأرض في الحقيقة، لقد تبوأ الأرائك وقدت الكتاب وخلقت لنفسى سيرة كأعجب القصص والأساطير، وقد بلغ من فرط امتزاج احلامي باليقظة واندماجها في الحقيقة انه يستحيل فصل إحداها من

الأخرى ، سلام عليكم ، لقد عشت أنعم العالمين شأنًا وأعظمهم أهبة وسلطانا »

عليك رضوان الله أيها الخيال الطائف ! لقد آثرت الروح على الجسد وانصرفت غن المادة الى الخيال ، فاخترت الأسنى على الأدنى ، واصطفيت الطيب على الخبيث ، فليقل الأغنياء والأقوياء ما شاءوا ، انه لا نعيم أكبر مما يلقاه الذين يضحون في سبيل حب عظيم ، ولقد أحبت الفن والفكر فوق كل ما عداهما ، وكان جزاؤك ألد الأضاليل والأوهام ، وأبهج الخدع والأحلام ، والحب العظيم والعشق الخالص قلما يكون مجدبا عقيما إنما يكون مصحوبا بأشهى الثمرات . لقد زين الخيال فراغ روحك السامية وفضاء نفسك المنفردة العظيمة بأبدع متحف من الصور والأشباح

هنا يقف بي القلم . وفي مجال آخر أخطبك في شأن الباريزية التي زعمت أنك مولع بها الآن . لا أخلى الله لك مهجة من لوعة ، ولا مقلّة من دمة . والسلام

حياة العمال في باريس

يفد الناس على باريس من جميع أقطار العالم فيعجبون لما فيها من القصور الشواهد ، والميادين الفيح ، والبروج الشوامخ . ويزيد عجبهم كلما توغلوا في أرجائها فرأوا التماثيل العديدة التي تزخر بها الحدائق والمتاحف والميادين ، ويقفون حيارى ذاهلين أمام السكك الحديدية التي تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والشوارع ونهر السين . ويكاد يظن زوار باريس أنها هكذا خلقت ، وأن الباريسيين قوم أنعم الله عليهم بهذه المدينة العجيبة التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، وكأنه لم يشق في بنائها ساعدٌ ولم يعرق جبين والواقع أن من الباريسيين أنفسهم من لم يفكر لحظة واحدة في ماضي باريس وحاضر باريس : فالأجانب معذرون إذا فاتهم أن يتأملوا ما تكلفت هذه المدينة الخالدة من المصاعب والمشاق حتى صارت مضرب المثل في العظمة والجمال

باريس هذه التي فتنت من فتنت ، وأضلت من أضلت ، وهدت من هدت ، مدينة لشعب عظيم هو شعب العمال ، وكلمة عامل التي تبدو متواضعة صغيرة هي السر كل السر في مجد باريس . وإذا كان في مصر والشرق من لا يقدر قيمة العامل فرجع ذلك

أن المصريين والشرقيين مضت عليهم أحقاب وهم يعيشون في ظلال ما ترك الآباء والأجداد . أما الباريسيون فهم يعلمون حق العلم أنهم بنوا مدينتهم بأيديهم ، وأن باريس قبل قرنين اثنين لم تكن إلا مدينة صغيرة قادرة تزعج النفوس وتقذى العيون ، ولولا نابليون الثالث ووزيره البارون هوسمان لما استطاعت باريس أن تستطيل على لندن وبرلين

العمال في باريس شعب قائم بذاته ، له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة . والذين يعيشون في باريس عيشة سطحية خالية من التأمل والدرس والتفكير العميق يحسبون أن الباريسيين هم أصحاب المطاعم والقهوات ، وطلبة المدارس والمعاهد والكليات ، ويظنون أن اللغة التي يقرءون بها الكتب والجرائد والمجلات ، ويسمعون بها الخطب والمحاضرات ، ويتفاهمون بها في صالات الرقص ومسارح التمثيل ، هي اللغة الفرنسية للشعب كله من جميع الطبقات . وذلك خطأ مبین

إذا مشيت في باريس ولحمت رجلاً مجمّع الوجه قدر الثياب وفي يده (يديه) يتذوق أنفاسها ، وعليه أمارات القلق والذهول ، وقد أسند ظهره إلى الحائط ينتظر عودة زميله من الحانة حتى يستأنفاهما الشاق الموصول ، فاعلم أن هذا إنسان يشاركك في بعض معاني الحياة ، ويخالفك في أشياء كثيرة جداً أقلها أن

فضله عليك أعظم من فضلك عليه ، وأنه أعرف بواجبه ، وأحرص على درهمه ، وأملك لحرفته ، وأسلك في سُبُل الحياة من كثير من أَدعياء الباقة والكياسة والتدبير

وإذا ركبت المترو يوم الأحد وجاورك شاب أنيق اللباس ، حسن الهندام ، مصقول الوجه والعارضين ، يتموج شعره فوق رأسه كأنه الجداول الذهبية ، وفي يده سيجارة يداعب أنفاسها من حين إلى حين ، وإلى جانبه فتاة هيفاء ، كحيلة الطرف ، أسيلة الخد مشرقة الجبين ، تميل عليه لحظة بعد لحظة فتكاد تحرقه بقبلاتها الملتهبة ، والناس من حولهما ينظرون راضين معجبين ، إذا رأيت ذلك الشاب الناعم المترف الجميل ، فذار أن تجزم بأنه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب في مدرسة عالية ، فقد يكون في أكثر الأحيان عاملاً صغيراً جداً خلى ثياب العمل في ركن من أركان غرفته ، ثم أخذ زينته ليوم الأحد ، وخرج يتلمس أسباب الأُنس والحظ في مدينة الجمال

العمال هم الذين خلقوا باريس . ولكني أعيدك أيها القارىء أن تظن أن معنى ذلك أنهم نهضوا بمبانيها العظيمة ، وشقوا طرقها الواسعة ، لا غير ، لا تحسب ذلك فأنا أريد أنهم خلقوا باريس في كل معانيها ، فهي مدينة لهم في كل شيء : فالحرية السياسية التي يتمتع بها الشعب الفرنسي كله يرجع الفضل فيها

إلى عمال باريس ، فهم الذين أشعلوا جميع الثورات بلا استثناء ، ولا نعرف في فرنسا ثورة صغيرة أو كبيرة لم يكن العمال هم الذين شبّوا ضرامها وقدموا لها من أنفسهم وأموالهم وعزائمهم ما تتطلب من الوقود . وكانت باريس في جميع أدوار تاريخها السياسى مصدر النهضة القومية والدستورية ، وكان عمال باريس عماد الحركات الثورية جميعها ، وكان تأثيرهم يمتد فحيج لحياجهم ليون ومرسيليا وبوردو ، من بين المدن والحوضر الفرنسية

قلت إن العامل الفرنسى له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخالص للحياة ، وأنا أقدر أن من القراء فى مصر من يدهش لذلك ، والحقيقة أن العمال الباريسيين لهم أحياء بل مدن خاصة بهم فى ضواحي باريس ، ويندر من بينهم من يسكن المدينة بسبب الغلاء الفاحش الذى يهدد أكثرية السكان ، ولهم تقاليدهم ، ولهم لغة تكاد تكون مستقلة عن اللغة الفصيحة ، والبون شاسع جدا بين لهجات العمال ولهجات الطلبة مثلا ، إلى حد أنهم قد لا يستطيعون التفاهم فى بعض الأحيان . ونحن نظن فى مصر أن اللغة العامية بعيدة من اللغة الفصيحة ، فليفهم من يريد أن يفهم أن لغة الجماهير العاملة فى فرنسا أبعد من لغة الطبقات المستنيرة بعدا هائلا لا يمكن أن يقارن بما بين اللغة الدارجة واللغة الفصيحة فى مصر من الفروق . وفى مدن العمال الباريسيين أوساط غريبة

يدهش المصريين أن يعرفوا أخبارها، فنحن في مصر لا نسمع
 لمن يحضر الروايات التمثيلية بأن يتدخل مع الممثلين، بل يغيظنا
 من يكرر « آه » أو « الله » ونعد ذلك من ضروب الفضول
 والانحطاط، ولكنى حضرت في (بل فيل) إحدى مدن العمال
 رواية رأيت فيها المتفرجين يشاركون الممثلين في الغناء كلما مرّ
 بالمرح ما يحمل الممثل على الغناء، ورأيت المتفرجين يستعيدون
 الممثلين بعض القطع الوجدانية، ويزيدون أحيانا فيقولون للمثل
 أصبت أو أخطأت، حسبما يقتضى الذوق عند أولئك المتمدنين
 المتوحشين !

ومن جانب الحياة قد يرضى العامل الباريسى بما لا يرضى به
 العامل الصعيدي في مصر : فقد أخبرني أحد الأساتذة الكبار
 أن لديه بيانات وافية عن حياة العمال، من بعضها أنه قد يسكن
 الغرفة الواحدة اثنا عشر شخصا، وهم مع ذلك في صحة جيدة،
 كما قال، ومنهم من يكتفى بأكلة واحدة لليلة ونهاره، ومنهم من
 لا يعرف أين تكون الحمامات، ومنهم من لا يخلع الثوب حتى
 يبلى، وهم جميعا مع هذا البؤس يذهبون إلى أعمالهم في الساعة
 السادسة صباحا ويعودون في الثامنة مساء

ولعل السر في أن العامل الباريسى لا تفنيه الأيام بسرعة مع
 هذه البأساء أنه من بين عمال العالم كثير الدعابة والمجون : إنه يسخر

من كل شىء ، ويستهن بكل شىء . وكأْس واحدة كافية لأن تذهب بأشجانه وأحزانه وتسلمه إلى الجذل والمرح والجنون . ولا يكاد العمال الباريسيون يلتقون فى مطعم أو حانة حتى يتبادلوا الطُرف والنكت فى هزل ساخر جذاب لا يبقى ولا يذر من أسباب اليأس والقنوط . ولو فقد العمال الباريسيون جنونهم لحظة واحدة لأفناهم التعقل والتأمل وقضى عليهم الإدراك . وما أحسب الجنون كان نعمة إلا فى مثل هذه الأحوال ، وعند أمثال هؤلاء الناس ورجال فرنسا اليوم يعرفون حال العامل الباريسي وبؤسه وشقائه . ومن أجل هذا أكثروا من المكاتب والمتنزهات فى أحياء العمال ، وقد لوحظ أن العمال يقرءون بشره عظيم . ومنهم من يستعير من مكتبة الحى الذى يقيم به كَتائين فى كل يوم . ولوحظ أيضاً أن العمال يقبلون بنوع خاص على المؤلفات العظيمة المحترمة ، وقد يكون حالهم أفضل من حال بعض الطلبة المصريين الذين لا يستعرون من المكاتب العامة غير روايات الهزل والمجون وعمال باريس يمتازون بالصبر والجلد والارتياح من الناس : فقد يصعب أن يصل الباحث الى شىء من مكنونات أنفسهم ، ويقل فيهم من يعطى اسمه ولقبه حتى فى بعض الشؤون الرسمية . وسر ذلك أنهم يحقدون على الأغنياء وأرباب الأموال . وليس فيهم من يحب عمله إلا العامل الذى تبيح له طبيعة العمل أن يذكر

مواهبه ويعطى شيئاً من نفسه كالنجارة والحداة وصنع الساعات .
أما العامل الذى يقوم بنقل الأحمال والأثقال ، وشق الطرق ،
ورصف الميادين ، فهو فى الأغلب رجل مبتئس متبرّم بالحياة ،
يحمّله الضجر على بغض ما تمسه يده ، وتراه عينه ، من مختلف
الأشياء .

باريس فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠

المخاطرة

إن داء المصريين والشرقيين أنهم لا ينتقلون إلا إذا كانت
خطواتهم مضمونة النفع ، مأمونة العواقب . مع أن المجد من
نصيب المخاطرين

وفى رأيى أن الرجل الذى يخاطر فيخفق خير من الرجل
الذى يخاطر فينجح : لأن الاخفاق أدعى إلى تقويم الرجال وإرهاف
العزائم من النجاح . . . والمال والكسب من الحظوظ الثانوية فى
ميادين النضال

على أن الرجل المخاطر إن أخفق اليوم فسينجح غداً .
والعاقبة للصابرين

مرسيليا

مرسيليا مدينة عظيمة من كبريات المدن التي شهدت فجر
المدنية على البحر الأبيض المتوسط ، ولا يعرف جلالها وعظمتها
وكبرياءها غير القادم إليها من البحر ؛ أما الذي يصل إليها عن طريق
البر فلا يكاد يرى من جمالها إلا القليل

يبحر المسافر من الاسكندرية فيقضى في البحر أربعة أيام
أو خمسة أيام ، تبعاً لاختلاف السفن البخارية في المقدرة على العبور ،
وفي تلك الأيام يكون المسافر قد عرف كل شيء من بأساء الحياة
ولينها ، فهي أيام معدودة ولكنها في طولها أعوام : ففيها بؤس
ونعيم ، وسعادة وشقاء . ولعل أغرب ما فيها — بعد قسوة الرياح
والأعاصير وما ينتاب المسافرين من مرض البحر المزعج الثقيل
الذي أعيا الأطباء — لعل أغرب ما فيها حوادث الحب والوجد
والاشتياق . وكلمت شوقي على أن قال :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعده فلقاء

لمته على هذا البيت : لانه جعل حوادث الحب أشبه بالمناظر
السينمائية: تتجمع وتتفرق في سرعة البرق ، مع أن الحب كسائر
الأمراض له أدوار مختلفة يعالجها المصاب رويداً رويداً الى أن يعز

الشفاء ، فلما عرفت البحر واصطدمت بأيامه ولياليه فهمت لأول مرة سنة ١٩٢٧ أن الحب قد يستكمل طفولته وحداثته وشبابه في أربعة أيام ، وأن اللحظة الواحدة قد تقدر بأعوام ، وأن يوما في البحر كألف سنة على البر عند من شهدوا الحياتين وعرفوا ما بينهما من شتى الفروق

البحر مهما طابت أيامه وصفت لياليه سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلف والتوقر في بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد الاحظات ويسأل نفسه بعد كل غداة وكل عشي : متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقائه أشد من قلق حندج المرى حين قال :
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

والليل قد مزقت عنه السرايل

والقطع المتناثرة من الجزائر التي تصادفه في الطريق لا تذهب وحشته إلا قليلا ، ثم تغيب وكأنها لمعات البرق في الليلة الظلماء ، ولا يكاد يقترب المسافر من مرسيها حتى يبعث روحه وتغازله الحياة من جديد ، وفرح المسافر بمرسليها يشبه فرح كريستوف كولومب حين وقعت عينه بعد اليأس على شواطئ أمريكا فصاح صيحة الجنون : أرض ! أرض !

إي والله ! هذه مرسيليا ! وهذا شاتوديف ! وهذه نوتردام
دي لا جارد !

ويتجمع المسافرون ، وقد خرجوا من أبراجهم وأقفاصهم ،
فلا يزالون ينهبون بأعينهم وأنفسهم أعلام مرسيليا نحو ساعتين
كاملتين وهم في هرج ومرج يستعدون لمصافحة الشاطئ الأمين .
وفي تلك اللحظة المرحطة يتلفت الرفيق إلى رفيقه ، ويتلفت الفتى
إلى الفتاة التي بددت من نفسه ظلمات الوحشة في سجن البحر ،
فيتبادلون التحيات ويقيدون العناوين ويتساءلون متى يكون
التلاقى إذا فرقتهم الميناء . كل هذا يجري تجاه مرسيليا التي لا يعلم
إلا الله كم استقبلت من ضيف ، وكم هدت من حائر ، وكم
آوت من شريد . ولو نطق الجمد لصاحت تلك الصخور :
ادخلوها بسلام آمين !

* * *

لا يعرف أحد متى أنشئت مرسيليا فهي مدينة قديمة جدا
غابت أيامها الأولى في ظلمات التاريخ . وإنما يعرف المؤرخون أن
الفينيقيين كانوا قد احتلوها منذ نحو خمسة وعشرين قرنا . والفينيقيون
قوم أسويون كانوا انجليز زمانهم ، جابوا القفار ، وخاضوا البحار
وأنشأوا ما أنشأوا من المدن في الشرق والغرب ، وكان لهم في
العالم القديم سلطان عظيم . ثم احتلها اليونان بعد ذلك وسادوا فيها

نحو ستة قرون ، وكانت اللغة اليونانية لغة المرسلين مدة طويلة
وكانت عادات اليونان وتقاليدهم وثقافتهم هي السائدة هناك
وقد اهتم الباحثون طويلاً بمعرفة ما بقى من آثار الفينيقيين
واليونان في تلك المدينة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يستحق
الذكر . ذلك بأن الفينيقيين كانوا يهتمون أولاً وقبل كل شيء
بالتجارة : فلهذا لم يعرف لهم في تلك المدينة آثار باقية كالأثار التي
تركها الأمم فيما احتلت من البلاد . أما اليونان فأمرهم أعجب لأنهم
لم يتركوا في مرسليليا أثراً واحداً من الآثار العجيبة التي عرفت
بهم وعرفوا بها منذ أجيال . غير أن الآثار المادية ليست شيئاً
بمجانب ما تركوا فيها من الآثار الأدبية . وإليك بعض البيان :

لاتزال مرسليليا إلى اليوم محتلة احتلالاً اجتماعياً بطوائف
كثيرة من الجالية اليونانية ، فالخلاقون مثلاً في مرسليليا كلهم من
اليونان ، والصيادون كذلك يونان ، وأكثر البحارة من اليونان ،
ولهجة المارسليليين الذين يحترقون المهن البحرية كالصيد والنقل
وعمل السفن تحتوى على كلمات كثيرة ترجع في أصولها مباشرة الى
اللغة اليونانية . والأدلاء الذين يهدون المسافرين كلهم يونان ،
واللاهون الذين يعينون على بعض حوادث الليل أكثرهم يونان ،
وأصحاب الحانات والقهوات الصغيرة والعظيمة يرجعون الى أصول
يونانية . وعلى الجملة أهل مرسليليا في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية

مصوبوغون بصبغة يونانية في الغالب . ويرجح الباحثون أن ميل
المرسيليين إلى اللهو واللعب والاستهتار والإباحة يرجع في الاصل
إلى أنهم ورثوا عن اليونان عبادة اللذات وتقديس الشهوات
وتفدية الجمال

وقدورث المرسيليون عن اليونان حب المبالغة والمغالاة بنوع
خاص . وما كتبه الفرنسيون عن مرسيليا مملوء بالنكت المستطرفة
عن مبالغة المرسيليين . وإلى القارىء هذا الشاهد الطريف :

وقف مرسيلى على الشاطئ يتصيد الأسماك ، ولكن صنارته
كانت تجلب إليه أسماكاً صغيرة جداً كأطراف الأصابع ، وكان
بجانبه مرسيلى آخر يشهد ما يصيد ، فقال له : ان هذه الأسماك
ضئيلة وصيدها لا يشعر الصائد بأية لذة

— الصائد: كيف تقول إنها ضئيلة ، وأنت لو اصطدت مثلاً
لحسبت نفسك من أسعد الناس

— المتفرج : أنا ؟ أنا أصطاد هذه الحقائق ؟ هيهات ! ماذا
تظن ؟

— الصائد : أنت تصطاد أكبر من هذه ؟ ماذا تصطاد إذن ؟

— المتفرج : أنا أصطاد أسماكاً كبيرة جداً ، أنا أصطاد الحوت

— الصائد : الحوت ! الحوت ! وأى شيء هذا الحوت عندى ؟

انى ألتخذ الحوت أحياناً « طعماً » . هل فهمت ؟

مرسيليا أعظم مدينة فرنسية بعد باريس ومع هذا يكاد الفرنسيون يعدونها أجنبية عنهم ، ويتنادرون فيما بينهم بذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : أنت فرنسى أم مرسيلي ! وإذا أراد بعضهم أن يحقر أحد مواطنيه قال : ماذا تنتظر من رجل نشأ في مرسيليا ! لأن مرسيليا عندهم مجموعة أوشاب من سائر الأجناس

واهتمام المرسيليين بالفنون قليل جداً مع ان المدن الفرنسية من أغنى المدن في هذا الباب ، وليس فيها فيما سمعت حانوت واحد لبيع العاديّات ، فهي مدينة اليوم الحاضر والساعة الراهنة ، ولا يهتم الماضى فى شىء

وأهل مرسيليا كسالى قانعون ، والفرنسيون يعللون ذلك بقربها من الشرق ، لأن الشرق عندهم مهد البطالة والفراغ !

والفرنسيون يحسدون أهل مرسيليا على شىء واحد هو طعام (البويايس) وقد أكلت منه مرة ، والحمد لله ! وهو طعام خاص يصنع من مختلف الأسماك ، وله شهرة عظيمة جداً تجلب اليه أصحاب الأذواق ، والمرسيليون يضمنون أشد الضن بالبوح بأسرار هذا الطعام ، ولا يساويه فى الشهرة إلا طعام « السكسوليه » الذى انفرد به أهل تولوز

حدثنا مرة أحد الأساتذة الفرنسيين عن طعام البويايس

فقال : « إن الإدام الذى يسرى فيه يشبه خيوط نور القمر ! »

— وما أشهى هذا التشبيه البديع ! — وان الانسان اذا أكل
البويابيس وخرج وقع أسير الحب لأول امرأة تصادفه في
الطريق ! »

وهذا صحيح من بعض الوجوه ، فأننى أذكر اننى وجدت
طعام البويابيس فى نهاية اللطف ، وليس من المستغرب أن يشبه
إدامه بخيوط نور القمر . ولكنى مع ذلك أذكر أنى أكلته ثم
تركت مرسيليا خلى القلب ، إلا من ذكره !

باريس فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الشيخ عبد الباقي سرور

في هذه المدينة وفي مثل هذه الأيام من العام الماضي ، تلقيت رسالة من صديق الأستاذ الشيخ عبد العزيز صقر شاهين ينعي إليّ فيها رجل العلم والفضل والنبيل الشيخ عبد الباقي سرور نعيم . فألقيت الرسالة على مكتبي ، ثم عدت إليها فقرأتها مثنى وثلاث ورباع ، وأخذت أستنجد الدمع وأستصرخه وهو يتأبى ويتمنع حتى عدت طُعمَةً للجوى اللاعج اللافح ، لا يطفئه دمع ، ولا يسكنه نحيب . ففررت من غرفتي أتلمس أسباب العزاء على شواطئ السين ، وفي الحدايق التي تزخر بمجموع اللاهين واللاهيات من أهل باريس ، فلم يزدني ذلك إلا حزناً إلى حزن ، وخيلاً إلى أن الدنيا كلها بما فيها من لهو وضحك وعبث ومجون لا تحمل في جوفها غير مرارة الداء الدويّ الذي طال عناده وحار فيه الأطباء

ثم رجعت أبحث عن كلمة أودع بها ذلك الصديق الراحل فلم يفتح عليّ بشيء ، فطفقت أتلهى وأتعزى بالفقرات التي كتبت عنه في الشورى والأهرام ، وأعجب كيف يهوى ذلك النجم وأنا مفهم لا أجد ما أقوله توديعاً لضياؤه الوهاج . وأخذت أروض نفسي على الصبر ، وأقنع ضميري بأن هذه طبيعة الحياة ، وأن كل حيّ إلى فناء ، وأتمثل أمامي أهله وأصدقائه وقد انصرف كل امرئ

إلى شأنه ، ولم تبق في نفوسهم الا ذكرى ت برق حيناً وتخبو حيناً
إلى أن تطويها يد النسيان ، واندفعت أعمالى الشاقة المضنية
ترمينى بقوة فى هوة الشواغل اليومية . آه . . وكدت أنسى !

غير أننى بالرغم من ضرورات الحياة الصاخبة التى كُتب علىّ
فيها أن أكون جندياً لا يلقى السلاح أو يموت ، كنت أعود إلى
نفسى لأمرح قليلاً فى جوانبها الروحية ، وأقرأ فى ثناياها ما أبقتة
يد الزمن مسطوراً فى سرائر الروح الحزين ، إذ ذاك كنت
أشعر بالوحشة المزعجة التى رمانى بها القدر يوم اختطف صديق
عبد الباقي وخلاّنى من بعده أشكو فقد الصديق .

أشكو فقد الصديق !

إي والله ! فإن الذين عرفوا الشيخ عبد الباقي سرور وعرفوا
إلى أى حد كان ذلك الرجل النبيل يعرف حقوق الأخوة ،
ويحفظ واجبات الصداقة ، يعرفون أن من الصعب ، ان لم يكن
من المستحيل ، أن يوجد له فى برده شبيه أو مثيل .

بقى أن أحدث القارىء عن السبب الذى أخرجنى من
دنياى المادية ومضى بالقلم فى تقييد هذه الكلمات : ذلك انى
اقتنيت منذ أيام كتاباً فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فى أجمل ورق
وأنتهى طبع . وهو مجموعة ما قاله رجال القانون فى تمجيد زملائهم

قتلى الحرب ، فثارت نفسى واضطربت: ألا يكون لنا أيضاً نحن شهداء؟ وهممت أكتب لجريدة الشورى كلمة عن الشهداء؛ فهي جريدة قريبة العهد بهذا الوتر الحساس. ولكن أين هم الشهداء وأين تلك الحروب؟... هنا أحببت أن أربأ بنفسى عن تصور العامة من أذعياء المتحمسين ، ورأيت أن هناك أيضاً ميدانا تتصاول فيه العقول لا يقل خطراً عن الميادين التى تتخاطر فيها السيوف ، وتتقاذف المدافع ، ويتفانى الجنود . فاذا استباح أحد لنفسه أن ينسى ما قدمه الشيخ عبد الباقي سرور من البلاء الحسن فى الثورة المصرية ، فسيذكر الناس جميعاً أنه كان من أنصار الرابطة الاسلامية، وأنه جاهد فى ذلك مخلصاً بقلمه ولسانه إلى أن أسلم الروح . . .

وسيقول السفهاء من الناس: وما هى الرابطة الاسلامية؟
وسنجيب بأنها فوق ما تعلمون يا أجهل الناس بأسباب الحياة !
فسلام عليك يا عبد الباقي وعلى شمائلك الطيبة ، ورحمة الله
على ودك الصادق المتين !

باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٩

كوست و بيللونت

الشعب الفرنسي كله في جميع أقطاره مشغول بالحديث عن الطيارين العظمين كوست و بيللونت ، بمناسبة اجتيازهما الإطلاق : ففي جميع الجرائد والمجلات وفي المدارس وأندية الشباب والكهول وحفلات السيدات يتردد اسم هذين الطيارين مقرونين بالاحترام والإعجاب . والفرنسيين حماسة عجيبة لهذا النصر المبين ، ويكاد فوز هذين الطيارين يطغى على جميع الانتصارات التي شهدتها الفرنسيون . فان بطولة هذا العصر ترجع في صميمها إلى الانتصارات العلمية . . وقد مضى الزمن الذي كان يعد فيه أسر الأعداء والنكاية بالخصوم مأثرة قومية ، وأصبحنا في زمن لا فضل فيه لغير العقل والعلم وقوة الإرادة في تذليل القوى الطبيعية ، وقهر آفاق السماء

لقد استمعت لطائفة من الأحاديث حول هذين الطيارين ورأيت كيف اتفقت كلمة القوم على أن شعار هذين الطيارين : « النصر أو الموت »

ولأأكرم القارئ اني عدت هذه العبارة بعض التعديل فهي فيما سمعت : « الثروة أو الموت » وهم يقولون ذلك وفاقه

للجائزة العظيمة التي كانت أعدت لمن يجتاز الإِطلاَنيق . وإنما عدلت هذه العبارة لأنني أحسب ان القوة الروحية اعظم دائماً من القوة المادية : فهذه الثروة التي كان ينتظرها ذاك الطيار ان لم تكن في معناها ومدلولها شيئاً آخر غير النصر أو المجد

وهذا التعديل أقرب إلى طبيعة الشعب الفرنسى الذى يروض أبناءه على البطولة ويثبت فيهم روح المثابرة والكفاح والصبر والثبات . وكل من زار البانتيون يذكر كيف وثب روحه ، وثار قلبه ، وهاجت نفسه حين وقف أمام اللوحة التاريخية التي تقول :
« الحياة الحرة أو الموت »

فقد امتاز الشعب الفرنسى بأنه يغنى ما يغنى ثم تكون صيحة واحدة كافية لإيقاظه ، ووثبته ، وفزعه إلى السيف والمدفع . وقد شقى الناس في فهم طبيعة هذا الشعب : فهو في أيام السلم شعب لين رخو ماجن خلع ، لا يرجى خيره ولا يتقى شره . فإذا انفخ في الصور قامت قيامته وهبّ يناضل عن شرفه في حماسة دونها حماسة الأسود في الدفاع عن حرم العرين

على انه من الغفلة أن يظن أن المجد ينال بلا ثمن . هيهات ! فالفرنسيون ليسوا جميعاً ظرفاء مومنا رتر ومومبارناس . فهناك ألوف مؤلفة لا تعرف غير سهر الليل وكدح النهار في تحقيق

مايعنيهم من المشاكل العلمية والأدبية والفنية ، وهناك ناس لا يرون الشعر ولا الموسيقى إلا في تلمس أسباب السماء . والمعضلة الحقيقية التي تواجه الرجل الشرقى حين يذهب إلى أوربا هي الشقاء في فهم عبقرية هذه الشعوب الغالبة المنتصرة التي يقال لبنيتها في دروس الجغرافيا : « إفريقيا كلها محكومة بدول الغرب ، وليس فيها أمة مستقلة غير الحبشة » والشرقى يسمع ذلك ويعجب وهو لو تأمل لعرف أن السبب في تقدم الغرب هو « حب المخاطرة » كما أن السبب في تأخر الشرق هو انعدام روح المخاطرة . فقليل من الشرقيين من يقول : « المجد أو الموت » ولو أنهم قالوها مرة واحدة لحسب لهم ألف حساب . فحب الحياة هو باب الموت وحب الموت هو باب الحياة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

والثروة التي استنكرنا أن تكون سر المخاطرة في اجتياز الإطلاق هي شيء لا يستهان به ، ولكننا تعودنا التعامى عن الواقع ، فأهل أوربا وأمريكا يرون الفقر أشنع من الموت ، ويتلمسون أسباب الغنى من كل جانب ، ويكادون ينطقون الأرض والسماء ليعرفوا أسرار الكنوز التي وردت في أساطير الأولين . ولقد أذكر انى أعطيت مرة لطالبة الثانوى في دروس الانشاء هذه الحكمة العربية :

« القبر ولا الفقر »

فلم يفهموا مامعنى ذلك، وقال قائلهم : ان الفقر ليس بعيب،
ولو رجعوا الى الواقع لرأوا الفقر مصدر العيوب ، فهو الذى يذل
نبلاء الأرواح ، وأعزاء النفوس ، وهو الذى يقعد بالرجل الشهم
عما يسمو اليه من جلائل الأخطار

واقصد يذكرون أن كوست وبللونت غنما من هذه المخاطرة
نحو خمسين مليوناً من الفرنكات . ويذكرون انهما استغلا جميع
الطرق فى هذا السبيل : فالشرطة السينمائية ، والصور الفتوغرافية
والمحادثات مع الصحفيين ، والخرافات التى أضافها إلى سفرهما
الشاق ، كل ذلك دفع ثمنه بسخاء أى سخاء ممن طلبوه . وقد
أسرف هذان الطياران فى استغلال هذه المخاطرة إسرافاً فاحشاً .

ولكنه فى جملته غير بعيد من طبيعة الشعب الفرنسى ، فالفرنسيون
مشهورون بالحرص والتفكير فى الغد ، والفرنسى من بين الناس
جميعاً يقدر دخله وخرجه وجميع أسباب رزقه تقديراً يتعدى خمسين
عاماً من أيامه المقبلة . وهو لا يخطو خطوة واحدة إلا وقد حسب
ما فيها من المنافع المادية . والتحية غالية عليه ان كان لا ينتظر من
ورائها نفع . وعلى الجملة الرجل الفرنسى حيوان مذهب ، واسع
الحيلة كثير التدبير ، وهو أحرص من النمل فى هذا الباب . ولقد
أذكر أن الإسلام لا يجزى على لسانهم إلا بالخير لأنه حرم
المسكرات ، ولكنهم لا يفهمون كيف يمكن الايمان بالقضاء والقدر

وكيف يصح التوكل ، ولا أدري أنا من الذى علمهم كلمة «مكتوب»
فهم يكررونها كلما بدا لهم أن يسخروا من تقاليد المسلمين !

والجانب المشرف فى اجتياز الإطلاق من باريس إلى
نيويورك أنه محاولة فرنسية ، وأن جميع أجهزة الطائرة صنعت فى
مصانع فرنسية ، وأن ذلك المشروع الذى نجح كان لطيارين يعتزان
كل الاعتزاز بالقومية الفرنسية . ومن أجل هذا أعد ذلك
الاستقبال البهيج لذينك الطيارين فى مدينة باريس ، وفى صباح
الأمس صدر منشور من حاكم المدينة يوصى فيه جميع الباريسيين
أن يرفعوا أعلامهم على منازلهم ، وأن يزینوا شرفاتهم بالأزهار ،
وأن يستعدوا لاستقبال أبطال الإطلاق بما توجبه المروءة
والحماسة نحو رجلين خاطرا بحياتهما فى سبيل العلم والمدينة ، ورفعاً
اسم فرنسا بين شعوب العالم القديم والعالم الجديد

ومنذ الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الرابعة بعد الظهر كان
أهالى باريس فى نشوة لا تعد لها نشوة ، فمنهم من ذهب إلى بورجيه
حيث تقدم الطائرة من الهافر ، ومنهم من ذهب إلى الإيليزيه
حيث يظفر الطياران بترحيب رئيس الجمهورية ، ومنهم من ذهب
إلى ميدان الأوتل دى فيل حيث تجرى الحفلة الرسمية . كل ذلك
والمطر ينهمر ، والريح تعصف ، والباريسيون يقابلون عبوس الطبيعة
بيريقي الابتسام

وكان أجمل ما أثر في ذلك اليوم خروج الطيارين من عند رئيس الجمهورية وذهابهما مباشرة إلى قبر الجندي المجهول حيث وضعاً ما هدى اليهما من الأزهار على ذلك القبر المعبود .

وقد لوحظ أن السيدات كن أكثر عدداً من الرجال ، وهذا طبيعي في مدينة يعد نساؤها موحيات الحماسة ، ومذكيات العزائم . وأهديت إلى الطيارين أوسمة الشرف ، وساعات ذهبية وضعت أرقامها من الاثنى عشر حرفاً التي تكون منها كلمتا (باريس نيويورك)

وقد سمعت المتفرجين يحاور بعضهم بعضاً عن الجائزة الأمريكية التي وضعت لمن يجتاز الاطلاق طائراً . قال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره : ان الحكومة الفرنسية لا تعطى ذهباً ولكنها تعطى أوسمة ! فتذكرت والأسى يحز في القلب بعض الحكومات الشرقية التي لا تهب المخاطرين من أبنائها ذهباً ولا أوسمة !

على أننا لواقارنا عزائم الشباب الفرنسيين بعزائم الشباب المصريين لرأينا في المصريين شمائل توجب الزهو والاختيال ؛ فالفرنسيون تشجعهم أمتهم وحكومتهم ، في حين أن المصري ينهض وحده بلا مشارك ولا معين ، ويقاوم المصاعب في صبر واحتساب : يقاوم حين ينجح دسائس الحاسدين والكائدين ، ويقاوم حين يخفق شماتة الحاقدين وسخرية القاعدين ، وفي ذلك تكبير وتجسيم

للتضحيات النبيلة التي يبذلها الشباب المجتهدون في بيئات وأجواء
مثقلة بأوزار التثييط والتعويق

فالى الأمام يا شباب مصر ، افتحوا ما شاءت لكم عزائمكم من
أقطار الأرض وآفاق السماء ، والله معكم وهو خير الناصرين

باريس فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الفرنسيون

قال الميسو تارديو مخاطب جرحى الحرب

« على وجوهكم تتمثل شمائل فرنسا الخالدة ، فعندكم فى السلم
كما كان عندكم فى الحرب : الشجاعة والصبر والثقة . أما الشجاعة
ففضيلة القلب ، وأما الصبر ففضيلة الخلق ، وأما الثقة ففضيلة
النفس ، وكل هذه الفضائل فرنسية . إن الأجنبى لا يفهم هذا
الشعب ولن يفهمه أبداً ، لاريب فى ذلك . إن هذا الشعب يُظهر
فى سداجة مألديه من النقائص السطحية فى أوقات الأمان ، وبذلك
يحكم الأجنبى بأنه شعبٌ فارغ . ولكنه يظهر فى أوقاته العصبية ،
وساعته التاريخية ، بفضائل عجيبة تضمن له النصر المين . وبين
الفرنسى المتوسط والفرنسى المتفوق توجد هوة لا يعرف الأجنبى
قرارها ، ومن البيئات المجهولة يخرج أبطال يفزع لرؤيتهم من كان
يقدر أن ليس هناك غير الفراغ »

انتحار شاعر مصرى

فى سنة ١٩٢٦ تقدم الى أحد طلبة كلية الآدب بالجامعة المصرية وقال : أسمح أن أتعرف اليك ؟ قات : مع السرور . قال أنا أحمد العاصى ، كنت طالبا بكلية الطب ، ثم هجرتها ، لأن أعصابى أضعف من أن تحتمل مناظر التشريح وحدثنى آمالى على الانتساب لكلية الآدب ، راجيا أن يكون فى الآدب والفلسفة جوًّا أهدأ وأدعى لراحة الأعصاب ... فابتسمت وقالت : لشدّ ما خدعت نفسك بهذا التغير والانتقال من قيد إلى قيد ! لأننا فى كلية الآدب نعالج نفس الطريقة التى يعالجها الأساتذة فى كلية الطب ، وهم يسمون عملهم التشريح ونحن نسميه التحليل ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يشرحون الأجسام ونحن نشرح الأعراض ، هم يشرحون أجساما فانية ، ونحن نشرح أعراضا غالية كان ينبغى لها الصون التام فى ظلال الخلود . وليس شق الجسم الميت الذى يحوله قصر العينى إلى مشرحة كلية الطب بأقسى وأفزع من اهتمام أساتذة كلية الآدب باثبات أن أبا نواس كان سييء الأخلاق ، وأن البحترى كان قدر الثياب ، وأن المعرى كان من الملاحدين ، وأن المتنبى كان صعلوكا يتصيد المال وهو يدعى سموّ الملوك . إلى آخر

ما توجه به الدراسات الأدبية من هذا الهذر الممقوت. وأنت لو مضيت في دراسة الطب لصرت مع الزمن طبيباً يخدم الإنسانية ولكنك حين تمضي في دراسة الأدب تصبح مع الزمن أديباً والعياذ بالله! ورجال الادب قوم يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض ، ولا ينجح من بينهم إلا من يحسن القيل والقال ، وجوهم في الأغلب جوّ فتن ودسائس ونذالات يندى لها الجبين ، والبارز فيهم هو الرجل الوقح الذي يعرف كيف يخلق الأ كاذب للنكايّة بزملائه الأ برياء

وهنا ازداد الشاب صفرة إلى صفرة التي كانت تغشى وجهه بما يشبه صفرة الموت وقال : أنا لا أنتظر منك أن تحملني على الرجوع مرة ثانية إلى مناظر الدماء في كلية الطب فأجبت : خير! امض في دراسة الأدب وأنا سعيد بأن أراك بين طلبة كلية الآداب



كان أحمد العاصي هذا شاباً قصيراً يبدو كأنه بدين وليس بذلك . وكان صوته خافتاً أشد الخفوت يكلمك وكأنه يناجيك وكانت عيناه مثقلة بالتعب والخمود وكان يحضر الدروس بقلب غائب وفكر عازب ، ولا همّ له إلا قرض الشعر فيما يمر بخاطره من مختلف الشؤون . وكنت أمازحه أحيانا حين أراه مكباً على

كراسه يدوّن فيه غير ما يسمع أثناء الدرس. فكان يتكلف
الرضا بالمزاح ، ثم تأتيني الأخبار بعد ذلك بأنه بكى بعد انصرافه
حتى رحمه زملاؤه الطلبة وصاحبوه رفقا به طول الطريق. فعرفت
منذ ذاك أنه مريض ، وأن من الخير لأن يلام على تفريط أو إهمال
وفي نهاية العام الاول من دراسته بكلية الآداب قدم إلى
رواية ألفها ونشرها اسمها غادة لبنان ، ولست أدري ما الذى
أودعه تلك الرواية ، لأننى شغلت عن تصفحها ، وفى العام الثانى
أعد مجموعة طيبة من شعره وقدمها الى الشاعر شوقى بك ، فلما قرأها
شوقى أعجب بها وشجعه على نشرها وأهداه أبياتا قدم بها ديوانه
الى القراء . ان أبيات شوقى التى قدم بها (ديوان العاصى)
الى الجمهور تنطق بما كان ينتظر من مصير ذلك الشاعر المسكين .
فقد ارتاع شوقى لادمان ذلك الشاب على نظم الشعر فى التبرم
بالحياة وما فيها من دواعى الضجر والهم والقنوط ، وقد ضاعت
تلك الابيات من ذاكرتى ، وليس يحضرني منها إلا هذا البيت .
ولتعلمنّ إذا السنون تطاولت ان التشكى كان قبل أوانه
وقد مضى الفتى فى دراسته وهو فى نظر زملائه وأساتذته
شاعر حتى ظفر باجازة الليسانس فى الآداب ، ثم عين فى مكتبة
الجامعة المصرية ، ولقيته فى الايام الاخيرة فحسبته شفى من مرضه
إلى أن وصلنى العدد الأخير من جريدة الصباح فعرفت انه انتحر

وأنه لم ينتظر أوان التشكى الذى أشار اليه شوقى ، فرحة الله على ذلك الجسد الذى لم يستطع مطاولة الأيام!

لا أحسب أن الجرائد المصرية تلفتت إلى وفاة هذا الشاب وجريدة الصباح نشرت خبر وفاته منقولاً فيما أظن عن محاضر البوليس ، وقد نشرت الخبر لأن فيه جوانب طريفة تشوق بعض القراء ، وخلاصة الخبر أن أحمد العاصى الموظف بمكتبة الجامعة المصرية كان يقيم فى المنزل رقم ١٢ بشارع سعفان بالعباسية مع خادمة له ، وكان لا يسليه فى وحدته غير كتابه أو قلمه ، وإن أحاديثه مع خادمته القروية كانت تدل على أنه ينظر إلى الحياة نظرة غير طبيعية ، إذ كان يجرى بينهم مثل هذا الحديث :

— أنت أسعد منى يافاطمة فى هذه الحياة !

— وليه بقى ياسيدى ؟؟

— لأن لك أهلاً يحوطونك بالرعاية أما أنا فلا أهل لى !

— بعيد الشر ياسيدى ، وأهلك جرى فيهم إيه ؟

— أنا خلقت من غير أهل ، وفى رأي أن الموت هو أشبهى

ثمره يقتطفها كل راغب فى السعادة !

وقد انتحر أحمد العاصى إذ سكب على جسمه كمية كبيرة من مادة كاوية نفذت إلى ثنايا قلبه . وقد وجد رجال البوليس بجانب مقعده رسالة مغلقة عنوانها « إلى من يهمهم أمرى » فلما

فتحت وجدت مكتوبة باللغة الانجليزية وفيها هذه العبارات :
 « جبان من يكره الموت ! جبان من لا يرحب بهذا الملاك
 الطاهر ! إننى أستعذب الموت الذى هو كالرائحة الذكية عندى »
 ثم وضع اسمه كاملا وذيله بكلمة (ليسانسيه فى الآداب)

لا أدرى كيف بدا لى أن أتأمل الصفحة التى نشر فيها هذا
 الخبر من جريدة الصباح فقد رأيت بجانبه فى الصفحة نفسها
 إعلانا عنوانه (افتتاح موسم الموسيقى والطرب) وإعلانا آخر
 عنوانه (هل تريد جسما جميلا ؟) وكذلك تشابهت أمامى مناظر
 الحياة : سعادة يجاورها شقاء وبؤس يجاوره نعيم . والدنيا حلم قصير
 نزعجه يقظة الموت

كنت أمازح أحمد العاصى فأقول : اسمع يا عاصى ! فيجيب :
 أنا العاصى للشيطان . ولعله لذلك أطاع الموت لأنه سماه الملاك
 الطاهر ، ولو ظننه شيطانا لعصاه

لست ممن يظنون أن المنتحرين يبوءون بغضب ربهم ، لأنهم
 فى الواقع ضعفاء خانهم الصبر ، وأفناهم اليأس ، ولم تبق فيهم بقية
 من الجلد يفهمون بها ما يجب أن يتحلى به الرجل الشجاع . وفى
 انتحار هذا الذى شكاه أنه لأهل له فرصة للتأمل فى قيمة الحقائق

المعنوية ، فذلك شاب موظف مستقر ما كان ينقصه الرزق، ولكنه كان شديد الفقر إلى العطف والحنان ، ولو كان بجانبه أب يواسيه أو أم تحنو عليه ، أو زوجة تصاحبه ، لطاب له العيش وابتسمت في وجهه الحياة . ونحن في الواقع نعيش أسرى عافيتنا وأعصابنا وليس بين الشقى والسعيد إلا متانة الجسم وقوة الأعصاب ، والروح وحده لا يكفي لسعادة الانسان ، وإنما المرء جسم وروح . ولعل السر في تقدم الانجليز أنهم يؤثرون الألعاب الرياضية على العلوم النظرية ، أما نحن فنفكر أولاً في حشو الدماغ بأنواع المعارف والعلوم ونرى في تمرين الجسم وتجديده وتنشيطه علامة من علائم النزق والطيش ، والميل إلى البطالة والفراغ . وقد يكون اهتمامنا بالجسم نوعاً من المحاكاة والتقليد ، لا أثراً للاقتناع بماله من المزايا في تكوين الشعوب

لا يزال يتمثل أممي أحمد العاصي يوم رأيتته لأول مرة في أوائل سنة ١٩٢٦ ويوم رأيتته لآخر مرة في أوائل الربيع الماضي ، فأليه في عالم الأرواح أهدى هذه الكلمة ، وما كان ينتظرها مني ، ولكن الحر من راعي وداد لحظة ، فكيف وقد كان رحمه الله من تلامذتي الأبرار

الحديث ذو شجون

الصديق

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضى أرسلت إلى صاحب الشورى عنوانى فى باريس ، ورجوته أن يحول الجريدة إلى هناك ، وفى يوم السفر تلقيت فى الصباح عدداً من الشورى فظننت خطابى لم يصل إلى إدارة الجريدة ، أو أنه وصل بعد وضع هذا العدد فى البريد ، فلما وصلت إلى باريس فى أوائل يونيه وجدت العدد نفسه قد سبقنى إلى هناك ، فعرفت سر المسألة : وهو سر واضح لا يزيد عن أن الأستاذ الطاهر أراد أن يودعنى يوم سفرى من مصر الجديدة وأن يستقبلنى بوم قدومى إلى باريس ، فهل يتفضل هذا « الصديق » بقبول هذه الكلمة الصادقة كلمة الاعتراف بالجميل من رجل يعرف كيف تكون الصداقة وكيف يكون الأصدقاء ؟

ولعل القارئ يتلفت فيسأل كيف وضعت كلمة « الصديق » بين قوسين ؟ والجواب حاضر عتيده ، ولكنه كرهه الطعم مرّ المذاق ، ذلك بأن صاحب الشورى كان واسطة العقد فى طائفة من الأصدقاء شاءت سجايا الناس أن يتبددوا ، وقضت أهواؤهم

أن تنفصم عرى المودة وأواصر المعروف ، وفيهم والله من لا
يزيده الإعراض إلا قرباً من النفس ، واعزازاً على القلب ، ومن
لو تغيرت الدنيا ومن عليها . وتبدل كل شيء فيها ، لبقيت وحدي
أحفظ بين سرائر القاب ما كان له من خالص الود وصادق الجليل
تبدد أولئك الأصدقاء وبقي هذا الأخ المجاهد الذي نرجو
أن يبقى وداده ذكرى طيبة لذلك العهد الذي لو بقي من نحب على
ما عهدناهم فيه . لكان للدنيا عندنا لون غير هذا اللون المتقلب
البغيض

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هي
الذين لا يعلمون

ذكرت الشورى أن الحكومة المصرية ستقيم ضريح المغفور
له سعد باشا على الطراز العربي . ثم قالت : لا على الطراز الفرعوني
الذي اقترحه بعض الذين لا يعدون من مصر ولا من أوروبا .
وكان يكفي أن تقول : لا على الطراز الفرعوني الذي اقترحه
بعض الذين لا يعلمون

الواقع أن عدداً ضئيلاً من دعاة الوطنية المصرية «لا يعلمون»
ما هي الوطنية . فهم يحسبون أن الفراعنة أقرب إلى مصر من
العرب ، مع أن قليلاً من صدق الحس وسلامة الذوق يكفي

للاقتناع بأن مصر الحديثة مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة
الاسلامية . وأنه إن صح لأى قطر أن يتبرأ من العرب فلن
يصح ذلك لمصر التى لم يكنفها أن تستفيد من حضارة العرب ،
بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها فى كثير من
الأقطار ، وهى اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون
أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد . وما ذلك على الله بعزيز
وبهذه المناسبة أذكر أنى كثيراً ما ألقى فى باريس رجالا
من الحجاز والشام والعراق وكثيرا ما نتداول الرأى فى انهاض
الأمم العربية ، فما يروغنى إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها
أمة عربية

والواقع أيضا أن مصر لا « تقول » بأنها أمة عربية ،
ولكنها « عربية بالفعل » فإيت إخواننا فى الشرق العربى
لا يطالبوننا بأن « نقول » اننا عرب فان القول لا يغنى فتيلا .
وحسب مصر أن تنهض حقا بإحياء الآداب العربية وأن تكون
مكاتبها ومدارسها وجرائدها ومعاهدها وأنديتها مصانع لا يقاظ
الروح العربى وميادين لبث ذلك المجد الدفين

المعرض الدولى

للفن والطيران والبريد الجوى

اول ديسمبر سنة ١٩٣٠

أقيم فى هذا الأسبوع فى باريس المعرض الدولى الأول للفن والطيران والبريد الجوى تحت رعاية المسيو جاستون دومرج رئيس الجمهورية ورعاية وزير المعارف والفنون ووزير التجارة ووزير الطيران

وقد زرتة يوم الافتتاح، وهو يقع فى متحف الفنون باللوفر وهو فى جملة وتفصيله فنع جديد فى عالم الفنون. والقارىء المصرى لا يتبين كيف يكون ذلك المعرض إلا إن وُصف له. لأن عهدنا بالطيران حديث، والطيران علم لا يقرأ فى الكتب، ولا يكفى فى معرفته أن يقال إن هناك خطوطا جوية تسير فيها الطيارات الانجليزية، فان الشعب لا يغرم بالطيران ولا يعرف كنهه إلا إذا قام أبناءه فامتدحوا الأجواء وناقسوا المتحكمين فى الهواء. وقد كانت مصر إلى العام الماضى محرومة من السيطرة على خطوطها الجوية ولم يكن المصريون يعرفون عن الطيران إلا ما يقرءونه فى الكتب والصحف والمجلات، وهى ثقافة تكاد تكون سلبية فى نوع من العلوم لا يبرع فيه إلا المخاطرون الأقوياء، وقد أخذت مصر

— والله الحمد — تهتم بالطيران اهتماماً عملياً لا نظرياً منذ أتاح الله للشاب محمد صدقي أن يدخل مصر طائراً . ولو قد أتيح هذا الحظ لمن حذقوا الطيران من قبله مثل أنيس باشا لكان للشبان المصريين حظ أوفر من الاقبال على ذلك العلم النفيس . وإنا لراجعون أن تكون في الخطوات الجديدة تبشير بطولة وإقدام لغزائم الشباب المصريين الذين حبست نشاطهم ونخوتهم مطامع المحتلين الذين قدروا خطر الطيران ، وعرفوا أن غرام المصريين به قد يكون عهداً جديداً من عهود الحرص على الكرامة والاستقلال

والطيران في ذاته مران نبيل للقوى الإنسانية ، فليس من الضروري أن يُقرن دائماً بالحرب ، وأن يُفترض أن الناس لا يطيطرون إلا ليستعدوا للفتك بعضهم ببعض ، فالذين يحرمون مصر من الطيران لا يمنعونها فقط من الاستعداد للحرب ، ولكنهم يحولون بينها وبين أقوى أسباب الكرامة في العهد الحديث . ولتصور القارئ حال أمة مُنْع أبنائها من ركوب الخيل في القرن الثامن عشر مثلاً ، فإن الحرمان من ركوب الخيل في الأيام الماضية كان علامة على الذلة والخنوع ، وكذلك الحرمان من الطيران في هذا الجيل يقضي على النخوة والكرامة ويعرّض الشبان المصريين للرضا بالهوان . فمن الواجب على من إليهم الامر في مصر أن يتنبهوا إلى هذه الناحية من الأخلاق ، وأن ينظروا الى الطيران

نظرة تساوى على الأقل نظرهم إلى التمثيل ، فانى كمصرى لا أطرب كثيرا لانشاء معهد يتخرج فيه الممثلون والممثلات ، ولا أستطيع أن أتحدث بما عملته وزارة المعارف المصرية فى هذا الباب ولكن مما يشرف حقا أن تُنشأ مدرسة للملاحة ومدرسة للطيران وأن تُستغل حماسة الشبان استغلالا شريفا يفتح لمصر أبوابا من الفوز والمجد فى الحياة العلمية والاقتصادية. ولكن إلى من نتحدث وقد فُتحت لنا ابواب من الفتن والمعاطب ، وأصبح أولو الأمر فى شغل بأنفسهم ومجدهم الشخصى الذى لو وضع فى الميزان لكان أخف من الهباء !

المصرى لا يعرف الطيران لأنه محروم منه ، ولا يعرف الملاحة مع أن البحر يواجهه من الشرق ومن الشمال ، وهو على الجملة محروم من المخاطر التى تخلق الرجال . وليسمح لى القارىء بهذا الاستطراد اليسير فانى أريد أن أقص عليه الحادثة الآتية :

كانت كلية الآداب بالجامعة المصرية قررت إيفاد اثنين من خريجيها إلى الحبشة لدراسة اللغة الحبشية . ثم عدلت عن ذلك. أتدرى ما السبب ؟ السبب بسيط ولكنه محزن : ذلك أن أحد الأساتذة بقسم الآثار أخذ يمحرض الطالبين على الاحجام ويقول « اوع يا واد انت وهو . والله إن قبلتم أملص أودانكم . حبشة ايه وسخام ايه ! روحوا لندرا ولا باريس . »

هذا استطراد ولكن لا أملك دفعه ، فقد كنت ليلة الأمس في الجمعية الجغرافية أشهد محاضرة المسيو مارسل جريول عن رحلاته في الأقطار الحبشية . وكم كان أسنى شديدا حين سمعت المحاضر يتكلم عن الجهود التي بذلت لدرس اللغة الأتيوية ، مع أننا كننا أولى بالتوجه إلى تلك الناحية لمعرفة لغة الأحباش ودرس عقليتهم . فستكون يدينا وبينهم مشاكل جديدة خطيرة في المستقبل القريب . ولكن من الذي يهتم في مصر بالمستقبل القريب أو البعيد ، إنما يهتم المسيطرون بالتحكم في الشعب وإثارة حقه وغضبه شفاء لبعض الصدور . ولولا انعدام روح المخاطرة ما أحجم ذاك الفتيان عن الذهاب إلى الحبشة حبا في لندرا وباريس ، وأكثر الشبان يفكرون في أنفسهم . ولا يعرفون ما يدور على أمتهم من الخير إذا آثروا الخشونة وانطلقوا يدرسون الشعوب الافريقية التي أصبحت قبة الباحثين والمخاطرين

كان صديق الذي ارسل إلى الدعوة لحضور افتتاح المعرض قال في خطاب له « احضر في الساعة الثالثة تماما إن كانهمك أن ترى وزراء » فقات في نفسى : « عارفهم ! عارفهم ! » ومع ذلك ثار تطاعى إلى رؤية الوزراء . فذهبت قبل الساعة الثالثة وانظرت قريبا من باب المعرض على أرائم ، ولكنهم لم يحضروا في الوقت المحدد لحضورهم ، فمضيت أشاهد المعروضات وأتلفت من حين

إلى حين أرقب قدوم أولئك الأعلام ، ولكننى لم أر أحدا ، وكنت أفهم أن حضورهم سيلفت الأنظار ، وسيكون فى حاشيتهم من يعلن المتفرجين بقدمهم ؛ ولكنه لم يقع شئ من ذلك ، ثم دهشت حين علمت بعد نصف ساعة أنهم حضروا وشاهدوا ما أهمهم من مختلف المعروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد ، فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس ، حيث لا بلطة ولا مسدس ولا خوف عايمهم ولا هم يحزنون !

المعرض كله خاص بما أنتج الفنانون متصلا بالطيران ، وليعلم القارىء أن هناك فنانين ملحقين بالملاحة وفنانين ماحقين بالطيران . والغاية من اتصال الفن بالملاحة والطيران أن تُغرس فى نفوس الشعب عن طريق الفن ثقافة البحر والهواء . والقوم هنا يعملون على أن تكون صلة أبنائهم بالسياحات البحرية والجوية صلة عشق وهيام لا صلة ألفة وقبول ، وكذلك نجد بين الشبان الفرنسيين من يُغرم بالملاحة والطيران غراما مبرحا يقض مضجعه ، ويكدر صفوه ويكاد يحول بينه وبين طعامه وشرابه

ومن أجل هذا أخبرنى المسيو جانجان أن وزير الطيران امتنع حين رأى فى المعرض لوحات فنية تصور بعض الحوادث المزعجة فى الطيران ، لأن هذا المعرض لم يقم لإعطاء الفرنسيين كل

المعارف الضرورية المتصلة بالطيران من نجاح وإخفاق ، ولكنه أقيم للدعاية للطيران وترغيب الفتيان في ذلك العلم النليل ، فمن الخطأ أن نفهم الشبان أن في عالم الهواء كبوات وسقطات ؛ وإنما يجب أن نربي فيهم حب المخاطرة مصحوبا باليقين المطلق في الفوز والتحكم في آفاق السماء

عدد العارضين ١٨٣ أما المعروضات فشئ يعجز عنه الاستقصاء . فبعضهم عرض تماثيل صغيرة لمن ذهبوا ضحية الطيران ومنهم من عرضوا رسوماً مختلفة للطيارات . وبعضهم عرض صوراً فتوغرافية عديدة لمناظر أخذت من الطيارات . وهذا نوع جديد من التحف النفيسة التي تمثل المدن والمعالم التاريخية كما يراها من يطل من جانب السماء . وفريق عرض أدب الطيران . وكلمة أدب هنا يراد بها مجموعات المؤلفات التي أراد أصحابها أن ينشروا ثقافة الطيران بين الجمهور ، ومن بين هذه المؤلفات روايات شائنة جذابة وضعت للأطفال في حوادث متصلة بالطيران : بحيث يشب الطفل وفي ذهنه صور عديدة للمخاطر الجوية التي يرجي أن يكون له من مجدها نصيب .

ومن الجوانب الطريفة في هذا المعرض ما يراه المشاهد من الاواني والادوات المنزلية حيث يسرح الطرف في طائفة كبيرة من الصُّحاف والأطباق ، والملاعق والشوكات والفناجين والأكواب

والأسيرة والمخادع والوسائد ، وكلها محلاة بصور الطيارات ومشاهير الطيارين ، كل ذلك لتدخل ثقافة الطيران في المنازل والقهوات والدواوين ؛ وليصبح الناس ويمسسون وعيونهم شاخصة وقلوبهم عالقة بذلك الفن المذكر الفحل فن الطيران وهناك خاطراً أعلنه المسيو جالير العضوفى أكاديمية جونكور وهو إدخال رسوم الطيران فى الأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية بدلاً من الرسوم الطبيعية التى تمثل الأزهار والأشجار والأطياف وشواطئ الأنهار والبحار ، بحيث تصبح ملابس السيدات وفساتينهن ومعاطفنهن وهى تموج بالخطوط الجوية ومناظر السباق فى الهواء . وبذلك تبعد بدعة زهر الرمان مرسوماً على صدور الملاح ، وتذهب علامة الاستفهام مرسومة تارة على عصاة الرأس وتارة معقوفة فى جدائل الشعر البراق ، وتصبح الزينة نهبا مقسمائين صور الطيارات وصور الطيارين . والغرض من هذا واضح وهو أن تصبح نفوس العشاق وقلوبهم وعيونهم محبوسة بين ذكريات عالم الهواء . وللقارىء أن يدرك أثر ذلك كله وهو : رياضة العقل والذوق والحس على عبادة الطيران

أما الجزء الخاص بالبريد الجوى فهو عبارة عن مجموعات كثيرة مختلفة من الرسائل الجوية تمثل جميع الاقطار التى مرت بها طيارات .

البريد . وقد حرصت على معرفة نصيب مصر من ذلك الجزء .
 وكنت استصجبت صديقي محمود أفندي الخضيري فقضينا نحو
 أربعين دقيقة نبث عن رسالة مصرية بين ألوف الرسائل المعلقة
 هناك ، وأخيراً عثرنا على ثلاث رسائل مرت بمصر في خط الهند
 ورسالة من القاهرة إلى الخرطوم في الطيران الخاص برسالة منها رسالة
 من (أبو صير) . وثلاث رسائل مرسل من الاسكندرية إلى باريس
 وكلها مرسل إلى يونان لا مصريين فوددت لو عرفت كيف نظم
 المعرض لأقدم إليه رسالة جوية وصاتني من صاحب البلاغ . وقد
 حداني حب اللغة العربية على تعقب الرسائل الجوية التي كتبت
 بحروفنا الجميلة فوجدت نماذج يحسن اثباتها هنا لما لها من الدلالة
 على نحو خاص من كتابة العناوين . وأكثرها رسائل سورية من
 (رفاق) كتب العنوان فيها هكذا :

« لحضرة الخواجه الياس حجار دام بقاءه »

ورسالة من (دير الزور) كتب عنوانها هكذا :

« يحظى بمطالعة الشاب الاديب توفيق الشوتاني الأكرم »

ورسالة من اللاذقية كتب عنوانها هكذا

« سعادة الشيخ الجليل مولاي الأمير المعظم بدر الضحى

السلام عليه »

وهناك رسائل عربية كتبت بخطوط مغربية لم أستطع تمييز

ما فيها لبعدها عن خطوط الشرق ، وقد حدثنا ابن خلدون أن خطوط أهل المغرب انحرفت عن الصواب لاتصالهم بالبربر . وهناك رسالة واحدة تركية كتب عنوانها بخطوط عربية

* * *

إلى هنا عرف القارىء اهتمام أهل الغرب بالطيران فلا ضف إلى ذلك أنهم لا يزالون يعترفون بأن الطيران لا يزال فى قوة الطفل ولكنهم يتهجون بالفروق العظيمة بين البداية التى قام بها (آدر) فى أواخر القرن التاسع عشر حين كانت طيارته لا ترتفع عن الأرض أكثر من بضعة بوصات وبين ما وصل إليه كوست وبلانوت من اجتياز الاطلانطيق ، وهم يتمنون أن ينقضى العهد الذى يرغم فيه المسافرين بالطيارة على سداذانهم بالقطن فرارا من وعودة أصوات المحركات ، ولكنهم يعودون فيقولون فى ابتسام : إن أصوات المحركات أفضل ما تُقتل به وحشة السكون فى فضاء الأجواء !

وقد سأنى الخضيرى أفندى حين خرجنا من المعرض : ماذا يقدم الفنانون المصريون لو طلب إليهم أن يقيموا معرضا لفن الطيران ؟ والقارىء أن يجيب إن كان يحضره جواب . . . ولكننا سنصل بعون الله وعزيمة الأمة إلى مساماة من سبقونا إلى التحكم فى ممالك الهواء

عودة الجنس اللطيف

الحمد لله والحب ! فقد عاد الجنس اللطيف . ومن أين عاد ؟
 عاد منهزماً من حرب البدع الجديدة بدع الأعوام القريبة التي
 حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز
 فقد مرت بباريس فترة كانت الفتاة هي الفتى في كل شيء : في
 ترجيل شعره ، وتصفيف طرته ، وترتيب هندامه . وكان الفتى
 في حيرة من أمره لا يدري ماذا يصنع ليطهر عن الفتاة . وليس في
 مقدوره بالطبع أن يلجأ إلى الفارق الطبيعي يعانه ليعرف الناس
 أنه فتى لا فتاة !

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر ، فانفتح باب الأمل
 أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد في الجدائل الذهبية - فليس هنا
 شعر فاحم مع الأسف الشديد - وعاد الجنس اللطيف أيضاً إلى
 إعفاء النهود من الكبس والتجفيف ، فعادت الطبيعة ترينا رمان
 الصدور بجانب تفاح الخدود . وغضت الفتاة النظر عن الهمادي في
 تلك الضلالة العمياء ، ضلالة الرجولة في جسم الأنوثة ، وصارت تمشي
 وهي ضعيفة الخطو مكسالة ، فتنتقل القلب من مكان إلى مكان ،
 وعرفت قيمة الحياء والخفر وتبينت أن سلاحها الحق هو نعومة

الضعف لاختشونة القوة ، فمضت تتثنى وتتكرّر في رقة دونها
أخواط البان

كانت مشكلة الأمس هي مشكلة الشعراء الذين حرمتهم
المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال ، وقد فُضت هذه المشكلة
والحمد لله ، ووجد الشعراء أما كن القول . أما مشكلة اليوم فهي
مشكلة الحلاقين ، فقد زاد هؤلاء زيادة غير معقولة بسبب إقبال النساء
والبنات على قص الشعر ، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص ،
فمن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم ؟ هذه هي المشكلة ، أو
ملك هي النقطة ، كما يقول لافونتتين . ولكن لا خوف ، فالله عز
شأنه يقول « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وكأين
من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » !

ليلة على شاطئ المانش

أخي الأستاذ أنيس ميخائيل

أكتب إليك هذه الرسالة من « رُوان » مدينة الماضي والاحلام والفن الجميل ، ولعلك تسأل كيف هويت إلى هذه البلاد . واني لمخبرك بأني ضجرت من باريس ، وفكرت في اختبار الأقاليم الفرنسية ، لأرى كيف يعيش أهالي الريف . وأرشدني أحد أصدقائي الفرنسيين إلى نورمنديا ، أغنى الأقطار الفرنسية وأقربها إلى سحر الطبيعة ، وأحفها بالغابات والحدائق والبساتين . وهي سياحة فنية خالصة لا يشوبها إلا غرض واحد ، ولكنه غرض عامي ، هو زيارة المسيو ديمومبين في هوتو ، وقد رأيت أن أمضى أولا إلى الهافر ثم أعود منها إلى روان . ولا تسأل كيف كان جمال الطريق : فقد تأنقت الطبيعة تأتقا لا مثيل له في هندمة نورمنديا وتتويج حُزونها وسهولها ووديانها بكل رائع شائق من الأزهار والأشجار وخمائل الكروم : ففي كل واد ، وفي كل نجد ، وفي كل سهل ، ترى المنازل الريفية الصغيرة منشورة في سحر وروعة كأنها أمان مجسمة تركت مهادها من القلوب واحتلت بساط الخضراء ، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار رأيت

الأهالى ناعمين وادعين ومن حولهم مواشيهم وأطياريهم وما جمعوا من طيب المحصول . وقد عرفت بهذه السياحة النور مندية كيف اتفق لبرناردين دى سان بيير أن يكون شاعر الطبيعة ، وأن تراحم مؤلفاته مؤلفات جان جاك روسو ، فان لمناظر الوطن الأول وذكرياته أثراً قوياً في تكوين العقل والحس والخيال لقد طال بي الطريق ووصلت المحافر عند غروب الشمس ، وكان أول ما فكرت فيه أن أبدأ بتناول العشاء ، وكنت سمعت أن أهالى نورمانديا يمتازون بالبراعة في طهي الطعام، ومع أنى قليل الاهتمام بهذه الشؤون المادية قد تعلمت من الفرنسيين كيف أتأنق في تخير طعامى وشرايى ، فالقوم هنا لا يرون فى الطعام والشراب ما نراه فى مصر من أنه للانسان كالبنزى للسيارة يُتخذ لوجهة نفعية صرفة لا أترفيها للذوق . كلا ، وإنما تمضى المطاعم والمشارب على أنها شؤون ذوقية روحية يتدخل فى تكوينها الفن والذوق والاحساس . وكلمة cuisine لها عندى مدلول قلما نفهمه فى الشرق . عندما تذكر كلمة (طبيخ) التى تثير السخرية كلما جرت على اللسان . واسمح لى بهذه المناسبة أن أصارحك بأنى كتبت لجريدة المساء مقالا عن أحمد بن يوسف المصرى فلما ذكرت مؤلفاته لم أشأ أن أشير إلى كتابه فى (الطبيخ) فراراً من سخرية القراء . ولا مانع أيضاً من أن أصارحك بأن الأقدمين كانوا يقولون: « قل لى من

تصاحب أقل لك من أنت « وعبارة أهل هذا الزمان في أوروبا :
« قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت » لأن أثر الطعام في تكوين
العقل والحس والذوق أعمق من أثر الرفيق والعشير . وإني لأرجو
أن تصل إليك هذه الرسالة في لحظة تكون فيها « مفتوح الشهية » حتى
تذوق ما أقول !

كانت أكلة لذيذة في مطعم المحطة بالهافر ، مضيت من
بعدها أبحث عن مأوى في أحد الفنادق ، ولكن كيف والفنادق
قليلة وليس فيها مكان واحد غير مشغول . لقد قضيت ساعتين
كاملتين أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتي ، وأبيت فيه ، ولكنى
لم أجد شيئاً ، فرأيت آخر الأمر أن أجا إلى البوليس أسأله كيف
ينام الغريب في ليلة مطيرة باردة على شاطئ المحيط . فأسرع
البوليس الى التليفون وأخذ يستعلم من جميع الفنادق عن غرفة أى
غرفة يقضى فيها أحد القادمين سواد الليل ، فأجيب بأن الفنادق
كلها مشغولة وقد يرجى أن توجد أما كن خالية غداً أو بعد غد
إن كان هذا القادم من الصابرين . وهذا الصبر يا صديقى شيء
يتوأسى به الناس ولكنهم لا يعرفونه ، وكيف يصبر من قضى نهاره
في السفر على قضاء الليل هائماً ينتقل من مشرب إلى مشرب ومن ناد
إلى ناد ! وقفت قليلاً تدبر أمرى في مثل هذه الأزمة المفاجئة
التي لا تمر ببال من يقدم إلى ثغر من الثغور الاوربية ثم رأيت أن

أضع حقيبة السفر في مكتب الأمانات بالمحطة ، وأن أعود إلى
المدينة أقضى فيها الليل ساهراً على أى حال

ولكن هذا الاخفاق لم يمنعنى من المحاولة ، والمرء يعجز
لا المحالة ، فأخذت أسأل الناس فى طريقى عن منزل آوى اليه
فسأقتنى المصادفة إلى سيدة عوان فقات : هل من مأوى يامدام ؟
فأجابت : عندى إن شئت ! فقلت : بكم ؟ فأجابت : (المبيت
وكل شئ بمائة فرنك) فأطرقت استحياءً وقلت فى نفسى :
المبيت مفهوم . ولكن (كل شئ) هذا ما معناه ؟

إن كل شئ اسم لمجلة مصرية ، ولكن يظهر أنه هنا اسم
لشئ آخر معلوم ! ثم رفعت بصرى اليها وقلت : المبيت فقط
يامدام ، والله الغنى عن كل شئ ! فقالت : من أين قدمت ؟ قلت
من باريس . فقالت : ولكن مع هذا يظهر أنك أجنبي عبيط !
فقلت : تشميننى فى بلدكم ! الله يسامحك يامدام ! وخليتها
وانصرفت

وبعد لحظات رأيت سيدة تتوجه الى جماعة فى قهوة وتقول :
إن سألكم سائل عن مكان للنوم فأرسلوه الينا فان لدينا غرفة خالية .
فتقدمت اليها وقلت : أنا ذلك السائل المنشود ! فأجابت على
الرحب والسعة . ومضيت معها بقلب فرح طروب . ولم أكد

أدخل تلك الغرفة حتي تقدمتُ إلى فتاة تسأل ان كنت أشكو
البرد وأحتاج الى وقود . فتلفت فاذا فتاة هيفاء ، ساحرة الطرف
أسيلة الخد ، واضحة الجبين ، لا أذكر اني رأيت مثلها في باريس .
فاندفعت في طيش ونزق أقيدها بأسباب الحديث . وقلت : أنت
نورمندية يامدموازيل ؟ فأجابت : لا ، ولكنى بريتانية : فقلت :
ياللشرف ؟ أنت إذن بلدية إرنست رينان ؟ فقالت ومن هو إرنست
رينان ؟ فقلت : الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم ،
وكتاب حياة المسيح . فقالت لأعرفه . قلت : عجباً ، إن الشيخ
بحيث يعرفه وقد تقض فلسفته في محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية
سنة ١٩٣٤ ، فقالت : ومن الشيخ بحيث ؟ فقلت : تجهان هذا أيضاً ؟
هذا فيلسوف عظيم ، وهو صاحب كتاب (منحة العبيد في علم
التوحيد) وكتاب . . .

ولم أكّد أصل الى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس
يدق دقا عنيفا متواليا وإذا ربة المنزل تصيح : مارى ! انزلى ،
مارى ! انزلى ، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول . . ونزلت
الفتاة مسرعة ، وعرفت أن ربة المنزل لثيمة ، وأنها أبخل وأضن
وأحقّد من أن تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء ، فأسررتها
في نسي وأقسمت ألا تركز هذه الغرفة لتصرف فيها تلك العجوز
الشمطاء . . . ثم خرجت متمللاً بأن الغرفة لا توافقني لأنها تطل

على الفناء، وكنت أحسبها تشرف على الميدان . . .
ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القرب
بحيث لا تغنى في دفعه المطرية—ولا أقول الشمسية لأنها تتقى
بها المطر لا الشمس!— إلى أين يذهب الغريب في هذه المدينة
الموحشة وقد انتصف الليل أو كاد!

إلى شاطئ المانش لأرى ما يفعل ذلك الأهوج المجنون
بالسفن. ولا تستكثر هذا الوصف فإن الذى لا يرى المانش
لا يعرف كيف يكون جنون البحر وهوج الرياح، وإن السفن
لتكاد تتحطم على الشاطئ من قسوة الأمواج. ولا تسأل كيف
قاسيت فى تلك الليلة، فإنى لا أذكر أنى قضيت ليلة أطيب منها
ولا آنس ولا أروح فى حياتى، وقد عذرت عشاق الطبيعة الصاخبة
وعرفت كيف يكون طعم الحياة فى مواجهة الأخطار، وعرفت
إلى أى مدى يجنى المترفون على أنفسهم حين يأبون الآن يعيشوا
فى كنف الطمانينة والهدوء.

وشدَّ ما كان صدرى يشور بالنشوة والطرب كلما تصورت
أن الحياة أتاحت لى أن أعيش ليلة على النمط الذى كان يعيش عليه
شعراء الإغريق! وكم خاطر شعري طاف بقلبي! وكم أمنية عذبة
مرت بالنفس وكادت تحملى على أن أتحوّل إلى بحار يبحث عن
أسباب رزقه فى مصاحبة ذلك العُباب المجهول!

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً نزلت الى اليم أنظر ما يفعل
 الصيادون . وهم هناك مئات بين رجال ونساء وصبية وكهول
 يجمعون ما تسمح به الشواطئ من مختلف الأسماك . وساعة
 واحدة بين أولئك القوم تشعرك بحال الفشاط والسعي في طلب
 الرزق الحلال ، وحياتهم كذلك صورة صادقة للإنسان القديم .
 فقد تغير كل شيء إلا هذا النمط من استغلال شواطئ البحار .
 فأى شيء هذه الحياة الوادعة التي نحياها في سجن ما أبدعت المدنية
 من ألوان التقاليد ؟ وأين نحن من ذلك المرح اللاجب الذي يحيا
 في ظلاله من يعيشون على سواعدهم من شياطين الصيد . لقد ظلمت
 في هذه الزهرة الطبيعية الى مطلع الشمس ، ثم عدت الى المدينة
 فوجدتها لا تزال أمامي أضيق من سم الخياط ، فأخذت القطار
 الى روان

اختيال الطاووس

خواطر عن عالم الطير وعالم الحيوان

ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأننى لم أر الطاووس وهو
يفشر جناحيه زهوا واختيالا الامند يومين . وللقراء أن يسألوا
أنفسهم متى رأوا مثل هذا المنظر الأخاذ بالابصار والقلوب، فقد
يكون فيهم ألوف لم يشهدوا الطاووس وهو يزهو ويختال

ولقد أحياني نفسى ذلك المشهد حسرة قديمة طالما غزتني
بصنوف الآلام لتقصيرى فى دراسة الطير والحيوان . ثم سكنت
قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى دراسة الحيوان جملة واحدة : فقد
اهتممت كثيرا بدراسة الحيوان الناطق الذي اسمه انسان ! وانى
لأعلم عن ذلك الحيوان الذى يمشى على أربع وهو طفل ، وعلى
اثنين وهو شاب ، وعلى ثلاث وهو كهل ، ما يندران يعرفه
باحث سوى . فقد عرفت من أشتات الأصحاب والآلاف
والزملاء والجيران والمنافسين والحاقدين والخصوم والأعداء
مايكفى فى مادته لوضع كتاب فى خمسين مجلدا أو يزيد

على ان الأدب الذى شغلت بدرسه وقضيت فيه أنفـس
أعوام شبابى ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق

واحلامه وتصوراته ، وكيف يحب وكيف يحقد ، وكيف يخطئ وكيف يصيب . وقد ابتلاني الله بطوائف كثيرة من الدسائس والكائدين واللائم فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان وطبائعه ونمائزته وميوله وأطماعه . ويظهر أن الله جلت قدرته قد شاء أن أكون على شيء من العلم بطبائع النوع الناطق من الحيوان : فأنا أستطيع أن أقرأ خواطر الناس في وجوههم وعيونهم ، وأستطيع أن أفهم ما يضمرونه حتى عن أنفسهم ، وما يدسونه بين السطور وفي ثنايا الحروف . وإني لأجد في درس بني آدم لذة لا تعدلها لذة ، لانهم قد يكونون أرقى أنواع الحيوان ، فان لم يكونوا أرقى فهم على الأقل يحسنون النفاق ، والنفاق دليل الانحطاط ولكنه في الوقت نفسه دليل الذكاء

وأى لذة أطيب وأشهى من أن يناقنا انسان وهو يحسب أنه أتقن دور الخداع . ثم ينصرف في اختيال الظافر في حين اننا فهمناه ، وعرفنا ما كان من أمره وما سيكون !

على أنه ما الذى يفتننا ونحن ندرس الطير والحيوان ؟
أليس مرجع تلك الفتنة العلمية ما نبجده من الشمائل الانسانية في عالم الطير وعالم الحيوان ؟

ما الذى يروقنا من البابل ؟

انه لا يروقنا منه إلا مظهر واحد هو قدرته على التلوين

والتنوع في أغاريدده بحيث يمكن أن يقال انه فنان . فهو لا يسجد
اتفاقا وعلى وتيرة واحدة كما هو شأن الطير المغرد ، ولكنه يفتن
افتنانا شائقا ويتنقل من لحن إلى لحن ، ومن صوت إلى صوت ،
وهو في ذلك كله يملك من أمره ما يملك الانسان ذو الصوت
الحنون

وهناك حيوانات يفتننا درسها أشد الفتنة ، وهي الحيوانات
الماكرة الخبيثة التي تذكر باخواننا بنى آدم ، عفا الله عنهم !
فهل رأيتم الدبّ يا حضرات القراء ؟

أما أنا فقد تشرفت بمقابلته اليوم وأنا أستعد لكتابة هذا
المقال ، وأغرب ماراقني منه أنه يبسط كفه من بين قضبان الحديد
يلتمس برّ الزائرين الذين عودوه قطع السكر والخبز والفطير ،
وتظهر على وجهه أمارات القلق والحيرة والعتب كلما أخلفه الناس
ما عودوه . وقد انتظر دليلا في صباح هذا اليوم عطف المتفرجين
ولكنه لم يفز بطائل ، فمضى الى الحوض يستحم ! وهنا أحدثكم
أنه كان يضع رأسه تحت صناير الماء ثم يمدّ يديه فيمسح شعره
ووجهه وأنفه بطريقة انسانية محضّة كادت تحملني على الاقتناع بأنه
آدمى ممسوخ !

وقد تحدثت مع صديق لى عن هذا الدب الألوف الذى
يخطب وداد الناس فقال : ألوف؟ احذر أن تتوهم ذلك ، فقد قتل

اثنين من الجنود في العام الفارط. فقلت : كيف ؟ فأجاب : سقط من أحدهما شيء في هذه الحفيرة ، ونزل يلتصقه ففهم عليه الدب وافترسه ، ونزل رفيقه لا يتقاه ولكنه لم يسلم من مخالفته . . وكانت لحظة فكرت فيها في هذا الدب الخائن الذي يبسط كفيه في ذلة يلتصق الطعام من أيدي الأدميين ، حتى إذا كانوا عنده جزاهم شر الجزاء ! أليست هذه شمائل انسانية ؟ قولوا الحق أيها القراء. فكم ناس وفينا لهم وفديناهم بأنفسنا سرّاً وعلانية ، ثم كان مثلهم معنا مثل الدب مع الجندي المنكود !

وقد شغل العلماء أنفسهم بدراسة القرابة بين الإنسان والقرد ، ومثل هذا الدرس جدير بأن يقدم للباحث أمتع اللذات ، ففي الحق أن القرد يملك كثيراً من السمائل والفرائض الانسانية ، وتكوين وجهه وحاجبيه وعينه مما يقوى الشبهة في أن الإنسان قرد تطور الى الرقي ، أو أن القرد انسان تطور الى الانحطاط

وانى لا ذكر ان أحداً الاصدقاء من أساتذة كلية العلوم في باريس حدثني مرة أنه لاحظ في إحدى سياحاته بالاصقاع الافريقية ان طائفة من القروء تنتظر شروق الشمس بما يشبه صلاة الصبح عند الانسان : وذلك انها تقف وأيديها مرفوعة الى السماء بما يشبه القنوت أذكر هذا ، وأذكر بجانبه أننا لا نعرف أشياء كثيرة عن الصلة بين القرد والانسان ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن اهتمامنا

بدراسة القروء مرجعه إلى ما ندهش له من شمائلها الانسانية ،
وخاصة حين تتناول الطعام والشراب

• وهناك عالم الطير ، ذلك العالم العجيب الذى ملك أقطار
الهواء

ومن ذا الذى ينكر أننا حين ندرس الطير انما نبحث عما
بيننا وبينه من المشابهات والمقاربات ، ألم تبحر الامثال فى جميع
اللغات بما يمثل غرائز الطير تمثيلا يقربها كل التقريب من طبائع
الناس ؟

ألسنا نستأنس حين نرى طبائعا مصورة فى نحائز الطير:
فهذا طائر جارح ينتزع غذاءه وهو يصول ، وذلك طائر وديع
يطلب غذاءه فى رفق واحتيال ، وتلك أسراب تغدو خصا وتروح
بطانا حيث يرزقها الله كما يفعل فريق من المتوكلين

تلكم أيها القراء خواطر عللت بها نفسى حين رأيت قصورى
عن فهم عالم الطير والحيوان ، فالانسان فى رأى هو مجموعة كاملة
لشتى المخلوقات ، وأنا قد عرفت الانسان وفهمت غرائزه وميوله
وسجاياه. وما قيمة القلم ان لم نستطع الدفاع عن جهلنا بما فى هذا
الوجود من طير أو حيوان أو نبات أو جماد ؟ لقد فتحت الباب على
مصراعيه لمن يريدون أن يخذعوا أنفسهم ليقنعوا بوهم الظن حين
يفوتهم علم اليقين !

وأعود فأتكم عن الطاووس الذى حملنى على كتابة هذا
المقال .

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض
لان ريشه عبء ثقيل . وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال .
وهو الطائر الوحيد الذى رأيت فى حديقة النباتات فى باريس
يتعفف عن هدايا الزائرين ، فقد تلقى اليه قطع الحلوى فيتعامى
عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن ، ويكاد صدره يفعل بالناظرين
ما تفعل الصهباء بالألباب ، وليس شئ يجلب عن الوصف بقدر
ما يجلب صدر الطاووس . والناظر الذى ألف ذوقه أن يقتات من
الحسن لا يدرك كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله
لذلك الطائر العزوف .

ولقد طال ارتيادى لوادي الطير فى حديقة النباتات ، وكان
الطاووس فى كل مرة هو أفق ما أرى ، ولكن كان يضايقنى منه
شئ واحد هو تعقله . والتعقل هو أشد ما يؤذينا من أهل الجمال
غير أنى دهشت فى الزورة الأخيرة : فقد رأيت الطاووس
كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع . ولأول
مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه وكيف يفهم أنه من
أجمل المخلوقات . رأيت وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال

ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب ، وفي هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله ، وأنه بذلك مفتون

. وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يُسمع لها صريرٌ

يشبه حفيف الريح بين الأوراق . وأقول يشبه فقط : لأن

تلك الرعشة الكهربائية التي يقوم بها الطاووس تعرض على

الناظرين ألواناً فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو

الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل ، ولا يدرك قيمته إلا من

يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها في

تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر رقيق الذوق ، وله عواطف وأهواء ، وهو

في عالم الطير يشبه الشاعر في عالم الانسان

ليس للطاووس قلمٌ يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق

من الكتاب والشعراء ، وليس لديه قيثارة يغزوها القلوب كما

يفعل الموفقون من أهل الفنون ، ولكنه يملك تلك الرعشة

الكهربائية حين يبسط جناحيه : فهو يتقرب بها إلى من يهوى في

عالم الطواويس

فياليت شعري وقد فهم كيف يكون الغزل ، أهو أيضا يفهم

كيف يكون الأسى وكيف يكون الأنين ؟ وهل كتب عليه

يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوباً عند بعض الأسراب ؟

انى لأحنو على الطاووس أيها القراء ، فهو فيما رأيت يُعنى
نفسه فى نشر محاسنه ، وتظهر فى سيماء علامم القلق فى سبيل
الوصل . فان كان هو أيضا يخفق كما يخفق بعض الناس فليست
الدنيا اذاً إلا دار شقاء للجميع !

بك بعض ما بى أيها الطائر الجميل ، وليس لدى بعض مالديك
من آيات الحسن والإشراق
أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق ، وأنا أملك ذلك
القلم الأسود المقصوف . فيأ بعد ما بينى وبينك حين تقوّم النفائس
والأعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار ، ولكن الحسان تسعى اليك
أسراباً أسراباً فى الضحى والأصيل ، أما أنا فأتعقب الحسان من
ملعب إلى ملعب ، ومن بستان إلى بستان ، ثم أعود وليس لدى
ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقال المعذبون من شعراء
الوجدان ...

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد !

أول ابريل سنة ١٩٣١

نزهة في طيارة

وأخيراً طرت مع الطائرين !

في هذه الايام افتتح معرض الطيران في القصر الكبير بالشانزليزية ، وكان لابد أن أزور ذلك المعرض لأرى الفرق بينه وبين المعرض السابق الذى شهدته سنة ١٩٢٨ ولأعرف إلى أى مدى تقدمت المعدات لامتلاك ناصية الهواء . ولكنى رأيت من القصور أن تظل صلتى بالطيران صلة ضعيفة لاتعدو مشاهدة الطيارات وهى جائمة فى الجراج ، وكذلك صممت على أن أطيّر أولاً قبل أن أزور معرض الطيران ، وتوجهت مسرعاً إلى مطار بورجيه ، عليه تحيةً وسلام

ولا أدري كيف بدا لى أن أخبر بعض أصدقائى من أساتذة السوربون عما اعتزمته من تلك النزهة الجوية ، فقد قال قائلهم فى لطف : هل كتبت وصيتك ؟ وكان سؤالاً لا بد منه فى عهد لا يزال فيه الطيران طفلاً فى المهد ولا يزال يتأثر بالجو ، ويعيش فى تقيّة من الامطار والرياح فضلاً عن الزوابع والاعاصير . من أجل هذا تخيرت يوماً مشمساً ضاحياً لاسحاب فيه ولاضباب وكان أمس الخميس ٤ ديسمبر من الأيام الساجية الضاحكة

فى أرض قلما يبدو فيها يوم سحسج مقبول .

ان الفرنسين يسمون المطار port وهو كذلك يشبه الميناء .
 وشعور القادم على مطار بورجيه يشابه شعوره حين يقدم على
 ميناء مرسيليا أو اسكندرية أو بور سعيد ، وليس بين المطار وبين
 الميناء من فرق إلا أن المطار يواجهك فى هدوء وسكون ولا
 كذلك الميناء حيث تصطدم بصفير البواخر وأصوات الملاحين .
 ومطار بورجيه مطار فسيح جداً يمتد إلى أبعد ما تسرح العيون ،
 وفيه جراجات عديدة تأوى إليها الطيارات . وكان يوم أمس موعداً
 لقدم بعض الطيارات من لوندرا . فقدمت بلا لجب ولاضواء
 ونزل راكبوها إلى المقصف فى وداعة وهدوء كأنما قدموا من
 باريس

إن الطيارة التى ركبناها طيارة صغيرة تسمى Ajub ليس فيها
 مقاعد لأكثر من عشرة أشخاص ، ولم يفتنى أن أقول حين ركب
 « بسم الله مجراها ومرساها ، ان ربى لغفور رحيم » ومرّ بالبال
 كل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام ، وأنا رجل كثير الذنوب
 كنت أخشى أن يكون حان حين التكفير ، ولكنى نجوت
 فاعتقدت بحق أن الله غفور رحيم !
 كانت لحظة رهيبة حين أغلق الباب وحين أيقنت أننا صرنا

أن تطول انظـل في رحاب الارض التي منها خلـقنا وإليها نـعود ،
ثم أـزبـت الطيـارة أـزينا شـديدا كـاد يـصم الـاسـماع فـعـرفـنا أنـها أـخـذت
تـشق الـهـواء

لـاتـسل كـيف كـان شـعـورى حـين حـاقـت بـنا الطيـارة ، فـقد
كـانـت دـهـشـتى عـظيـمة جـدا حـين لـاحـظـت أن الطيـارة أـرفـق بـركـابـها
مـن السيـارة فـوق الـارض و مـن البـاخـرة فـوق المـاء ، فـسـير الطيـارة
سـير لـين رـفـيق لـا عـنف فـيـه و لـا اـضـطـراب ، و أكـاد أقـول أنـها أـرق
وألـين مـن المـطـايا الذلـول الـتى تـجـوب البـيـداء . فـما هـو هـذا الـانـسان
و كـيف عـقلـه و كـيف خيـالـه ؟ انـه لـمـخلـوق عـجـيب !

لـقد شـعـرت بـالعـزة الـانـسانـية حـين تـوغلـنا فـي آفـاق السـماء .
و كـنـت مـن بـين الـراكـبـين كـثـير التـلفـت مـن النـوافـذ إـلى ما مـر بـه
مـن المـنازل و القـصور و الميـادين و الحـدائق و البـسـائـن . فـراعـنى أن
شـعـورى بـجـمال الطيـعة كـافـى أعمـق ما مـر بـى فـي حـياتـى . و ايقـنت أن
الطـير أ كـثـر نـعيمـا مـنا ، و أدق إحـساسـاً ، و أعمـق شـعـوراً ، و أبـصر
بـمـواقـع الحـسن ، و أعـرف بـمـواطـن الجـمال . و كـيف لـا و أنت عـلى
الأرـض لـا تـدرك مـن الطيـعة إـلا بـعض الجـواب ، حـتى إـذا
أشـرفـت عـليـها مـن فـوق رأيتـها كـامـلة فـي زخـارفـها و تـهاوـيلـها و نقـوشـها
و صـورـها و جـمـيع ما تـتـحـلى بـه مـن الحـسن المـجلـوب ، و الجـمال المـوهـوب .
و إن نـظـرة إـلى بـعض مـناظر بـاريس الـتى أـخـذت مـن الطيـارة

تريك الفرق البعيد بين المنظرين : منظر يؤخذ من مصور يقف
على الأرض ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء
ركبنا الطائرة قبيل الغروب فتمتعنا بمشاهدة ما أشرفنا عليه
من بدائع الأرض دقائق معدودات ، ثم غربت الشمس وأسلمتنا
إلى الظلمات ، وبقي القمر يساهرنا ونساهره فيما بقي من نزهتنا
القصيرة . والقمر في هذه البلاد قليل السلطان يبدو في غمرة من
النحول والشحوب . لأنه لا يصل إلى الغرب إلا بعد أن يضنيه
المسير ، كما افترض أن يقول الشعراء ، وعدنا تنلفت إلى الأرض
فأرونا ما في الشوارع من المصاييح ، وكان لذلك روعة في نفوسنا
لا تقل عما يشعر به المتطلع إلى نجوم السماء

لقد أفهمتنى هذه النزهة معنى قولهم « ساعة سعيدة » فقد
كانت لحظاتي فيها من أسعد اللحظات
ولكن خاطرا واحدا أزعجني وأثار قلبي من هدوئه وألقى
بنفسي في لجة من القلق والاضطراب . فقد تذكرت أن هذه
المحدثات العجيبة بأيدي أهل الغرب ومن صنع أهل الغرب . وأهل
الغرب لثام تطعيمهم القدرة ، وتعميمهم النعمة ، ولن تكون هذه
المبتدعات في أيديهم إلا وسائل إفناء وإهلاك وتخريب وتدمير .
وتذكرت الطائرة التي ألقت قذائفها فوق مدينة القاهرة أيام الحرب

والتي قال فيها حافظ ابراهيم خمسة أبيات . وقد قيل يومئذ
إنها طيارة ألمانية . ولا أعرف لأى سبب افترضتُ إذ ذاك أنها
طيارة انجليزية أرادت أن تفهمنا أننا فى خطر وأنه لابد لنا من
حماية الحلفاء . ذلك كان افتراضى وقد أكون من الواهمين !

أهل الغرب لا يوفون إن عاهدوا ، ولا يصدقون إن وعدوا ،
ولا يبرون إن أقسموا ، وإنهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق
المواثيق . ولست فى هذا المقام بحاجة إلى تذكير قرأى بالسبعين
وعداً التى ظفرنا بها من سياسة الانجليز ، فقد يقال : إنهم سيصدقون
وأثمهم عما قليل ليصبحن راحلين ، ولكنى أذكر من شاء ان
يتذكر ممن خالطوا الأجانب فى زراعة أو تجارة أو صناعة ، أو
شاركوهم فى جد أو فى هزل ، أو عرفوهم فى صداقة أو فى خصومة ،
إنى أذكر من خبروا الأجانب بعض خبرتى لهم ، علمهم يتذكرون
جميعاً أن كل من يمت إلى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة إنما
هو إنسان خادع ، ماكر ، خبيث ، لا عهد له ولا أمان !

وقد شاع اعتقاد أن مطامع الأجانب لا تتمثل إلا فى
حكوماتهم ، أما الأفراد فهم ملائكة أطهار ! وهذا كلام لطيف
يصح أن يقال ويعاد فى القهوات حيث يتكلم الفارغون عن كل
شئ ، ويخوضون فى كل حديث ! والواقع غير ذلك ، الواقع أن

الأجانب نفعيون، وأنهم لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا وفي أنفسهم غرضٌ دفين

فهل من الإثم في شيء أن أروض قومي على أن يفهموا أن لهذا العصر أخلاقاً وآداباً تغاير ما عرفوا من أخلاق وآداب، وأنه لا بد لمن يريد أن يعايش أهل هذا الزمان أن يكون في مثل لؤمهم وبغيهم، وأن يكون له ما لهم من قوة البر والبحر والهواء .
إنني لأكتب هذا بعد ما عرفت عن قرب أن هذه السنوات العشر، سنوات السلام، لم تكن إلا ضرورة قضت بها الظروف، فإن الدول هنا يتقرب بعضها من بعض، ولولا تعادل القوى وتكافؤ المعدات الحربية لكانت هذه السنوات أياماً لا واء .

كانت ساءة سعيدة لولا هذا الخطر المزعج . ولكن من يدرى لعل هذا الخطر كان أنفـس ما مرَّ في تلك الساعة، فقد آن أن نشبَّ عن الطوق وأن نعبـر عن إحساساتنا بغير عبارة الأطفال إذ يقولون حين يبتهجون : يا سلام ! يا سلام !

عادت الطيارة إلى بورجه، ورأيت أن أرى ما هنالك من مختلف الطيارات والمحركات . وصحبني صديق فرنسي من أعضاء اتحاد الطيران ولسان حاله يقول : « تفرّج وشوف » فهذا فنار في قوة عشرين ألف شمعة ؛ وهذه طيارة تاكسي . وهذا دليل

الجو ، وهذا مرشد الطيار الحائر في الضباب ، إلى آخر ما رأيت
من تلك الأعاجيب

ثم رأيت أننى أمسيت ، فأخذت سيارة إلى باريس ، وأنا
أردد قول شوقي

أرى طوفان هذا الغرب يطغى وأهل الشرق سادته نيامُ
فإن لم يأتنا نوح بفلك على الإسلام والشرق السلامُ

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

غمز لا يجدى

كان على يمينى فى إحدى المحاضرات الليلية، سيدة وكان بيدها ،
شهد الله ، قلم وقرطاس ، لتدوين ما يقول المحاضر ، ولكنها بعد
لحظات استسلمت لمغازلة النوم ثم أخذت تغط غطيطة منكرًا وصل
صداه إلى المحاضر حتى خفت أن يأخذها التهويم . ومن وقت إلى
وقت كانت تستيقظ على دويّ التصفيق فتسرع إلى القلم وتشرع
فى تسويد القرطاس ، ثم تعود إلى النوم والغطيط

وقد أزعجنى شخير تلك المرأة وفكرت غير مرة فى غمزها
لتصحو . ولكنها كانت عجوزاً فانية . ولا فائدة من (غمز)
العجائز الفانيات !

يوميات عيد الحرية

في باريس

كيف تدعى الامم إلى الجهاد - المراقص العمومية - أساس
الاخلاق - جنود الجزائر - حفلة الألعاب النارية على شواطئ
السين - الأمل في خلاص وادي النيل .

١٢ يوليه سنة ١٩٣٠

لقد شهدت مقدمات عيد الحرية : ففي كل شارع وفي كل
ميدان وفي كل مورد من موارد اللهو والقصف تُقام شعائر الفرح
وبشائر الابتهاج ، وقد أعدت المراقص العمومية في الشوارع وفي
الميادين ، وأخذ الناس يرقصون ، ولاكن لم أشهد في المراقص غير
الأطفال ، فكلماً صدحت موسيقى الرقص انطلق الصغار كأسراب
القطا يرقصون رقصاً ينقصه الفن ولكنه في سذاجته جميل جذاب .
ولعلمهم كانوا يعجبون كيف خلا الميدان من المنافسين الأشداء
الذين يعرفون كيف تكون المحاصرة ، وكيف يضم الصدر إلى
الصدر والساق إلى الساق ، ومثلهم في ذلك مثل الاطفال في مصر
تقام أمامهم الاعلام والاقواس في الموالد العمومية ، فيذهبون

فرحين مستبشرين ثم يرون المولد خلواً مقفراً إلا من وثباتهم
المرحة وجذلهم الفياض ، ولو فهموا لعرفوا أن الكبار يشغلهم
المولد بأشياء أخرى ، فهذا تاجر ينظم عرائس الحلوى وذلك مهرج
يعد الألعاب والصواريخ وهذا شيخ يفكر في استقبال مريديه
وزائريه ، وتلك سيدة « تبين زين وتدق الودع » وتكون الخلاصة
أن الموالد فرصة تجارية عند الكبار ، والصغار لا يفهمون ذلك ،

فهم يعجبون كيف يلعبون وحدهم من دون الناس !!

وقد رأيت أن أختبر شعور الباريسيين نحو ١٤ يولييه
فعجبت إذ رأيت كثيراً منهم لا يأبهون له ، ولا يحفلون بقدومه
فتذكرت الحكمة العربية التي تقول : « الصحة تاج على رؤوس
الاصحاء لا يبصره إلا المرضى » وكذلك يمكن أن تقول : « الحرية
تاج على رؤوس الأحرار لا يبصره إلا المستعبدون » فنحن
الشرقيين الذين كتب علينا أن نعاني أهوال الظلم والاستبداد ننظر
إلى عيد ١٤ يولييه نظراً يختلف أشد الاختلاف عن نظر الفرنسيين
الذين طال عهدهم بالحرية ، وألفوا استعباد الشعوب

قال قائل منهم : ما الفرق بين ١٤ يولييه و ١٤ يونيو ؟ انهما سواء !
وكتب أحد الصحفيين يقول : لقد أحسن محافظ المدينة في إعلان
إباحة الرقص العام ثلاثة أيام . فأننا سنرقص وسنرقص لننسى في
ساحات الرقص أثقال الضرائب !! .

أما أنا فقد أعطتني هذه الشواهد فرصة للتفكير. وقد وصلت إلى أن معانى الوطنية والقومية تحتاج إلى وقود: فالشعب الذى يعانى أزمة اقتصادية أو اجتماعية غير مستعد للتصفيق والتهتاف لحادث تاريخى مرت عليه أجيال ، فمن شاء أن يحرك الشعب فليرفع عنه عبئاً ضاقت بحمله كواهلة ، وليفتح أمامه باباً من أبواب الرجاء ، والرجل الذى لا يجد ما يشبع أمعاءه لا يهتز لما يغذى عواطفه. وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأساتذة قال لى مرة : لقد كان غذاء الجنود فى الحرب الأخيرة أجمل غذاء شهده الشعب الفرنسى فكان الجندى يجد من أنواع الشراب والطعام وأسباب اللهو والمجون ما يحجب إليه البقاء فى الميدان

وكذلك كان الانسان كتلة من الاعصاب والحواس قبل أن يكون صاحب رأى أو مذهب أو عاطفة أو إحساس . ولست فى هذا ممن يقدمون الغرائز الحيوانية على المعانى الانسانية . ولكنى أحاول كشف الحقائق فى صورها الواقعة . ليعلم من لا يعلم أن الوطنية الباقية هى التى تبني على أساس المنافع والمصالح المادية . فالشعب الذى تدعوه إلى الدفاع عن الحرية لأنها فقط معنى نبيل لا يصبر طويلاً على الجلاذ والكفاح فى تأييد المعانى الصرفة ، أما الشعب الذى تفهمه وتصل إلى اقناعه بأن الحرية غرض مادى صرف وأنه ينبغى أن يكون سيد نفسه وأن يفتح أمامه أبواب الرزق والغنى

فانه يستبسل ويستमित لأنه يسعى إلى عمل محسوس ماموس . فمن
كان في ريب من ذلك فايد كركيف ساد المسامون يوم كانوا يسعون
لفتح ممالك الارض وجنى ما فيها من الخيرات والثمرات ، فلما
شغلوا بالتصوف ورياضة النفس على الزهد خملوا وضعفوا وضربت
عليهم الذلة والمسكنة ، واسكن أكثر الناس لا يفقهون !

في ١٣ يولييه

ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر اليوم تغير الحال في باريس
ونشط الجمهور للتمتع بعيد الحرية ، وكانت موسيقى الرقص تصدح
في كل مكان ، وهي موسيقا لها جاذبية خاصة يرقص الناس
عند سماعها من حيث لا يشعرون . فلما جاءت الساعة السادسة
انصرف الناس الى منازلهم يطلبون العشاء ، وكنت على موعد من
صديق فرنسي ، فتعشينا معا وحضرنا رواية هزلية تمثل خيانة الأزواج
وخرجنا قبل منتصف الليل نشهد المراقص العمومية

فان كان القاريء المصرى لا يعرف ما هي المراقص العمومية
التي تسمح بها الحكومات الاوربية في أعيادها القومية فانذ كركله
أنها مراقص تقام في الشوارع والميادين ، ولها حرمة كبيرة لا تقل
عن حرمة الصلاة عند المؤمنين . فاذا صدحت الموسيقى وتخاصر
الراقصون كان حتما على مركبات الترام والاتوبيس والسيارات أن
تقف في خشوع حتى يتم الدور ، فاذا تم تحركت خطوط المواصلات

لحظة قصيرة ثم يستأنف الرقص فيخشع كل ما في الوجود. ومن مزاي المراقص العمومية أنه لا يشترط تعارف سابق لمن تراقصها من الفتيات : فلك أن تهجم متى شئت لتخاصر من تشاء من ناعسات الجفون . ولا عيب في هذه المراقص الا أن الرجال أحيانا يكونون أقل عددا من النساء فترى مع الاسف الشديد فتاتين تراقصان ، مع أن الرقص كالحب يحتاج الى رجال وحبال ! وهذا يذكرك بما نراه في بعض مراقص القاهرة حين يكون النساء أقل عددا من الرجال فنشهد رجلين يتراقصان ، والجمع بين النظيرين جميل إلا في هذه الأحوال !

طفنا كثيرا حول المراقص وكان أبداع مرقص شهدته في ميدان السوربون . كان الراقصون والراقصات يعدون بالملئات ، وكانوا يرقصون في زحام شديد جداً تنقل فيه الخطوات ببطء شديد . كان هذا يجري أمام الجامعة حيث كان تمثال أوجست كونت محور المرقص . ولا موجب للتفكير فيما يمر بذكري ذلك الفيلسوف العظيم ، فهو أيضا بلا جدال قد أغرق شبابه في لجة الفتون ، فمن العدل أن يغضى الطرف في عالم الأبدية عن ألعاب الجيل الجديد

أتريدون الحق أيها القراء؟ أنا والله في حيرة مما أشهد في أعياد باريس ، هذا الرقص العام هادم لصروح الاخلاق ولكن الناس

هنا لا يلتفتون الى ذلك . أفتكون الأخلاق أمورا نسبية ؟ أو تكون كالنباتات لها أقاليم ولها أجواء : فبعض الاخلاق ينمو في مصر ، وبعضها ينمو في الشام ، وبعضها يتحول لونه وطعمه إذا نقل من أرض الى أرض ؟

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

فى ١٤ يولييه

ماذا رأيت فى يومى هذا ؟ ستمر الأعوام ولا أنسى
لقد شهدت استعراض الجيش ، ورأيت رئيس الجمهورية
الفرنسية وبجانبه سلطان مراکش ، وبإي تونس ، وشقيق امبراطور
اليابان : فرأيت كيف تكون عظمة الأمم التى قدر لها أن تملك
وتسيطر وتسود

وكان من أهم المناظر التى طرب لها أهل باريس استعراض
فرق الجزائر التى قدمت فى لباسها العسكرى القديم الذى كان
معروفا منذ مائة عام حين فتح الجزائر بمناسبة العيد المئوى لذلك
الفتح المشئوم

مرت تلك الفرقة الجزائرية بين الهتاف والتصفيق !
أما أنا فدارت بى الأرض ، وأظلم فى وجهى الفضاء
وغلبنى الدمع

ويلاه هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين
الصحراء، ملكتهم هذه الدولة العاتية فزقت شملهم ، وفترت
جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف واللين فعادوا نبتاً يؤكل بعد أن
كان فتاهم يقول .

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللثام وخاروا
ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون
تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوّحوا بإشارة
الرضا ازددت حسرة إلى حسرة ودمدمت

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
كان أولئك الجنود يخطرون بحيولهم على شاطئ السين وهم
صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا وأذلوها في القرون
الوسطى أشنع إذلال، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك
خيالهم لو أمهاتهم المقادير . كانت خطواتهم يومئذ خطوات عزة
وكبرياء ، واستطاع شاعرهم أن يقول

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا

أرضاً تربّ الشيخ والقيصوما

في الساعة الثالثة من صباح ١٥ يولييه

لقد نجوت بحمد الله من شر هذه الليلة فعدت سليم الجيب
والعرض ، ولم أزعج الكرام الكاتبين بكثير من الذنوب

كانت الألعاب النارية على شواطئ السين تجمع إلى جملها
أكثر سكان باريس وكان فرح الجمهور فوق كل تقدير . وكان للحب
والشيطان نصيب عظيم . استغرقت الألعاب النارية أربعين
دقيقة مرت كأنها ثمانية واحدة . ولم يحشر الله جيوش الحسن والجمال
والملاحه والرشاقة في أى بقعة كما حشرها في هذه البقاع السعيدة
شواطئ السين

وقد قضيت نحو ساعة في اختراق المسافة من القنطرة الجديدة
الى قصر المدينة وهي تقضى عادة في خمس دقائق . ولكن ازدحام
الناس والسيارات أطال الطريق

قضيت أربع ساعات هائما بين الالهين واللاهيات واللاعبين
واللاعبات في ميادين باريس . ثم عدت الى المنزل وحدى في ليلة
لا يبيت فيها وحده إلا كل صبور ، والنفس قد تطمأن فتكون على
صاحبها أشد خطرا من حكام الباستيل . وقد لما كان النبي عليه الصلاة
والسلام يقول عند الرجوع من الحرب «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى
الجهاد الاكبر جهاد النفس» أفأستطيع أن أهنيء نفسي بهذا النصر
المبين ؟ وما توفيق إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أما بعد فهذه هي المرة الرابعة التي أشهد فيها عيد الحرية في
باريس ، فهل يقدر لى ان أشهد عيد الحرية الكاملة على ضفاف
النيل ! لن يبعد هذا الامل وفي مصر رجال

عيد الملاح في باريس

شهدت اليوم عيد الميلاح وهو عيد تأخر عن مواعده في هذا العام انتظاراً لصفاء الجو ، وهو في الاصل عيد ديني ، ثم تحول إلى عيد دنيوي ، لأن الدنيا غلبت الدين في جميع البقاع ، وتكاد أعياد العالم كله ترجع إلى أصول دينية ثم تحولت مع الزمن إلى أعياد دنيوية ، فان الانسان فيما يظهر يؤثر العاجلة على الآجلة ، ولا يدرك كيف يصح التفريط في الرغد الحاضر استبقاء لما وُعد به من نعيم مجهول . ولسنا بهذا ندعو إلى إيثار الدنيا على الدين ، ولكننا نثبت هذه الملاحظة لنسجل بعض التغيرات العقلية والروحية التي أثرت عن إخواننا بني آدم الذين يزعمون أن الله شرف بهم الارض وفضاهم على سكان الماء والهواء

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن موطن الذهب الرغامُ
وبعد فما الذي رأيت في موكب الملاح ؟

رأيت الجمهور الباريسي وقد اصطف شبابه وكهوله من رجال ونساء على جانبي الجران بلفار . وازدحمت الشرفات والنوافذ والسطوح بالمتطلعين المترقيين لمفاتن الحسن وملاعب الجمال .

وما هي إلا لحظات حتى علا الضجيج والهتاف في استقبال
الموكب المرموق

هذه إذاً ملكات الجمال؟ إى والله، هذه ملكات الجمال،
وتلك هي الأذرع البضة، وتلك هي القامات الممشوقة التي تفضح
العصون الرطاب، وتلك هي البسمات العذاب تُلقي في سحاء لجميع
المتفرجين في عدل وانصاف، فلا ظالم ولا مظلوم في هذا اليوم المشهود!
أى جمال هذا يارباه!

لقد كنت أتهم فرنسا بالاقفار من الحسن فمن أين ظفرت
بكل هذه الطباءة؟ ومن أى واد من أودية السحر استطاعت
باريس أن تقنص كل هذه الشوارد لتعرضها على الناظرين في مثل
هذا العيد؟

لقد كنت أعرف أن الحسن في فرنسا شخت ضئيل،
وكنت أرثي للمرأة الفرنسية حين تمدد على السرير كهود الخلال
أو كالدمية المسخوطة، أو كالومياء تتقدم إلينا من وراء التاريخ!
فما الذى جدّ في مظاهر التطور حتى رأينا في باريس فتيات
لهن معاصم ونحور، وقدود ونهود؟

ما الذى جدّ في عالمكم يا أهل باريس، لقد أثرتم أشجاني بما
عرضتم في هذا اليوم، وأنا رجل طالما نعت عليكم فقركم إلا من
بوادر الظرف والذكاء، وطالما أسيت لبؤس فتياتكم كلما تخطرت

فى شوارعكم عذارى فىنا وبرلىن ١
 أنى الحق أنكم تملكون مثل هذه الكنوز ؟ وهل فى منازلكم
 ومقاصيركم وملاهيكم أمثال لهذه الاجسام الفينانة التى ترد الحليم
 وهو غوى أثيم ؟ أنتم إذا تفهمون كما كان يفهم العرب والمصريون
 واليونان والرومان أن المرأة يجب أن لا يقل حظها من جمال الجسم
 عن حظها من جمال الروح ؟

ويلاه ! ما هذا الذى تراه عينى فى موكب الملاح ؟
 هؤلاء صبايا يخطر فى نضرة الزهر ، ورقة النسيم ، ولكنهن
 جميعا مسوقات للإعلان ! فكل سرب منهن قد قُرن الى سيارة
 مزدانة بالأزهار والتصاوير فى سبيل التنويه بالمتاجر العمومية ،
 فهذه سيارة اللوفر ، وتلك سيارة البون مارشييه ، وهاتيك سيارة
 السماريتين ، وهذه عجلة سينما مونج ، وتلك عجلة مسرح بيجال !
 كذلك يُعرض الحسن فى سوقكم يا أهل باريس ؟
 وقفت أتأمل هذا الحسن المعروض فى حشرات وزفرات ، لأنى
 أعلم أن كل معروض مَهين ، والحسن أجدر بأن يرفع عن مواطن الهوان
 ثم مرّ بالنفس خاطرٌ بدد من آفاقها سحائب الحزن : ذلك
 أن الجمال لئيم ، ومن ذا الذى يجهل لؤم أهل الجمال ؟
 الجمال لئيم ، لانه لا يؤمن بغير الجاه والمال ، ونحن قوم لم

نرزق غير الشعر والأدب والخيال ، فلا حظ لنا ولا خلاق في دولة
الجمال ، فليخضع الحسن صاغراً لأصحاب المتاجر والملاهي لانهم
يملكون منابع الثروة ، ولننظر اليه لاهين شامتين بمارزى به من
التسخير الشائن في شوارع باريس

أيها الجمال !

أنت لا تعرف من يعبدك ، ولكنك تعرف من يملكك ،
أنت لا تعرف من يسهر ليله ويشقى نهاره في التسبيح بحمدك ،
والثناء على الألائك . ولكنك تعرف من يملأ جيبك ثم يسوقك
في مدارج الذلة بلا رحمة ولا إشفاق

أنت لا تعرف من ينسج في سديك روائع القصائد والرسائل
ولكنك تخضع في ضاعة لمن يحوك لك مبهرج الأثواب ، فامض
في هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث يشاء اللئام من أبواب المال
أنت لئيم أيها الجمال ، ونحن مع ذلك نعبدك في لؤمك ، وكم
على ظهر الأرض من لئيم معبود !
أيكون معنى هذا أننا نعبد اللؤم طائعين ؟

هيهات نحن نعرف أن الحياة قست عليك ، ونعرف أن
المال صير الأردال آلهة يعبدون ، ومن أجل هذا نرحمك ، ونرثي
لك ، لأن من حقمك أن تعيش ، وعواطف الشعراء لن تعود عليك
بنفع جزيل ولا ضئيل

وهؤلاء الفرنسيون الذين عرفوا برقة الطبع معذورون حين
يرون الجمال سلعة تباع في الأسواق لأن الحياة قست عليهم كما
قست علينا وعليك ، فليغفر الله للجميع !

عدت إلى المنزل الذي أقيم فيه بعد شهود موكب الملاح ،
وكان هي أن أسأل معبودتي هناك كيف تخلفت عن ذلك الموكب
المشهود ، ولكنني رأيت في المنزل عجوزا فانية لم أرها قبل
ذلك ، فما كدت أفتتح الحديث عن الحسن حتى ابتدرتني قائلة:
أين أنت يا بنى من حقائق الحياة ؟ أتحسب باريس هي كل ما شهدت
ورأيت في الجران بولفار ؟ إن في باريس عالماً آخر : هو عالم الجدد
أو عالم الحزن إن شئت ، فليس في باريس غير قسوة الجدد
ومرارة الأحران

صدمتني تلك العجوز بهذه الكلمات ، غير أني تجللت واقبلت
على معبودتي أداعبها في نزق وطيش ، فعادت العجوز تقول :
دع هذا يا بنى ، واستمع الى حديثي فقد عركت الزمان ،
وعرفت ما ستعرف من احوال الوجود . ان الحسن الذى تتغنى به
باب من ابواب الشر ، وانه ليبنى على اهله قبل ان يبنى على الناس
واؤلئك الفتيات اللاتي سحرن لبك في موكب اليوم ستكون لهن
هموم واشجان (وعما قليل ليصبحن نادمين) فلا تحسب ان الدنيا

ستبقى على تلك البسمات ، أو سترحم سحر تلك العيون . إنها أيام
ثم تصبح كل جميلة سيدة مسئولة ، بين طفل يتدلل ، وزوج يتحكم ،
ودهر يطغى ويجور !

ثم زلقتى تلك المعجوز ببصرها وقالت : أمتزوج أنت ؟
فأجبت : لا ، يا سيدتى !

وهنا انبرت تلك الصغيرة الفتاة وقالت : اخذع سوانا يامسيو
مبارك ! لقد سألت عنك مواطنيك فأخبرونى أنك متأهل وأن
عندك خمسة أطفال ! فلا تقل لى خطيبتك بعد اليوم

فتراجعت وقلت : إنها دسياسة يامعبودتى ، وما أشنع ما يكيد

المواطنون بعضهم لبعض حتى فى بلاد الغربة !

ثم صعدت إلى غرفتى وقد اقتنعت أننى فى باريس أشد جنونا
من أهل باريس . فليرحم الله ذلك العاقل المجنون

٢٣ ابريل سنة ١٩٣١

قلب المرأة

فى أكثر الشوارع فى باريس توجد مقاعد عمومية يجلس عليها السائرون إذا أجهدهم المشى واحتاجوا إلى الراحة بضع لحظات. لهذا الغرض وضعت تلك المقاعد ، ولكنها تستعمل فى بعض الأحيان لأغراض ثانوية ، فمن العشاق من يستفيد من تلك المقاعد إذا جنَّ الليل وأسدلت عليها ظلال الأشجار . ومن الفقراء من لا مأوى له فيتخذ منها مأواه ويظل جالسا عليها بين النوم واليقظة حتى مطلع الفجر ، وليس له أن يرقد وإلا طرده البوليس . وقليل ما تكون تلك المقاعد موعداً للصديقين يفضلان أن لا يكون ملتقاهما فى قهوة تكافهما بضعة فركات على شرط أن يكون ذاك الصديقان من الجراة وفهم حقائق الواقع بحيث لا يهمهما الاتهام بالفقر والافلاس . فقد رأيت من الأساتذة المحترمين من ينتظرون زملاءهم على تلك المقاعد فى حين أنه يندران يوجد من الطالبة والشبان من ينتظرون رفيقا له هناك ولهذا المقاعد مظهر آخر من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء ، فعندها يلتقى العمال الذين امتد بهم الزمن وطالت عليهم الحياة ، ومع كل عامل كيس كبير فيه الخبز والجبن ، وفيه كذلك كأس

وسكين وشوكة . وبجانبه قارورة كبيرة فيها لتر من النبيذ الأحمر ،
ثم يجلسون فرادى وجماعات وقد طالت لحام ، وانبرت شعورهم ،
وعلبهم خرق بالية قدرة قد تكون كل ما يملكون لدفع غوائل
البرد الشديد

وما هي إلا لحظة يفتح العامل فيها كيسه ، ويكسر خبزه ،
ويملاً كأسه ، حتى تدور به الأرض ، وينقله الشراب إلى عالم
الاحلام . إذ ذاك تراه يسمر مع رفاقه في لطف ودعة وانشراح ،
كأنه رئيس الجمهورية ، أو كأنه لم يقض يومه في حفر الأنفاق ،
ونقل التربة . وحمل الاحجار .. ولبعض هؤلاء العمال خيالات
مساكين صح فيهن قول الشاعر

الكل ساقطة في الحى لا قطة وكل بائرة يوما لها سوق

فتراهم أحيانا وقد جاس الرجل الاشمط الى خليته الشمطاء
يبادلها أطيب الأحاديث واسكن للهرم والشيخوخة حكم قاهر في
مثل هذه الظروف ، فقد يندر أن يجرى الضم والعناق بين العشاق
الكهول مهما بعثتهم الراح ، وهى تبعث الأموات . وكثيراً ما ترى
رجلا وامرأة يتطارحان الشعر ويتحدثان عن كورنى وراسين
وموليير ، فتحكم بأنه كان لهما شأن في العالم المذهب ، ثم طاحت بهما
الأيام .

وما أنس لا أنس عجوزا فانية جاست الى رفيقها على مقعد

في ميدان (نوتردام) جلست قريباً منهما أسترقت السمع وأختلس بعض أطايب الحديث ، فلمحت المرأة مكاني وأقبلت تسأل : أنت اسباني يامسيو ؟ فقلت : لم تبعدي يامدام ، فقد كان لي في اسبانيا أجداد ، وأنا اليوم مصرى . فاندفعت تتكلم بحماسة ولباقة عن الفراعنة وتاريخ قدماء المصريين ، ثم سألتني عما أحفظ من الشعر الفرنسى فاجبتها بأني حفظت كثيراً ولكنى لا أستطيع في اللحظة الحاضرة أن أنشدها إلا مقطوعات قليلة ، وكذلك كنت أنشد البيت الاول من القصيدة وأقف فتمتها هي بلا تحبُّس ولا توقف كأنها تعرف من بحر . ولكن المسكينة كانت تخلط ذلك بخطرات من الجنون حملتني على الانصراف قبل منتصف الليل ، وكانت مستعدة الى المضى في الانشاد حتى الصباح !

وفي مساء الامس بجانب السين وبالقرب من قنطرة سانت جنيفيف رأيت الناس مجتمعين حول مقعد من تلك المقاعد ، فنظرت فإذا امرأة تناهز الخمسين لا يزال شعرها أصفر وفيه بريق ، وإن سقطت أسنانها جميعاً وظلت أشداقها خالية كثيرة التلايف . وهي واقفة يهاجمها الناس وتهاجمهم ، ولكنها تخلط جداً بهزل ، وتنتقل في حوارها من فن إلى فن . وكلما فرغت من شوط من أشواط لجأها مدت بصرها وعنقها وهي تقول : لقد دفعت ثمن

ماشربت . فماذا تريدون ! عجباً لكم ، لقد دفعت ثمن ماشربت ، أنا
أنا ، من دون أن أحتاج إلى مساعد ولا معين . فذكرتني بذلك
المتحذاق الذى كان يقول وهو من غروره فى مثل سكرها : مالكم
تكا كاتم على كتا كأ كئكم على ذى جنة ، افرنقوا . أو كما قال !
وفى لجة تلك الفورة كانت تتقدم المسكينة الى بعض الشبان
فتناوشهم فى شىء من اللطف ، فمنهم من كان يثبت ومنهم من كان
يفرّ ، وفى النهاية صمد لها شاب يقارب الثلاثين وأخذ يلاعبها فى
جدّ يشوبه هزل ، ومضت الملاحاة بضع دقائق والناس ينظرون
لاهين ضاحكين ، والمرأة تهزم حيناً وتنتصر حيناً ، وبين الهزيمة
والانتصار تستسلم الى أحلامها وهواجسها فتتغنى وتمايل وهى
تدمدم : لقد دفعت ثمن ماشربت فماذا تريدون ؟

وأعجب ما فى الأمر أن تلك المرأة كانت تتجنى على ذلك الشاب
فتذكر أنه من بلد منحط وضع وتصارحه بأنه من الجزائر . فكان
الفتى يشور ويقول : إن بلادى أقدم حضارة ومدنية من بلادكم ونحن
خير منكم . وكان ذلك يجرى ونحن نظن أن الأمر مزاح فى مزاح
وماهى إلا لحظات حتى اشتد اللجاج . وكانت المرأة تقول : أنا أرى
الجزائر فى وجهك . أنا أرى الجزائر فى وجهك ! ثم غلبت على
أمرها وفاضت عيونها بالدمع السخين

وفى سورة تلك المعركة تقدمت سيدتان محتمتان كل

الاحتشام حتى لنحسبهما من عقائل القاهرة ، وليس على وجههما
 أى أثر من آثار التلوين والتزيين ، إن كان بقى فى باريس امرأة لم
 تعرف تلوين الجباد والشفاه والحدود ، فنظرت فاذا تانك السيدتان
 بخطوان خطوات حذرة هيوب نحو تلك المرأة التى بدد رشحها
 الشراب وهما يقولان : هلمّ الينا يامدام ، أين منزلك يامدام ، يامدام
 أين تسكنين ؟ فى أى شارع ومن أى حى ؟ حدثينا ، أجيبي ، نحن
 معك حتى تصلى هادئة مطمئنة . . . كل هذا والمسكينة لا تعيرهما
 التفاتة واحدة لشغلها الشاغل بتلك الحرب الشعواء . وفى النهاية تغلبت
 السيدتان وانزعجتا المرأة من أنياب اللجاج والخصام ، ومضتا بها
 إلى حيث تقيم . . . فعدت أتأمل كيف يتكون قلب المرأة وكيف
 تحنو على بنات جنسها فى ساعات البأساء والضراء ، وذكرت أن
 باريس مهما استسلمت واستسلم أهلها إلى الترف والفساد ستظل
 تحفظ فى أعماقها بقايا الرفق والعطف والحنان ، وأن العواطف
 الانسانية ستبقى سليمة فى صميمها مهما طغت عليها المظاهر وأخفاها
 لتمدن المصنوع .

وذكرت تلك القصة القديمة التى تحدثنا أن ما كازم أنه
 يستطيع أن يحول الخصال والطباع من حال إلى حال بالتربية
 والتعليم ، وإن وزيره كان يخالفه فى ذلك الرأى ، ويحكم بأن الطبيعة
 هى الطبيعة لا تتحول ولا تتغير مهما لوّنتها ظروف الزمان والمكان

وكان من ذلك أن عني الملك بترية القط الذي كان يداعبه تربية خاصة حتى كان القط يحمل الشمعة ويقف بين يدي سيده وهو خاشع مطيع ، واستقدم الملك الوزير ليريه أن التربية والتعليم يغيران الطباع ، ولكن الوزير كان أدهى وأمكر حيث وضع في جيبه فأراً صغيراً ، فلما كانت المحاورة بينه وبين الملك بشأن القط الذي يحمل الشمعة ألقى الوزير الفأر على البساط ، فرمى القط الشمعة وانطلق يعدو خاف عدوه الذي أعدته له الطبيعة !

مضت السيدتان بالمرأة إلى حيث تقيم ، إن كان لثامها منزل تأوى إليه ، ولكن الحادث تفرعت عنه مشكلة : ذلك بأن الشاب الذي كان يلاحى المرأة عربى من الجزائر ، والمشاهدون للنزاع أكثرهم عمال فرنسيون ، والعربى الجزائرى في زعم هؤلاء منعط وضع ، فكيف يتسنى له أن يلاحى امرأة أثقلها السكر وفارقها الوقار ؟ وكذلك برز له اثنان يناوشانه بقارص الكلام ، وهو يلاحيهما ملاحاة الأكفاء ويهاجمهما بمثل ما يهاجمانه : ذم بدم ، وسباب بسباب . لكن هؤلاء جماعة وهذا واحد فرد ، وهم في بلادهم وهو غريب ، فوقفت أنتظر ما سيكون على أقف في صف ذلك العربى المغترب إن جد الجد واحتدم القتال . وما هي إلا دقائق حتى فاض الشر فتقدم الفتى إلى خصومه وفي عينيه نار تتقد وقال لهم : إن كنتم تريدون الحرب فانا عند ما تريدون

وفوق ماتظنون، وان كانت عزائمكم لا تتخطى السباب والفحش والاقذاع فأنا أنصح لكم بالاقتصاد فان هذا سلاح النساء والضعفاء

كنت أظن عند هذا أن ستقع الحرب بالفعل ، ولكنى لمحت الممال الفرنسيين تراجعوا وتقهقروا وقال قائلهم : نحن نلومك على أن تتعرض لامرأة في سن الخمسين ، هذا ينافي الذوق ، هذه وقاحة ، شاب مثلك لا يحسن به أن يهاجم امرأة في مثل تلك السن . أما الحرب فأنت تعرف اننا لا ننجن عنها . ولكن ... ولكن ...

وكذلك وقفت المشكلة عند هذا الحد وانصرف الفتي الجزائري وهو يقول : لعنة الله على الجبناء !

وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أذكر للقارىء أن العمال التونسيين والجزائريين والمراكشيين لهم في باريس نفوذ رهيب ، ولهم في كل حي عصابات تشبه عصابات الصعايدة في الاسكندرية ، أفأستطيع أن أقول بأن هذا النوع من التشرذم الخفيف يشبه أن يكون عدواناً بمدوان واحتلالاً باحتلال ؟

معرض الازهار في باريس

تفضل المسيو بلانشو فارسل الى دعوة الى حضور معرض
الأزهار في الشانزليزيه على شاطئ السين ، وكتب مع تذكرة
الدعوة كلمة رقيقة جاء فيها : « ولكن أسرع يا صديق فان الأزهار
سريعة الذبول » ؟ .

أى كلمة هذه؟ وأى قوة سحرية ثار بها قلبي حين قرأت هذه
الكلمة ؟ لقد كنت أعرف كما يعرف سائر الناس أن الأزهار
سريعة الذبول ، وكنت أعرف فوق ذلك أن هذا معنى قديم لم
ينفرد بآثاره كتاب الغرب وشعراؤه ، فقد أثاره أحد شعرائنا
الأقدمين حين قال :

عهدتك ذا عهدٍ هو الورد نضرةً وما هو مثل الورد في قصر العهدِ
ولكنى تلفت إلى قلبي أبحت عما كان ثار فيه من أمانٍ وآمال
كانت أندى وأعطر من الأزهار الغضة في أسحار الربيع ، ثم
ذبلت وذوت قبل أن تعمر أعمار الأزهار . فكم من وعد جذاب
اخلف قبل أن يمضى عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من لقاء حلوة
حسبتها مشرق وصال فكانت مغرب وداع ! وكم برق من بروق
الحب تألق ثم غاب ! وكم حلم من أحلام الصبا بددت غفواته

صروف الحياة ! وكم لحظة من لحظات العتاب شهدها القمر وغاب
عنها الرقيب ، ثم عصف بها الدهر فأدرجها في أكفان الفناء ! وكم
غفلة من غفلات العيش أويتُ إلى ظلالها في طمأنينة الطفل ثم
ثارت من حولها العواصف فألقتني في وادي الخطوب !

ويحك يا قاضي ! تعال أقاسمك العزاء . فقد كنت نعم الصاحب
ونعم الرفيق ، وإنك لتذكر كيف كنت أحنو عليك فأطوف بك
بين سعي الحب ونعيم الجمال ، وتذكر كيف بكيتك يوم قلّ خفوقك .
وخفّ وجيبك ، وإنك لأهل لذلك ، فقد عرفت بك معاني الحب
والعطف والشوق والحنين ، فلا أقف بجانبك أشاطرك ما جنت
عليك الملاحظة من ألوان العناء

« أسرع يا صديقي فان الازهار سريعة الذبول »

انى لأعود إلى هذه الكلمة فأذكر أن لى فى دنيائى معارض
من الازهار تختلف عن معرض الشانزليزيه على شاطئ السين : فان
هذا المعرض يقع فى أسبوع من بعض الفصول ثم يمضى وله فى
نفوس مشاهديه ذكرى طيبة ، ولكنها سريعة الزوال ، فقد تطفئ
عليها حفلة راقصة من حفلات المساء ، والازهار على جمالها لا يعرف
الناس مالها من الأنفس والأرواح ، فهم يشهدون ذبولها فى حشرات
خفيفة لا يمكن أن تقارن بحشرات من يشهدون أنات العليل . والازهار
أضعف من أن تهتم بقبلات النسيم ، وضمت التوديع ، وهى بعد

ذلك حُسنٌ مكررٌ تجود به الطبيعة ويسمح ببقائه الزمان .
أما معارض الأزهار التي يسوقها إلينا الحب، وينظّم أحوالها
وعيونها في أودية الذكريات فهي فُرَصٌ تعرض في جميع الفصول ،
ومن عجب أنها تنكثر في فصل الشتاء . وهي معارض تثير جوى
القلب لأنها في الأغاب تقيم دقائق أو لحظات ثم تغيب فلن يقال
فيها « يقام معرض الأزهار من ٢٦ أ كتوبر إلى ٣ نوفمبر » حيث
تمكن المشاهدة مرة وثانية وثالثة ، كلا فقد تكون لحظة مخطوفة في
المثرو ، أوفى المسرح أوفى الملعب ، ثم لا يمكن بعد ذلك قرب أو لقاء
ولهذه الأزهار أزهار الحسن والصباحة أنفس وأرواح ،
فهي إلى نفوسنا أقرب ، وإلى أرواحنا أسرع ، وقد تتلاقى النظرتان
فيكون فيهما من التناجي والتشاكى والتعاطف معان دقيقة
تلقيا العيون وتفهمها القلوب ، ثم يفترق المتلاقيان وقد نهلت
قلوبهم من نعيم الحب في حال لم يقع فيها تعارف ولا يُرجى معاد ،
إلا أن يقدر التلاقى في عالم الأرواح

وأنت في معرض الأزهار قد تشتري لوحة فنية تذكر بها
ما يفوت من أريج الزهر النضير ، ولكنك في معارض الجمال
لا تملك شيئاً من ذلك ، أو لا تملك إلا الحشرات الباقية في حنايا
الأحشاء . . وفي معرض الأزهار قد تقول : إلى اللقاء ! لأن كل
وردة وكل بنفسجة ، وكل قرنفلة تلهي النفس عن نظيراتها في عالم

الأزهار ، ولكنك في معارض الجمال لا تقول : إلى اللقاء ! لأن النفس التي ألفت دراسة الجمال تعرف أن كل وحدة من وحداته لا تغني عن نظيراتها في عالم الجمال : فلكل عينٍ سحر ولكل ثغر فتون ومهما تعشق الناس الزهر فلن يأرق لهم من أجله جفن ، ولن يقض لهم مضجع ، لأنه إن مات فسيبعث من جديد ، أما الجمال فلم مشرّد يذهب فلا يعود . ولقد أعذر من قال قالوا عشقت فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء إن الذي خلق الملاحه لم يشأ إلا شقائي في الهوى وبلائي^(١)

معذرة إليك أيها القارئ : فقد شغلتك بنفسى وإني لعائد إلى موضوع الحديث

أول ما يلفت النظر في معرض الأزهار أنه أقيم في اللحظة التي يفصل فيها بين الخريف والشتاء . فكأنه تذكرة لما مرّ من أيام الصحو ، وتوديع لآيام الشعر والخيال . وكأن الذين أقاموه أرادوا أن يحشروا في صعيد واحد ما تفرق من بقايا الزهر ليستطيع شعراء الطبيعة وعشاقها أن يصافحوها للمرة الأخيرة من هذا العام على شاطئ السين

وهو كذلك دلالة على مهارة الجنان الفرنسي ، فهو يعرف كيف يفرس الأزهار وكيف يعدها لمواجهة الزائر في يوم

معلوم . وغرسُ الحدائق وتنسيق البساتين فن من الفنون العالية التي يشغل بها أصحاب الأذواق في الغرب . وحسب القارىء أن يعرف أنه كان في هذا المعرض مئات من الكتب القيمة في تربية النحل والطيور والأزهار والأشجار ، وليس من الحرج في شيء أن أقول إن ما ألفه الفرنسيون في هذا الباب يربى بكثير على ما ألفته أى آية من أمم الشرق الأدنى في أهم ما يعينها من الآداب في نحو قرن من الزمان . وليسمح لى أن أقول إن كلية الطب المصرية لم تنتج في نيف ومائة عام عشر ما أنتجه البستانيون الفرنسيون في نحو عشرة أعوام

ولست بهذا أريد الغرض من الجهود المصرية ، ولكننى أريد أن أوقظ من طال عليهم السُّبات ، فقد أصبح من العار أن نعلل أنفسنا بأننا أمة صغيرة العدد وأنه يُكتفى منا بالقليل . هذا خطأ فإن الجمهور المصرى كاد يقارب نصف الجمهور الفرنسى . على أن الأمم لا يقاس جهدها بالعدد . ولكنه يقاس بالحذر والحرص واليقظة والطمع في امتلاك نواصى المجد . ونحن نملك أخصب الأراضى في العالم ، ولكننا حين نقيم معرضا للأزهار يكفيناهو من أبهاء فندق سميراميس ، على أن فينا مع الأسف الشديد زهادة تامة في استغلال الأرض ، ولا نكاد نعرف من أنواع الفواكه والأزهار والبقول غير أنواع معدودات ، ولا

يهوى الى مدرسة الزراعة إلا الطلبة الذين عُرفوا بالتخلف في الحياة المدرسية، مع استثناء من أعرف من الشبان الأذكاء، وفي هذا دليل على أننا نُقبل على الطبيعة بقلوب تُعوزها الحرارة وسواعد ينقصها النشاط. والشعر العالى الذى يوجد في عوالم الزراعة بعيد من أذهاننا، فقليل من طلبة الزراعة في مصر من يدرك أن ليلة مقمرة في سهول الريف أحفل بالشعر والموسيقى والغناء من ليلة صاحبة في ملاهى القاهرة. وما أريد أن أزيد !

يرى الزائر أول ما يرى في ذلك المعرض أودية مهندمة من الأشجار المثمرة ولكل طائفة منها وضع خاص يروع الذوق وهى تريك مبالغ مهارة الانسان في تهذيب الطبيعة، وكيف يمكنه أن يروض الأشجار على مساهرة الأوضاع الهندسية بحيث يصبح الشجر مخدع زينة ومجنى فاكهة. والقوم هنا يريدون أن يملؤوا الصور المادية بالحقائق المعنوية، ففي كل شجرة سرٌّ، ولكل حوض روح

وقد صُفّت الفواكه من كل نوع على جانبي كل ممر من ممرات المعرض بطريقة مغرية فاتنة تقنعك بأن من الضعة أن يعيش الانسان على الخبز والماء، على حين أنه لو جدَّ ونشط لعرف كيف يحيا من فضل ما تنتج الحدائق والاعناب
وفي كل ركن من أركان المعرض تقوم مدارس صغيرة تعلمك

كيف تصنع بنفسك مربيّات الفواكه ، وكيف تربي النحل والطيور
 وكيف تبقى الزهر آفات الجو ، وكيف تحرث الارض بمحاريث
 دقيقة ، وكيف تجنى ، وكيف تحصد ، وكيف تنقل الماء إلى
 المساتل والاحواض

وكم تمنيت لو أتيح لي أن أرى كيف صُفّت أزهار المعرض، فإنها
 وضعت بحيث يظن الرائي أنها هكذا خلقت ، وأنه لم يقم بتنسيقها
 إنسان ، حينما تلفت فسهول مبسوطة قام فيها البنفسج والقرنفل
 والشقيق ، أو نجوم عالية تسامت إليها الأزهار فكستها في
 رفق وحنان

وما أنس لأنس كيف لاحظت أن الحظوظ تصيب الأزهار
 كما تصيب الرجال ، فمن الأزهار ما كان حظه ان لا لمس الارض
 فوجد بذلك سبيلا الى النضرة والتماء ، ومنها ما كان حظه أن يوجد
 في تربة صناعية مجتلمبة فكان يجاهد في مطاردة الذبول .

كان معرض الأزهار شعراً كله ، وما كان ينقصه إلا الندى
 فقد وضعت من فوقه سقيفة من الزجاج حالت بينه وبين أنداء
 السماء: فصار بذلك كالعروس بين الستائر والحجّال

ولقد رأيت أن أتأمل ما يصنع المشاهدون في مثل هذا الجو
 العطر ، ورأيت الرجال يكثرون فحس الاشجار المثمرة ويجمعون

ما تنأثر حولها من الاعلانات ، ويوغلون في الأبراج المشيدة لتربية النحل والطير ، ويقبلون على الكتب التي وضعت في أروقة المعرض . أما النساء فكن يجتمعن حول الفواكه في حماسة دونها حماسة الفتیان في تعقُب أسراب الفتيات ، وكن يكثرن فحص الزهريات وأدوات صنع المربى . ومنهن من كانت تقبل على مشاهدة ما كان هناك من صغار التماثيل

وقد رأيت ثلاثة رجال يدرسون المعرض بعناية فسألتهم السماح بمصاحبتى لهم لأرى كيف يدرسون وكيف يفهمون ، فانا رجل فلاح ولى حديقة مشجرة ، ولكن الجنان المتواضع الذى أقمته فيها يستفيد من غربتى فيقيم المواشى فى جانب ويبذر البرسيم فى جانب ! وكذلك يكون الفلاح ابن الفلاح

ولكننى لم أستطع الصبر أكثر من ساعة . ثم انصرفت عنهم بعد التحية والثناء ، وعدت أتأمل وحدى خمائل الأزهار . وبعد لحظة عدت على نفسى باللائمة . ولكنى اقتنعت بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها إلا للرجل المنفرد ، وهى أشبه بالغواى تنفر من الصاحب والشريك

وقد أعيانى التعب من فرط التأمل ، فاكثفت فى النهاية بنظرة باكية ودّعت بها الزهر المهدّد بأرواح الشتاء ، وخرجت أتأمل المعارض الحية فى أحياء الشانزليزيه بقلب مقسّم محزون

وإني لأُكتب هذه الرسالة في نفس اللحظة التي تقوَّض
 فيها خوائل المعرض ، وأُكاد أشهد من وراء حجاب كيف يُقبل
 العمال بسواعد قوية فيجمعون الأزهار أ كداساً أ كداساً بلارحة
 ولا حنان إلى حيث تُلقى ذابلةً في تيار السين

فإليك يا مرتعَ النواظر بالأمس أقدم التحية ، تحية شاعر
 مغترب ، مفطور القلب لمصرع الزهر النضير ، ولو ملكت في
 تكريمك غير هذه السطور لقدمت نفسي فدية خالصة في عالم
 قلّ فيه من يفدى الجمال

باريس في أول نوفمبر سنة ١٩٣٠

من غربة الى غربة

بين القاهرة وباريس

صديقي فؤاد

كتبت إلىّ تقول : « في مصر فراغٌ لغيابك . وفي قلوبنا شوقٌ لحديثك » فهل لك أن تيرني قابك لحظة واحدة لأحدثك عما فعل في نفسي خطابك الجميل ؟

إنك لتذكر كيف كنت أعيش في مصر، وتذكر كيف كانت تمضي الأيام والشهور ولا تُتاح فرصة صغيرة أتحدث فيها إلى صديق أو أذهب إلى حفلة ساهرة ، أو أشهد منظراً من مناظر اللهو والطبيعة على ضفاف النيل . وأصدقائي الذين يرسلونني في باريس هم أنفسهم الذين كنت أرسلهم في القاهرة على قرب المزار، يوم كانت أعمالي لا تسمح بملاقة من في طريقي منهم بالقاهرة أو من يجاورني في مصر الجديدة ، ويوم اطردت الشواغل اطراداً مزعجاً لا يترك فراغاً في صباح ولا هدوءاً في مساء .

ولكن هل من الحق أن ضرورات العمل والجدهى وحدها

التي كانت تحبسني في قفص من حديد ؟

ما أظن ذلك ، فقد كانت هناك ساعات مختلصة أقضيها على

الشواطىء ، وفى الحدائق ، وكانت هناك لحظات يومية أقضيها فى المترو صباحا ومساء ، وكان فى هذه وتلك ما يكفى لمتعة النفس ، وطماً نينة القلب ، وراحة الروح . فهل أجدى ذلك على شيئاً ؟ وهل غير من قلقي واضطرابي ؟ وهل نقل نفسي إلى قرار أوسكون ؟

الحق أن المشكاة الباقية الخالدة هى أزمة القلب . فاني لا أعرف أشقى من ذلك الصاحب الذى يسكن بين الضلوع ، إنه صاحب ولكنه فى الوقت نفسه عدو وحبيب ، قد سعدت به وشقيت ، ومتّ وحيت ، وأنا به بين حزن دائم وفرح مخطوف . ولا أستطيع أن أصف لك كدر الساعات التى كنت أقضيها على شاطئ النيل فى هدآت المساء ، ولا تستطيع أن تقدر كيف كان انقباضى وضجرى من مناظر الرائحين والرائحات ، والغادين والغاديات ، على ذلك الشاطئ الخالد الذى شهد ماشهد من وثبات النفوس وخفقات القلوب فى مدى ما لا يعلم إلا الله من طوال الأجيال فهل يمكنك أن تقدر أن ذلك كان مرجعه إلى خذلان فى الحب أو إخفاق فى المجد ؟

أنا لا أحسب ذلك : فإني رويت من الحب ريثاً لا ظماً بعده ، ولم أترك لغيري غير أو شال ، وكلما أرسلت الخاطر لأشهد ما كان من غفلات الصبا وغوايات الشباب عدت وأناقير العين ، جذلان الفؤاد

والمجد؟ أنا لم أخفق في سبيل المجد يوماً من الأيام حتى أقول
مع الطغرائي .

ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتني أناسٌ كان شوطهم و وراء خطوى لو أمشى على مهل
وأوضح من ذلك أني أخطو في سبيل العلم والأدب خطوات
هادئة طبيعية ، لم يلبها حقد ، ولم تشعها منافسة ، ولم يجر في
خاطري يوماً أن أسرع الخطأ لأسبق هذا أو ألق ذلك . وما
شعرت — يشهد الله — بالحمد على متقدم أو الشماتة بمتخلف
وقد تدهش إن حدثتك أني أنظر إلى الشهرة وبعد الصيت
بعين يسودها الحياء منذ جئت إلى أوروبا في سنة ١٩٢٧ فوجدت
الدكتور سنوك قد نشر عني رسالة باللغة الهولندية ولقيني المسيو
ماسينيون فهأنى وأخبرني أن الدكتور سنوك كلما يفعل ذلك ،
فوقفت أختبر نفسي وأمتحنها لأعرف إلى أي حد وصل بي
الارتياح ، ثم لم أجد إلا فراغا مطلقاً . وفي كثير من الأحيان يلقي
أفراد من الأجانب الذين يهتمون باللغة العربية فينشدوني شعري
فأقف أتأمل أثر ذلك في نفسي ثم لا أجد أيضاً إلا فراغا مطلقاً .
وقد اقتنعت بأن الصيت والشهرة لا يعدوان أن يكونا من الخرافات
فإنه لا أثر لهما في نفسي وأناحي ، فكيف أهتم بما يكون لهما
من الأثر بعد الممات !

أضف إلى ذلك أنى مقتنع بأنه لا يشقى نفسه فى سبيل الشهرة والصيت غير صغار الناس ، فهناك أفراد لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا حيث ينتظرون الجزاء . وكم شهدت من أناس يقتتلون حول الشهرة ، وإن الرجل منهم ليصفرو وجهه وتأخذ الرعدة والقشعريرة حين تقع عينه على كلمة هوجم بها أو لوم وجهه إليه . وكم رأينا من أذلاء لم يذلمهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال هذا مؤلف بارع ، وذاك كاتب مجيد ، وذاك شاعر بليغ ! وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع : فلتعرف إذن أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : اصنع معروفًا واكتب لنا كلمة فى تقريل كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود . ومنذ ذلك اليوم أنظر إلى تقريل الكتب نظر السخرية : إذ أعرف أن أكثر التقاريل من وضع المؤلفين

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وثايل الاهتمام بما يوجه إلى من نقد ، وإنى لأعرف أن هناك ناسًا ينبجونى كلما ذكرت عندهم أو جريت فى خواطرهم كما تذبح الكلاب القمر حين ترى خياله على صفحات الماء . وفى يقينى أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التي لا تفتأ تغزو قلبي
وتفتك بأحشائي ؟ وما مصدر تلك الأشجان التي لا أتذكرها
إلا فزعت يوم كان المترو يشارف محطة الحمامات ثم يغادرها إلى
كوبرى الليمون ، وأروع ما كنت أقاسى في تلك المنطقة كان يقع
في الاحظات الدامية لحظات الغروب حين تواجهنى الشمس بتسليمة
التوديع ، والشفق من حولها يشبه الخدود الداميات ، إنها لحظات
مفرعة مخيفة كان قلبي يجتازها في وجيب وخفوق ، وكنت فيها
أشعر الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجدٌ وإحساس لا قوافٍ
وأوزان .

ولست تلك الاحظات على قسوتها بأقلَّ خطراً من الساعات
التي أقضيها بعد العشاء على شواطئ السين في هذه الأعوام ، وإني
لا أشعر أن هذا النهر يدرك ما بينى وبينه من علائق وصلات : فأنا
في باريس غريب ، وهو فيها كذلك غريب ، فقد يندر أن يرى هذا
النهر ساهراً غيرى يمشى وحده في سكون الليل من قنطرة إلى قنطرة
ومن شاطئ إلى شاطئ كأنه موكل بمراقبة السفن وعدّ الأمواج !
وما أحسب نهر السين رأى قبلى من يتلمس روحه وأسراره
فيصنئ إلى خريره في قنطرة أوسترليتز ثم يسافر لسمع هديره
في رُوَان . على أنني لم ألق منه شيئاً من الجزاء : فقد كنت ولا أزال
أسيره بنفسي حيرى وقلب محزون

ماهى إذن أسرار الغربة التى أعانها فى القاهرة وأقلسها فى باريس؟ انها لا ترجع إلى خذلانٍ فى حب ولا إخفاق فى مجد، أنظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء؟

اللهم غفرًا، فأنا لا أحفظ عن أصدقائى غير الجليل . ويضاف إلى ذلك أننى لم أقدر فى حياتى أن الصداقة مما يوضع فى موازين المنافع، إنما الصداقة علاقة روحية تُبنى على أساس الصدق والاخلاص ونسيان النفس ، ولم يقع ما يكدر صفوى غير أحداث صغيرة مرت بالقلب ومضت كما تمضى آثار النسيم على وجه المحيط ، وكان مبعث الأسى أننى كنت دائماً أفترض أصدقائى من الملهمين الذين يعلمون ما كان وما سيكون من أسرار النفوس . ثم كنت أتلفت فجأة فأجدهم كسائر الناس يستمعون للغو ويصدقون الأراجيف . هنالك كنت فأحزن وآسى ، ولكن حزنى ما كان يقع لآتى علفت بأصدقائى أملا ضاع، إنما كان حزنى وآسائى لشعورى بالغربة فى عالم الأرواح ، فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغى على الأقل أن نُوفر عليه أتعاب المحاماة فى الدفاع عن نفسه لدى الأصدقاء ، وأفهم أن الصديق لا ينتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه ، إن كان له هفوات، بل يجب أن تعى عينه وتضمّ أذنه ان وجد ما يوجب تعقب الأصدقاء المختارين

وأشد ما يزعجنى أننى مريض بالوفاء، وأرى من النذالة والخسة وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تغير تبعاً للأيام

والفصول؛ ويتخذ بعضها للأفراح وبعضها للأحزان، وأربأ بنفسى
أن يقال: هذا صديقٌ غدرٌ وصاحبٌ خان !

ويعز على أن يحرم صديقى من مناصرتى ووفائى ، ولكن
كيف وأنا رجل لا عملى فى الحكومة ولا خال ؟ ألا فلتعلم أنى
أعتقد أن البر لا يوجد إلا حيث أوجد ، وأن الصداقة لا تكون
إلا حيث أكون .

وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هى النعمة الباقية ،
والعز المقيم ، من أجل ذلك يعز على أن يحرم صديق من وفائى
وإن تغير وحال . وكم حملنى الواشون على مهاجمة بعض الناس ، ثم
عز على أن أكون أقل رفقا وعطفا من كثير بن عبد الرحمن
إذ يقول :

وما أنا بالداعى لعزة بالجوَى ولا شامتٌ إن نعلُ عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبايتى بعزة كانت غمرة فتجلت
وإن تهياى بعزة بعد ما تخايت مما بيننا وتخلت
لكالمترجى ظل الغمامة كما تبوء منها للعقيل اضمحلت
كأنى وإياها سحابة ثمحل رجاها فاما جاوزته استهات
وعسالك تذكر أنى كنت فى صف الحزب الوطنى حين كان
يهاجم سياسة سعد باشا طيب الله ثراه ، ألا فلتذكر أن حماسى
كانت تفتقر فى مهاجمة ذلك الرجل حين ألح فهمه للصداقة وحرصه

على الأصدقاء ، فقد كنت أرى في ذلك الجانب كل معاني النبيل
و جميع دلائل الرجولة والإخلاص ، فان الرجل الذى لا يخلص
لصديقه لا يعرف كيف يخلص لوطنه ، لأن العواطف تشابكة
الأصول والفروع يمدُّ بعضها بعضاً . وقد عابوا عليه رحمه الله أنه
صرح بحرصه على إظهار الأقرباء . وأنه قال لو استطعت لأقمت
دولة زغلوية لفظا ومعنى ودماً . وفاتهم ما فى الصراحة من
معاني الشمم والشجاعة والإباء فان كل رجل فى الدنيا يتمنى
لو استطاع أن يكون من أقربائه أمةً موحدة ، ولكن أين من
يجد من قوة نفسه وصراحة يقينه ما يساعده على مثل ذلك التصريح
والرجل لم يكن طاغية حين قال ما قال فانه علل فكرته تعليلا
يقره العقل والذوق حين صرح بأنه يقرب من يشق به ويعتمد عليه
والذين عابوا على سعد باشا إظهاره لأصدقائه وأقربائه لم
يستطيعوا إقناع أحد بأنهم بررة أطهار . فقد كانت لهم مآرب
وأغراض ، ولم يكونوا يؤثرون من يؤثرون وفقاً للنزاهة
الأفلاطونية . بل التبس عليهم الأمر فكانوا لا يفرقون بين
العدو والصديق ، لأنهم لم يصادقوا غير أنفسهم ومنافعهم ، ولم
يقربوا من أحد أو ينفروا منه إلا وفقاً لما لهم من كيد مدفون ،
أو حقد مكنون

وأعود إليك يا صديق فأخبرك أن الأزمة الباقية هى أزمة

القلب: فقد فهمت كل شيء ، وعرفت كل شيء ، وبقي قلبي كالغابة
المجهولة في ضمير الظلماء ، فان قلت لك إني أشكو خيبةً في الحب
أو إخفاقاً في المجد ، أو غدرًا من الاصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها
مخرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول ، وأكاد أحسب أن
الناس يتخذون من الحب والصدقة والمجد علامات لقلوبهم
وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الاحزاب السياسية
والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات
وأنا لم أنجح في شيء من ذلك ، لان استقلال إرادتي حال
بينى وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الاحزاب:
فأنا عند أنصار الحزب الوطنى شعبى^١ يناصر الوفديين ، وعند
الوفديين خيالى^٢ يتشبث بالملاحقات من زيلع إلى جغبوب
وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر^٣
عند الفجار ، وفاجر^٤ عند الابرار ، فأنا فى كل بيئة أجنبي^٥ وفى
كل أرض غريب
وهنا يكون الفرع الاكبر إذ أعود إلى قلبي وجها لوجه ،
وهو قلب. خطر. والموت عندى أهون من مواجهة ما فيه من أهوال
وخطوب فليت شعرى أين المفر؟ ومتى يكون القرار؟
ويرحم الله المتنبي إذ قال :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة ؟ وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يُسمى

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

• ذكرى الزهراء

كتب مراسل (الأُمى دى بيبيل) فى مدريد رسالة عما شاهده فى معرض الفنون هناك ؛ وقد دارت بينه وبين أحد الاسبانين محاوره عن مناوشات المكيين والجمهوريين فجاءت فى حديث الاسبانى الكلمة الآتية :

« ولكن برشلونه ليست كل اسبانيا وليست قهوة الزهراء كل مدريد »

قهوة الزهراء ! أى ذكرى تثيرها كلمة « الزهراء » من معالم الفردوس الاسلامى المفقود ! ومن العجيب أن كلمة « الزهراء » فى نطق الفرنجة أوضح من كلمة « الحمراء » عند بعض المصريين الذى يسمون بعض معالم الغناء فى القاهرة والاسكندرية « الهمبرا » مجازة لتحريف الاوروبيين ، وكان أولى لهم لو نطقوها « الحمراء » ولكنهم لا يعرفون !

لقد مضى كثير من اليهود القديمة ، والناس يذكرون فقط أن ملك العرب بالاندلس كان عهد عظمة للاسلام ، ولا يذكرون بجانب ذلك أنه كان متنفساً للشرق كله بدون نظر إلى الديانات والاجناس ، فمن لأهل الشرق من يغنيهم هذا البيت الحزين :

لم أبكِ أطلالك لكتنى بكيت عيشى فيك إذ ولّى

أيام البحر ولياليه

باريس في ١١ يونيه سنة ١٩٢٨

صديق . . .

أيدهشك — وقد تغير ما بيني وبينك وعصفت العواصف
بذلك الود الوثيق — أن أكتب اليك من هذا البلد النائي البعيد؟
لا تدهش يا صديقي ، فأنت تعلم أنني رجل لا أستطيع الحياة
إلا إذا وجدت قلباً يخفق بجانب قلبي ، ولست والله بناسٍ أيامك
وعهودك : حين كنت تفيض بالبر وتذخر بالحنان . واني لعاذرك
فيما اجتريحت من القطيعة وما جنيت من التغاضي ، فقد تغير أو
كاد من كنت أحسب أن ستغيب البهار وتزول الجبال ، قبل
أن يغيب الود من صدره ، وقبل أن يمر بباله أن ما بيننا عرضة
للزوال

واني لأحمد الله على أن وجدت أصدقائي لا يعدمون المعاذير
حين يقدمون على هدم ما شئت في بنائه من صروح الوداد ، فان
أشد ما أخافه وأخشاه أن يتبينوا أنهم أساءوا إلى غير حق ،
فيجدوا في قلوبهم مسَّ الحزن ومرارة الندم الوجيع ، واني

ليسرني أن تهدأ حرارة الاخلاص في صدور الذين أعزهم ، وأحنو عليهم ، وأضمر لهم أجمل الود وأصدق الوفاء ، فليس يرضيني أن يقاسموا الذي أقاسى ، وأن يديتوا معذَّبين بفضل ما قدموا من صدق الولاء ، فقد علمتني الأيام أن الاخلاص قد يكون جريمة ، وأن الوفاء قد يفتح لصاحبه باب الخيبة والحرمان

فإن كنت في ريب من ذلك فاذكر كيف يؤوّل النبل وكيف تُفسّر السماحة عند بعض الناس ، فقد رأيت من يعد الحياء ضعفاً ، ومن يرى ضبط اللسان حَصراً ورِعياً ، ومن يضيف المجاملة إلى التملق والرياء ، ورأيت من يحسب أنك لا تفى له — حين يكون الوفاء من سجايك — إلا لأنك ترى أسباب رزقك تحت رحمة رضاه ، وبفضل هؤلاء فهمت لأول مرة قول أبى فراس :
وفيتُ وفي بعض الوفاء مَذلةٌ لأنسانةً في الحى شيمتها الغدرُ
ومالى أبعد وفيك وحدك أصدق الشواهد وأصرح الامثال ،
أفتستطيع أن تخبرني ماذا تملك من ضرى ونفعى وأنا أحفظ عهدك ،
وأنسى غدرك ، منذ عُقدت بيننا أو اصر المودة طَوَالَ ما لا أدري
كم أعدّ من السنين ؟ انك تعرف انك لا تملك لى ضراً ولا نفعاً ،
ولعلك تجدد كثيراً من الجهد والمشقة حين تحاول تعليل ذلك
العطف من رجل لا يخشى بأسك ، ولا يرجو خيرك ، ولا ينتظر
أن تغير الايام من طبعك فتكون من الصادقين

وكل ما أرجوه أن لا تذهب بعيداً في جورك وظلمك ، فان
لك ساعات من النحس تحملنى فيها عامداً على مخاشنتك وتكاد تفلح ،
ولك الويلُ إن أفلحت في إثارتى إلى سخطك ، فإن لحظة من بوارق
الغضب إن غضبت لكافية لسحقك ومحقق وتبديد ما انتظم من
أحلامك حين آثرت أن تجنى على من لا ذنب له ولا تفريط فيه ،
اعتماداً على أنك فلان بن فلان!!

وما أنس لا أنس تلك اللحظات المظلمة التى تثور فيها نفسى
وأكاد أهُمّ بالبطش بك وأرمى بأيامك وعهودك فى هاوية من
العقوق ، ثم يترأى وجهك المشرق وكأنه لبغية سماء شاتية مثقلة
بالسحب السوداء ، أو قلب جاحدرماه الغى بأوزار الضلال !

ومهما يكن من شئ فقد ابتليت بك فى دنيائى ، وأبى وفائى
إلا أن أظل أسيراً يمتك الحرية ويفزع من التفكير فى يوم
الخلاص ، فاستمع إذا حديثى إليك فقد يكون فيه عزاء لقابى أو
عطف لقلبك ، وسبحان من لو شاء لفجر الصخر بالماء النير

خليت مصر منذ أسبوع وخليت ورائى فيها هوماً مريرة
أثقلت كاهلى وأمضت عيشى وراضتني بمد الجموح ، وكنت
أحسبني أقسى وأصلب من أن أعترف بأن فى الحياة غيوماً تحجب

شمس النعيم من حين إلى حين ، ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف
 عيني لفراق الاسكندرية ولم يخفق القلب لفراق الوطن العزيز
 ومرت بالنفس طوائف من الذكريات الحزينة تمثلتُ فيها كيف
 شقيتُ بأهلي وأصدقائي ، وكيف ضنَّ وادى النيل بنفحة من
 نسيمات البر على من يشقى ليسعد ، ومن يفنى ليقدم له أسباب
 الخلود . ثم أخذ قلبي يذخر ويفيض بألوان من الحزن الثائر العنيف
 إلى أن غابت معالم الاسكندرية وشيعتها بهتاف الوداع ، وكم في
 الدنيا من ظالم محبوب !

ثم ماذا ؟ هذا جرس يصلصل ، وهذه أفواج من المسافرين
 تمضي إلى الغداء ، وأنا كذلك أمضي إلى حيث يمضون بين الفتور
 والنشاط ، ولكني ألفت منذ أزمان أن أهتمّ بغذاء عيني وقلبي وروحي
 ووجداني ، قبل أن أهتمّ بما تطالب الأمعاء ، فأخذت أترقب وأنتظر
 حتى أعرف من جليسي المختار على المائدة ، ووقفت بعيدا ادرس
 الوجوه والشمائل ، وأتعرف مواقع الحسن في اعطاف من تقل
 السفينة من أسراب الأطباء ، وما هي الالحة حتى وقع طائر قلبي
 على فتاة جسمها ريان فينان كأنها من صبايا دمياط ، وبالوعة القلب
 من صبايا دمياط ! وما كادت تختار مكانها من المائدة حتى رأته
 أمامها وجها لوجه وكأننا رفيقان يلتقيان

لاتسل كيف طارت هموم صدرى في تلك اللحظة ، وكيف

محاذك الوجه كل ما خُط بقلبي من سطور الشجون ، وكيف
 تناسيت ما رمانى به اصدقائى من سهام العقوق ، وكيف اقبلت
 أسألها من هى ، وفى اى عش درجت ، ومن أى نبع رويت . وقد
 عرفت انها فرنسية نزلت إلى مصر ، فأقسمت لها ان خصوبة
 جسمها هبة من هبات النيل ، وان مصر لذلك جديرة بالتقديس
 ثم كانت فى البحر ليال وايام استطعت فيها ان استبد بذلك
 الغصن الرطيب ، واستطاع شيطاني ان ينفرد بها فى ساعات الرقص
 فلم يخاصرها أحدٌ سواى ، ورأيت بعينى كيف يكون الحب
 والعذاب فى حياة قصيرة لا تزيد عن خمسة ايام فوق بحر الروم
 ولكن أتدرى ما الذى وقع بعد ذلك ؟ لقد وقع ان اخذنا
 نتناجى فى اليوم الخامس ، ونراجع ما كان من حياتنا وما نرجو
 ان سيكون ، فعرفت ، ويا هول ما عرفت ، انها ليست حديثة
 العهد بالنضال ، وانها صرعت بمصر كثيرا من النواب والوزراء ،
 فانقبض صدرى ، واستطير فؤادى من الفزع . فجذعت وقالت :
 ما خطبك ياسيدى ؟ فأجبت فى هدوء مصنوع : لا شئ يا مولاتى
 ولكن لا يرضينى فى هوائك ان اكون الشهيد الأخير ، وان كان
 فى ميدان الضحايا متسع للجميع !

أرواح الذكريات ؟!

صديقي . . .

أنت تحيا حياة طيبة في دنيا فاتنة مملوءة بالرغد والرفاهية وطيب العيش ، ولك من شبابك ومالك وجاهك ما كان لعمر بن أبي ربيعة ، طيب الله ثراه ، ومنحه في أخراه ما منحه في دنياه ! لذلك يقل اهتمامك بالذكريات ، والتطلع إلى مافات . أما أنا فرجل مكدود لا يتاح لى طيب العيش إلا بمقدار ، لذلك تراني أبديء وأعيد مالمقيت من الطيبات في اللحظات الخالية ، ولا أقول في الايام الخالية ، لاني لا أذكر يوما طاب لى كله ، ولا اذكر انى عرفت كيف يكون الصَّبوح والغُبوق في يوم واحد أو ليلة واحدة . ولعل هذا هو السر في أنى أعرض أحيانا لبعض الجوانب الحسية من معُة الحياة فأصفها بِشَرِّهٍ وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ما سيلقى من طيبات دنياه !

فلا تعجب إذن يا صديقي إن رأيتنى أعود إلى ماضى من أياى فأتدكر ما وقع فيها من الغفلات الحلوة العذبة التى يمر طيفها بالقلب فيبدد مافيه من سحِب الهم والاكتئاب . وعساك تذكر تلك

الايام العصيبة أيام الدراسة حين كنت توصيني بأن أضع في كل ركن من أركان غرفتي خريطة وافية لأجزاء العالم القديم والجديد حتى تنطبع في ذهني صور العالم بمجباله وأنهاره وبلدانه ، وحتى لا يحد أستاذنا اسماعيل رأفت بك ، يرحمه الله ، مقتلا يأخذني منه إذا جلست أمامه أؤدي الامتحان في الجغرافيا ووصف الشعوب . أنت تذكر ذلك ، فيما أظن ، فاذكر بجانبه إن شئت أنني عُنيت بعد ذلك بطائفة أخرى من الخرائط ، علقته كل خريطة منها في زاوية من زوايا القلب

وهنا تستطيع أن تفهم معنى قولهم : كم في الزوايا من خبايا . وهذه الخرائط متعددة الاشكال والالوان ، ففي كل خريطة نقط عديدة منها السوداء والبيضاء والحمراء ، وفيها نقط خفية لا أدرى مالونها لأنها تمثل بعض جوانب من النفس يغلب عليها الشك والارتياب . وهذه المجموعة من الخرائط فيها دائي وفيها شفائي ، وإليها المرجع كلما جن الليل واطفأت المصباح ونظرت من النافذة أتأمل من خلف ستار ما يصنع جيراني : فهذا شاب يقضي سهرته وحيدا في غرفته ، ولسكنه ليس بوحيد لأنه مشغول بتمرينات مهمة في ضرب العود حتى لا ألمح العرق يتصبب من جبينه ، وهذه فتاة تغازل صورتها في المرآة ، وهذان قرينان يتناولان القهوة ويسمران بعد العشاء

أما أنا فوحيد وحدة كاملة لا رفيق لها ولا أنيس ، أقرأ
ما أقرأ حتى تصرخ جفوني من الألم ؛ وأعود إلى مذكراتي أرتبها
في رفق ، ولكن ذلك كله لا يمنع من أن أنظر الساعة فأجدها لم تتخط
العاشرة ، وأنا لا أصافح النوم إلا بعد نصف الليل ، فإذا أصنع
إذن ؟ لا شيء إلا أن أعود إلى تلك الخرائط التي علقتها في قلبي فأراجعها
واحدة واحدة في غبطة وارتياح لا يعدلها شيء من طيبات الحياة .
وهذه المراجعة لذيدة جداً ، لأنها ليست من تلك المراجعات
المملة المضجرة التي يضطر اليها المتقدمون إلى الامتحانات العمومية
من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ، هي مراجعة لطيفة خرائط
وجدانية ، يتراءى في بعضها الشيخ زكي مبارك بعمامته البيضاء ،
وفي بعضها الآخر يتراءى زكي أفندي مبارك بطربوشه الأحمر .
وفي جوانب أخرى يتراءى المسيو زكي مبارك في قبعته الرمادية .
ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص الذين يختلفون في ملابسهم
وازيائهم يلتقون عند نقطة واحدة هي الحظ العاثر والفؤاد الخفاق
إن الذي رزقك رغد الحقائق هو الذي رزقني لذائد الخيالات
والأحلام ، فلا تحسب أنك أسعد مني حين تمتطي سيارتك
وتصاحب شيطانك من ميدان إلى ميدان ، فإن لي من أحلامي سعادة
باقية دائمة تتجدد نضارتها كلما نفضت تلك الخرائط بين يدي
لاذكر متى نعمت ومتى شقيت ، متى فرحت ومتى حزنت ، ومتى

طوبت ومتى جزعت ، أما أنت ففي دنيا صاحبة تحسبها شيئاً
 وليست بشيء ؛ وليست لك قدرة مع الأسف على تذوق الذكريات
 لأن النعيم طغى بك ، وأنساك ما في الماضي من متع كانت جديرة
 بالحياة لو وقعت لرجل حساس من الذين رزقوا قوة الخيال وعرفوا
 كيف يكون استحضار الأرواح : أرواح مادفنا على الزمن من
 ذكريات الحب والوجد والوفاء . أفتحسب يا صديقي أن ابن زيدون
 كان يخادع نفسه حين قال

يدنى خيالك حيز شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاكِ
 هيهات ، هيهات ! ان ابن زيدون لم يخدع نفسه بذلك .
 فالواقع ان نعمة الخيال من اعظم النعم التي من الله بها على عباده
 الشعراء . إن احلام اليقظة أوفى وامتع من احلام النوم : لأن اليقظة
 املك لنفسه ، واعرف بخواطره ، واقدر على تمييز ما يترأى له من
 اشباح النعيم ، وانت لا تتذكر ان الاحلام حياة ثانية نعيم بها وادعين
 ولكل دور من ادوار الحياة احلام خاصة به ، فالطفل حين يحلم
 يفتح فاه ويطبقة في رفق وحنان ، لانه يحلم بشئ أمه الرؤوم ، وأمّه
 في ذلك الحين هي كل شئ في دنياه ، وذلك الشئ المسئول هو
 كل ما يملك ذاك الوليد الغرير . أما نحن فأحلامنا معقدة أشد
 التعقد ؛ ونكاد نزعج في النوم ، لأن أعباءنا ثقيلة ، ولا ترينا
 الاحلام غير صور مرعبة مخيفة من صور التكاليف والفروض .

وبهذه المناسبة اخبرك ان أحلامي المزعجة في باريس ترجع في صورها المختلفة إلى أصل واحد : هو الذهاب لاعطاء درس أو إلقاء محاضرة بعد مضي ربع ساعة من الوقت المحدد . ويرجع هذا الفرع فيما أظن إلى انى كنت دائماً احرص الناس على التبكير ، حتى لا أذكر انى كنت أصل دائماً قبل الميعاد بنصف ساعة . وهذه الوسوسة في المواظبة تجلب لى الآن احلاما مزعجة لا يذهب شرها عنى إلا إن قت فأوقدت المصباح وقلت بصوت مسموع : أنا فى باريس ! أنا فى باريس ! فلينتظر تلامذتى ماشاءوا فى القاهرة ، فانى لست هنالك ، ولست عن انتظارهم بمسئول !

الاحلام لا تجمل إلا فى الطفولة ، من اجل ذلك كنت اقول لك حين تأوى إلى مضجيك : نم هنيئنا . واحلم أحلام الاطفال !

أما قوة الخيال وجبروته فى استحضار أرواح الذكريات فنعمة عجيبة أنعم الله بها كاملة على أخيك . فانا أرد كل غائب ، وأبعث كل ميت من ذكريات الماضى ، وأمثل كل شىء حين أشاء ؛ وأنت الآن أمانى بجوداثك اليومية ، وأكاد أراك تنتقل من قهوة إلى قهوة ، ومن مرقص إلى مرقص ، ومن ملعب إلى ملعب ، فى حيرتك الدائمة تبحث عما لا تجد ، وتجد ما لا تريد ، وأكاد ارى صديقنا (ا) يخرج من الفصل فيقال له : كيف حال

الطلبة؛ فيجيب «جتهم داهية دأشء يطلع الروح» او صديقنا (ح)
 ذلك الاديب الالوف المولع بتتبع سقطات الشعراء والكتاب
 من بين الناس ، لا أزال أراه مهموما محزوناً يبحث وينقب عساه
 يظفر بمخبر طريف يطالع به اخوانه اذا تلاقوا في المساء في ملهى
 من ملاهى الجزيرة ، أو التقوا مصادفة في الطريق ، وهذا
 النوع من تلمس هفوات الادباء شر لا بد منه ، أو هو شر جميل
 عاش بفضل كتاب الاغانى على مر الاجيال

الاحلام هى التى جعلت المتنبي يظفر بأنس من لا سبيل
 إليه حتى استطاع أن يقول فى نشوة الظافر الطروب .

بتنا يناولنا المدام بكفه من ليس يخطر أن نراه بباله

وقوة الخيال فى بعث الذكريات هى التى جعلت أحد

الشعراء يتغنى ويقول

ترينيك عين الوهم حتى كأننى

أناجيك من قرب وان لم تكن قربى

وهى كذلك التى تحيينى حياة صادقة كاماً تمثلت ما طاب

من غفلات الماضى ، أو تمثلت ما سيطيب من غفلات المستقبل

القريب والبعيد ، وثمراتها أشهى وأطيب وأمتع من ثمرات

الامانى الشاردة التى أقنعت جحدراً فى سجنه ، وحملته على

الاطمئنان إلى الرضا بأن محبوبته تشاركه فى رؤية الليل والنهار

والهلال، إذ يقول:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدان
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علانى
ونحن بالاحلام والخيال نحيا حياة طويلة مملوءة بالانس
والرغد، ولنا من ذكرياتنا الحلو ما ندفع به مرارة الساعة الحاضرة،
ولنا من الامل فى طبيبات المستقبل ما نقتل به جيش التشاؤم
المضجر الذى ينتابنا فى ساعات السأم والملال

إلى هنا تحسبنى يا صديقى أثراً لأحب إلا نفسى فالذكريات
كما ترى حياة وبعث للأيام السوائف والليالى الخوالى، وهى كذلك
وقود من اللذات أقدمه لتلك النفس القلقة الحيرى المولهة، التى
لا تهدأ، ولا تقف عند حد من حدود المطامع، أو رسم من رسوم
الاهواء، وهى فوق ذلك كله غذاء شهى أنزوات القلب، ونزغات
النفس، ووثبات العقل، وهفوات القلب

ولكن رويدك، فاخوك أطيّب من ذلك نفساً، وأعف
ضميراً، وأكرم قلباً. إن لى من تلك الذكريات أنصبه روحية
صرفة لا يشوبها طيش ولا نزق ولا جموح، وفى تلك الذكريات
جوانب طيبة لم أردبها غير وجه الله، ولم أبتغ منها غير جمال
الصدق وعذوبة الوفاء

انى ما رجعت إلى تلك الخرائط الوجدانية إلا تمثلتُ فيها
صوراً ورسوماً وأشباحاً لصدقات قديمة، وعلاقات ماضية أراد

الزمن أو شئت تقلبات الناس أن تضاف إلى غيابات التاريخ :
 فأولئك قوم كانوا في صداقتهم كراما بررة ، ولكن الموت قضى
 عليهم ، وهؤلاء قوم لا يزالون أحياء ، ولكنهم كذبوا بعد صدق
 وخانوا بعد وفاء. فإذا ترأى أصنع في ذكريات أولئك وهؤلاء ؟
 أما الذين قضى عليهم الموت فلي في ذكرياتهم شئون غريبة
 تستثير الدمع ، وأعزهم على المنسيون منهم الذين ما عادوا يمرون
 بمخاطر أو يجرون على لسان . فذلك الطفل (عبد الحسيب) الذي
 اختطفه الموت بعد عام من حياته لا يزال يتمثل إلى قاي وروحي
 في عقله ورزائته ، وتلك الطفلة (سُكينة) التي سميناها بهذا الاسم
 لصباحة وجهها راجين أن تذكر بسميتها الجميلة الحسنة سُكينة
 بنت الحسين ، سُكينة هذه لا تزال تطفر أمامي وتثب على سريرها
 الصغير ، ولا أزال أتمثل كيف كانت تعالج سكرات الموت في
 نبرات حلوة عذبة حسبها لغفتي تغريدات طائر لا تأوهات عليل .
 وأخي سيد ؟ ويلاد ! ماذا أقول ؟ لقد شهدت أيام مرضه
 وحضرت لحظاته الأخيرة ورأيت كيف قام فزعاً فقبل يدي ليغمض
 بعد ذلك عينيه أبد الدهر ، وقاسيت أهول منظر شهادته في حياتي
 حين كفتته بيدي وأسأمته إلى الفناء

أفتحسب من المروءة والنبيل أن نبخل على هؤلاء بنفحات
 الذكري ؟ هؤلاء بذلوا في برناكل ما كانوا يملكون ، فالطفل

كان يسخو بنظراته الرقيقة ، والطفلة كانت تجود بيسماتها العذبة الحلوة التي تفيض بنورها على حنايا القلب والأحشاء ، وذلك الشاب اليافع كانت مخايله تعد بأشرف أنواع البطولة لو أمهاته الأيام ، وسبحان من تفرد بالبقاء

أما أصدقاؤنا الذين غدروا بنا وتناسوا ولاءنا واخلصنا على معهم شأن آخر : هم لا يزالون أحياء ولكنى ارحمهم فوق ما أرحم الموتى ، ذلك بأن الموتى مضوا وراحوا قبل أن تمتحنهم هذه الدنيا الغادرة وقبل أن ترغمهم ضرورات الحسد وحاجات العيش على قطع ما وصل الوداد ، وفصم ما ربط الولاء ، وهؤلاء أيضا مقابر تزار . لكن كيف ؟ لا تسأل عن ذلك ، فليس عندي جواب ويكفى أن تعرف انى أميز بين الوجهين للشخص الواحد : فهذا وجه قائم وهذا وجه مضى ، وما لقيت صديقا غدر إلا كدت أستوقفه وأقول له : ما أشبهك بصديقى فلان ! لقد كان له وجه كوجهك ، واسم كاسمك ، وعمل كعملك ، وجاه كجاهك ، ولكنه رحمه الله كان لا يغدر ولا يخون !

هؤلاء أيضا بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون فى اللحظات التي كانوا فيها أوفياء ونبلاء ، أفترانى أنسام وكانوا قرة العين ، ومنية النفس ، وبغية القلب ، وقبلة الروح ؟ هيهات ، هيهات ! فلقد فطرت على البر والوفاء والاخلاص ، وبغض الله إلى تقائص

القطيعة والجحود والعقوق .

وبعد فإذ رسالة كلفتني قطرات من الدمع في باريس ، ذلك البلد الذي لا يعرف أهله ما البكاء إلا في الروايات والاساطير . وكل ما أرجو لك ، أيها الصديق العزيز ، أن يبارك الله في نضارة شبابك ، وطهارة وجدانك ، وأن لا تحملني الظروف على أن أترحم عليك وأنت حي تغدو وتروح . والسلام

٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠

هادم الذات

لنا صديق في باريس مفتون بالجلوس في بول ميش ، وتلك أكبر مُتَمِّعِه أن يشهد الغادين والغاديات ، والرائحين والرائحات ، في حي الشباب

وهو في أغلب الاحيان يجلس وأمامه كأس وفي يده سيجارة ، ثم يرمى بعينه وبفؤاده الى اقتناص ما يري وما يدرك من أسرار الجمال ، وهو في تلك اللحظات أشعر الناس : لأنه يتحول الى جذوة من الشعور والإحساس

وقد جلس في صباح اليوم كعادته وكان قد أجهد نفسه بالليل في دراسات مضجرة تقتل الأعصاب ، فرمى ببصره على يشهد من روائع الحسن ما يذهب السامة عن عقله المكدود . ولكن

نظره اصطدم بمنظر السواد على باب المنزل الذى يواجهه ، فعرف
أن هناك مأتما وأن هذه ساعة بكاء وانتحاب عند الجيران المجهولين
وهنا استولى عليه الخوف ، ومرت بخاطره الحديث الذى

يقول : تذكروا هادم اللذات

ولكن ذلك الصديق عاد فألقى على دنياه نظرة ساخرة .

ثم ألقى على نفسه هذا السؤال :

إذا كانت دنيانا ستتنقضى بمثل ما انتقضت به دنيا هذا
الميت فلم تحفظ وتبلى وتتوقر فراراً من سفالة المنافقين الذين
يأمرون بما لا يأترون به ، وينهون عما لا ينتهون عنه ؛ أليس
الحزم أن نغم دنيانا قبل أن تقوت متأسين بأبى الحسن التهامى
إذ يقول :

فاقضوا ما ربكم عجلاً إنما أعماركم سقر من الاسفار
وتراكموا خيل الشباب وبادروا ان تُسترد فأنهن عوار
وما كادت تفرغ الكأس حتى نُقل الميت ونزع السواد وعاد
الشارع والسابلون إلى الجذل المألوف . وبذلك اطمأن صاحبنا إلى
أن الحياة أقوى من الموت ، كما أن الصراحة أشرف من النفاق ،
ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

الان فهمت

كنت فى حداثق فلاحا مقسّم الجهد بين الفأس والمحراث ،
 وكان لا يعيظنى من حياة الريف غير فصل الشتاء . وكنت
 أسمع أهالى سنتريس يقولون (لما يخضر التوت ، البرد يموت)
 وكذلك كنت أتأمل اشجار التوت وأترقب اخضرارها لابشر
 نفسى بالربيع ، ولكننى كنت أجد الاشجار الصغيرة تسرع الى
 الاخضرار وأجد الاشجار الكبيرة تخضر فى ببطء قريب من
 الجمود . وما أذكر أننى شغلت نفسى بفهم هذه الظاهرة الطبيعية
 وقد غاظنى شتاء هذا العام فى باريس فما كاد ينتصف مارس
 حتى أخذت أترقب اخضرار الاشجار فى حديقة النباتات .
 ولاحظت أيضا ان الاشجار الصغيرة هى التى تسرع الى
 الاخضرار ، فتذكرت أيام الحداثة فى حقول سنتريس يوم كنت
 أترقب اخضرار أشجار التوت

ومع انى لم أكن بليد الذهن بدليل أن اسمى (ذكى) - بالذال
 لا بالزاي فى هذه المرة !- لم أفهم السر فى تبكير صغار الشجر الى
 الاخضرار الا فى هذه الايام :

ذلك بأنها فى مِيعَة الشباب ، والشباب أكثر إحساسا

بنضارة الربيع

أعاذنا الله من كهولة القلوب ، وشيخوخة الأرواح !

نجوى القلب على شواطئ السنين

تصارع في سأم الجمال وحربه
فيا لك من صب على البين مؤلم
رشادك لا تجزع فكم من صباية
ستأسو عذارى النيل آثار ما جنت

مخاطر منها طارف وتليد
أثارت شبحاه أعين وخدود
تحمل عنها القلب وهو عميد
عليك عذارى السنين حين تعود

رعى الله في الوادى العزيز عقيلة
تذكرها الآصال ما كان بيننا
جنيت عليها ما جنيت من الهوى
وكم من أمان للشباب تقطعت

أتمضى ليالى الصيف لا تنقع الجوى
ويدرج في مغداه أسوان صادياً
وتخلو مغانى النيل من أهو فاك
ويمحى أسير الحزن في ميعه الصبا

سيزكرنى الناسون يوم تشوكم
سيزكرنى الناسون حين تروهم
فوالله ما أسامت عهدى لغدره
ولا شهد الناسون منى جنائة

شمالك من بعض الخلائق سود
صنائع من ذكرى هواى شهود
ولا شاب نفسى فى الغرام جعود
على الحب إلا أن يقال شهيد

بين الرشد والغواية

صديقي عبد المجيد

أكتب إليك هذا وقد قهرني البرد على المكث في غرفتي،
فإن الجليد يتساقط على الناس وهم سائرون في الطرقات ، وليس
لدى من مرافق الحياة ما يتمتع به أكثر الجيران ، فنحن في يوم
أحد ، ولكل جار فنوغراف يستمع إلى أناشيده وموسيقاه ،
أو أهل يعطفون عليه ، أو أصدقاء يسألون عنه ، في حين لا أجد
ما أدفع به السأم والملال غير ثلاثين كتاباً أو تزيد ، مبعثرة في
أرجاء الغرفة في اضطراب له روعته وجماله في ساعات النشاط ،
ولكنه في ساعات السآمة ثقيلٌ ممجوج ؛ أضف إلى ذلك أن هذه
الكتب قلّتنى وقايتها لطول ما اصطحبنا وتجاوزنا الأحاديث في
المصباح والمساء ، وهي فوق ذلك متنافرة الطباع ، متباينة الأشكال ،
فن لغة إلى أدب ، ومن فلسفة إلى تشريع ، ومن جدٍ إلى هزل ،
حتى لا أحسب أنه لا يمنعها من العراك غير خوف البوليس !

وقد فكرت فيما أقتل به هذه الساعات الباردة فلم أجد غير
الكتابة إليك ، ولكن ماذا أكتب ؟ أتريد شيئاً جدياً ؟ هيهات

فان الجِد في هذه الساعات أقسى من البرد فلم يبق إلا أن أحدثك
عن بعض الغوايات التي تقع في باريس ، ثم نظرت فرأيت أن هذه
الرسالة ستصل اليك في شهر الصيام ، وهو شهر له حرمة وكرامة
فمن الخير أن نباعد بينه وبين جميع ألوان الرفث والفسوق . والغواية
في جملة ما ترجع إلى الدنيا التي عناها الشاعر حين قال :

إذا ما المرء صام عن الدنيا فكل شهوره شهر الصيام

ولكني تذكرت أن هناك مخرجاً من هذا المأزق : فقد كتب
أرى ناساً يقتدى بهم ، وينعمون بجميع مظاهر التبجيل والاحلال
كنت أرى أولئك الفضلاء المبجلين يعرضون لمحارم الله في غير تورع
ولا تحرج ، وينالون من اعراض الناس بلا توقر ولا عفاف ، فاذا
نالوا من شهوات اللسان والزهو والخيلاء ما يبتغون رفع الرجل
منهم بصره إلى السماء وقال : اللهم إني صائم ! اللهم إني صائم !

وكانوا يقولون ذلك في ضراعة وخشوع ، بحيث لا مجال
للشك في انه قد غفر لهم ، فان وصلت اليك رسالتي بخير فاقرأها
كلها . ولا تنس أن تقول في ختامها : اللهم إني صائم ! اللهم إني
صائم !

أما أنا فسأقول عند الفراغ من تحريرها : اللهم إني في
باريس ! اللهم إني في باريس ! وأنت تعلم معنى ذلك ، فان رحمة

الله وغفرانه يشملان هنا سكان الأرض والسماء ، وما ظنك بمدينة
 اللهو في عرف أهلها لباقة والوقارُ عندهم جمود ، أول ما تقع عليه
 عين الوليد فيها أ كواب الشراب وأول ما تسمع أذنه أغاني
 الفتك والمجون . والله حكمة في كل ذلك فلو مشينا هنا على الصراط
 المستقيم كما تمشون في مصر لهلكنا ، ان كان صحيحا ما نسمع
 من أنكم تمشون على الصراط السوى في شهر رمضان ، ولو شاء
 ربك لهدى الناس أجمعين .

بسم الله أفتح الحديث

لى صديق فرنسى يحمل أ كبر الدرجات وأعظم الألقاب
 مضت به الايام حتى ألقته في حدود السبعين ولكنه كشاعر ناشوق
 قد بقيت في وجهه بقايا من عهد الشباب ، فان الذى يري شوقى حين
 يتسم يقدر أنه كان جميل الملامح فى صباه ، وكذلك صديقنا
 الاستاذ (ب) قد بقيت فى وجهه على الزمن آثار ملاحه وصباحه
 بحيث يقدر الرأى أنه كان من أجمل الشبان فى عهده القديم

جلسنا مرة نتحدث فى حفلة ساهرة ، وكان الراقصون
 والراقصات يتناهبون لذات الوجد المكبوت ، فسأنى : أتعجب
 الرقص ؟ فأجبت : لا أحسن منه غير الجنبلة ا ثم قلت : وأنت

ياسيدى الاستاذ؟ فأجاب: كنت قديماً أرقص ، ثم تركت الرقص
منذ ثلاثين سنة !

— ياساتر ! ثلاثين سنة !

— نعم ثلاثين سنة ، فقد تر كته فى حدود الاربعين
وهنا دفعنى الفضول فقلت : لقد بقيت فى وجهك ياسيدى
الاستاذ علائم وسامةٍ وجمال ، فكيف كان حظك عند النساء ؟ .
— النساء؟ ماذا تريد؟ أنا طول عمرى رجل مستقيم !
— العفو ياسيدى الأستاذ ، إن كنت وجدت فى سؤالى
ما يُحرجك ، وأنا فى بساطة أسألك : هل كانت لك وقائع تشبه
وقائع ألفريد دى ميسيه ، أو كانت لك صبوات تذكر بصبوات
لامرتين ؟ ؟

— الآن فهمت ما تريد ، ويظهر أن سمعة فرنسا فى الخارج
سيئة جداً من هذه الناحية ! وأحب أن أجيبك بأنه لم يقع لى
من حوادث الحب ما يذكر بهن تعرف من شعراء الوجدان .
الحب صعب المرام جداً يا صديقى . فما رأيك؟ إن الرجل المحترم
لا يتاح له الحب إلا فى حالين : أن يحب فتاة ، أو أن يحب امرأة
والرجل لا يحب فتاة إلا إذا كان يريد الزواج . وما عدا ذلك من
حب الفتيات خطرٌ لا يقدم عليه رجل يحسب حساب العواقب

أما حب المرأة - المرأة المتزوجة - فهو من كبريات المشاكل في هذا الوجود، وذلك أن الحب لا يراد به ذلك العبث الكلامي الذي يجرى في الأندية والحفلات، فإن هذا حب الأطفال، والمرأة لا يرضيها ذلك. والعاشق الذي يكتفى بمعسول الأمانى والأحاديث عاشق أحمق مأفون لا تحبه النساء، فلم يبق إلا العشق الجدى الرصين الذي يتغلغل في المشاعر والأحشاء، وهذا العشق كثير التكاليف، لأن المرأة عندنا حين تحب تعصف بكل ما يملك مجها من عقل وثروة وجاه. وانت تعرف أن العشق لا بد له من ساعات خلوة. وغير معقول أن يكتفى العاشقان بغرفة في فندق فإن هذا ابتذال، فلا بد إذن من جناح خاص في منزل مقبول. ولا بد إذن من أثاث ورياش وطعام وشراب. وهذا كله ماذا يتكلف؟ رباه! إن العشق شيء ثقيل! ولنفرض أننا وجدنا السبيل إلى المغارم المادية. فكيف نجد الوقت، أتحسب أنه تكفى ساعة أو ساعتان؟ هذا عندكم يا أهل الشرق، أما العشق عندنا فحسابه طويل! وكيف تنتظر أن يجد رجل مثلى فرصة للحب، وهو يكدح من الصباح إلى المساء؟ ومن هي المرأة المتزوجة التي تستطيع الفرار من تكاليف الزوجية لتسعف عاشقها بما يحتاج إليه قلبه من عطف وحنان؟

ثم سكت الرجل فجأة وقد عات وجهه غيرة الحزن والقنوط

وما هي إلا لحظة حتى قال :

— وأنت ما شأنك؟ وكيف حالك في الحب؟

فأجبت في ابتئاس :

— لم يكن لي من الحب نصيب غير الخيبة والاختفاق ،
والآن عرفت سبب شقائي ، فقد كنت أحسب أن حرارة الوجد
كافية لامتلاك القلوب ، وفي ذلك السبيل ألفت كتاب « مدامع
العشاق » وزاد حزني حين رأيته لم يقدمني خطوة نحو « تلك
النفس » التي أوحى إلي قلبي فصوله الطوال ، وفي هذه اللحظة
فقط عرفت أن العشق كثير التكاليف ، وأن القلب وحده لا يفي
في امتلاك المرأة ، وأن عالم العواطف إنما هو عالم قلوب
وجيوب . . ! ويرحم الله من قال :

إذا اجتمع الجوع المبرح والهوى

على الرجل المسكين كاد يموت

والله المستعان على الغربة والحب والإفلاس !

*
* *

وعلى ذكريات الحب أذكر لك الفكاهة الآتية :

أكثر الاجانب المقيمين في باريس لا يعرفون غير النساء
العموميات ، ومن النادر أن يتصل رجل أجنبي بامرأة فرنسية
شريفة لان المرأة الشريفة هنا لا تقع إلا حين تحب ، وهي لا

تحب بسهولة كما يتوهم أكثر الناس ، وقول شوقى :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء

لا يمثل غير الفتاة الساقطة التى تنتظر أول قادم ، أما المرأة الشريفة فالوصول إليها من أعسر ما ينال ، على أن الفتيات الساقطات لا ينلن أيضا بتلك السهولة التى يمثلها بيت شوقى ، ومن هنا يقع ذلك المنظر المضحك حين تجد جماعة من الشبان المصريين يجلسون فى قهوة من قهوات الحى اللاتينى ثم يتشاكون ويتباكون لتعاسة حظوظهم فى الحب والسعيد منهم من يخلق قصص الحب اختلاقاً ليغيب بها اخوانه ، ويوهمهم أنه من دونهم سعيد على حين لا يعرف من فصول الحياة غير فصل الجفاف !

وقد حدث مرة أن وجدت فى بعض المكاتب كتاباً عنوانه « الحب الأثيم » فاشتريته فى الحال على أجد فيه وصايا مفيدة أنفع بها أولئك الاخوان المحرومين وقد كنت أخلق لهم حكايات أوهمهم بها أنى أعيش فى باريس عيشة ممر بن أبى ربيعة فى المدينة وكانوا ينتظرون أن أعود عاينهم بشىء من الفضل ، والمحسنون قليل ! أتدرى ماذا وجدت فى ذلك الكتاب ؟

وجدته أولاً يصور الحب بصورة الشىء الممنوع . ورأيتة يشترط فيمن يؤهل نفسه لمخاطر الحب أن يحسن الرقص ، وركوب الخيل ، ولعب السلاح ، إلى غير ذلك من الشئون الدقيقة

التي يجب أن يبرع فيها المتأفقون ، ورأيت في النهاية يبحث عن
الاماكن الخالية المأمونة التي يذهب إليها العاشق مع معشوقته .
وهي في رأيه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأماكن المأمونة أمنًا مطلقًا لا ريب فيه .
ثم قال : وهذه الأماكن كضرورات الشعر لا سلامة منها ، فمن
الحق أن يأمل العاشق في الظفر بمكان خال بعيد عن أعين الرقباء
وأهل الفضول

القسم الثاني : الأماكن التي اشتهرت بكثرة الزائرين ،
مثل متحف اللوفر ، وسان كلو ، وفونتيلو ، وهي أماكن لا يليق
بعاشق يحترم معشوقته أن يصحبها هناك وإلا عرضها للقليل والقال
القسم الثالث : الأماكن التي اشتهرت بالهدوء وقلة الواردين
وفي رأي المؤلف أن هذه الأماكن خطيرة جدا : لأن العشاق
جميعا يتوجهون إليها معتقدين أنها خالية ، وأنها مأمونة الجوانب
فلا عاذل ولا رقيب

لكن أتدرى يا صديقي ما هي تلك الأماكن المشهورة
بالهدوء والسكون ، التي تصالح لمواعيد الحب ؟

إن المؤلف لم يذكر إلا موضعا واحدا ، أتدرى ما هو ؟
وأين يقع ؟

إن ذلك الموضع هو : « قسم الآثار المصرية في متحف اللوفر » !

قسم الآثار المصرية ؟ غضبة الله على باريس، وعشاق باريس !
أهكذا يكون احترام ما ترك الفراعنة من معجزات الفنون ؟ ألا
يخشى أولئك الداعرون أن تحمل بهم لعنة خوفو ورمسيس ؟

كذلك ثارت نفسى حين وصلت إلى هذه النقطة من ذلك
الكتاب ، ثم عدت فذكرت أنه لا ضير على التماثيل المصرية أن
تشهد انحلال الأخلاق فى مدينة من مدن الطغيان ، فانه لا يذهب
هناك للغزل والعبث إلا رجل يخون زوجته أو خطيبته ، أو امرأة
تدوس على ما فى ضميرها من بقايا كرامة الزوجية ، أو فتاة تعق
أباها وأخاها وخطيبها حين تنسى حرمة العرض فى سبيل الغواية ،
إنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد نزق العابثين والعاثات
فى المدينة التى تسمى « مدينة النور » فستظل التماثيل المصرية هى
هى خالدة ، وستفنى كل هذه اللذات المخطوفة فى أقل من لمح
البصر حيث لا بقاء إلا للحق ، ولا كرامة إلا للخلق الجميل

١٥ يناير سنة ١٩٣١

ألوان من اتجاهات الأذواق

صديق . . .

تذكر أنى أرسات اليك رسالة عن الرشد والغواية ، وتذكر
أنى وعدتك بالعودة إلى مثل ذلك الحديث ، فالآن أوجه إليك
القول مرة ثانية على شريطة أن تفهم أنى لا أدعوك إلى ترك
التحفظ والوقار ، ونبذ ما أنت عليه من ايثار الصمت والتورع
عن الفضول

أنت تعرف ماينى وبين صديقنا « ب » وتعرف أن إخاءنا
بنى على أساس المجاملة ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ،
وتعرف أن لدينا من التسامح ما يكفى لإغضاء العين على بعض
الأقذاء ، فليست منه وليس منى ، ونحن مع ذلك إخوان فى
السراء والضراء .

غير أنى لا أنكر عليك أنى أحب أن (أنكد عليه) ولو
مرة واحدة ، وهو انتقام طفيف ترضاه نفسى ، ولا سبيل إلى
ذلك إلا إذاعة بعض ما يلهو به فى باريس .

وقد تسأل : وما موجب ذلك ؟ وأجيبك فى صراحة: إنى
أحقد عليه لأنه يجد من الفراغ ومن المال ما يمكنه من إحياء عهد

عمر بن أبي ربيعة ، وكنت أحب أن أكون ذلك الرجل لو ساعفتني المقادير . وهو فوق ذلك ينقص على تلك المتعة العقلية التي شاء الله أن تكون أجل ما أطمح إليه من طيبات الأرزاق

واني لا أذكر أنه صادفني مرة في حديقة لكسمبور ومعى كتاب موضوعه « روح القرن السابع عشر » فأخذ يندد بأقبالي على الماضي ، وإغفالي مافي العصر الحاضر من مفاتن ومغريات . . وكان (المضروب) يقول ذلك ويده في خصر فتاة لو وقعت عليها عينك لدارت بك الأرض وتحاذلت من عزمك الأوصال !

وله من نوع هذا الجنون منا كر كثيرة حملتني على مطاردته والتصميم على هتك ستره لدى قراء (المساء) وقد أنذرته بالفعل فهو منذ ثلاثة أشهر يصباح موزع المساء في باريس ويماسيه ، وأنا أقسم أنه سيلقى مني ما يكره . ولكن ما الذي يكره هذا الخبيث ؟

انه لا يخشى إلا خطرا واحداً ، ذلك ان له أبا صالحا يصلي الفجر في سيدنا الحسين ، والظهر في السيدة زينب ، والعصر في السيدة فاطمة النبوية ، والمغرب في السيدة سكينة ، والعشاء في مسجد قاضي الشريعة الامام الشافعي الذي قضى بين أمه وأبيه ، رضوان الله عليهم أجمعين ! وهذا الأب الصالح يرسل الى ابنه في باريس ثلاثين جنهما شهريا وهو مبلغ ضئيل لا يتناسب مع ثروة

ذلك الشيخ الجليل ، ولكنه يؤثر التقدير على ابنه لئلا يفسد في بلاد الفساد ، والابن من جانبه لا يزال يكتب أباه شاكيا باكيا ، لأن الثلاثين جنبها لا تكفي للخبر القفار ! والوالد يقرأ تلك الرسائل في اطمئنان ، لأنه يعلم أن الثلاثين جنبها كافية ، وأن ديشة الخشونة أنفع له ، وأجدر بأن تحمله على الانقطاع للدرس ليجتاز امتحان السنة الأولى في كلية الحقوق بعد أن قضى فيها أربعة أعوام !

وهذه الإشارة كافية لأن تقدر كيف يضطرب كلما هددته بالكتابة عنه ، وهو هداه الله يقول في خشوع : إن حالى يشبه حال فلان ! وفلان هذا الذى يعنيه شاب مصرى تمجزه الامتحانات لأنه لا يتلقى الدروس الا فى قهوة دار كور او هو يخشى أن يستقدمه أبوه الى مصر ، فهو لذلك يقول لمحدثيه وهو يتوجع :

أنا جالس على تل من البارود ، وهناك شرارة نار تقترب ثم تبعد ، وتقترب ثم تبعد ، وأخشى أن تمس البارود ؟

وهذا كما ترى من الخيالات الشعرية البديعة ، وأستبعد أن

يكون تلميذ قهوة دار كور هو صاحب هذا الخيال

وقد صممت أخيرا على الكتابة عنه ، ولكنى سأطوى اسمه عن القراء لئلا يكون فيهم من يصلى مع أبيه فى السيدة زينب أو سيدنا الحسين ، وبذلك تظل شرارة النار بعيدة عن تل البارود

إلى حين !

ولست أرجو بذلك أن يقلع عن الغواية ، فذلك شأن لا يهمنى
على الإطلاق ، وإنما يهمنى فقط أن يكف عن مغايظتى فلا يقرأ
على رسائل الحب التى تصله من خليلاته ، ولا يأتى لزيارتى ومعه
ثلاث بنات من السكواب الملاح ، كبراهن رفيقته ، والوسطى
بنت عمته ، والصغرى بنت خالتها . فتلك أشياء تذهب بالرشد
وتغرى بالجنون

وهذا إنذار لا يغنى فيه أن يعتذر بأنه يقرأ على تلك الرسائل
الدنسة لأشرح له بعض ما يخفى عليه من التعابير التى تدق عن
فهمه ، لأننى لست مترجماً فى دائرة أبيه حتى يضطرنى الى توضيح
تلك المشكلات ، وان كنت أعترف بأنى أستزيده أحياناً من تلك
الرسائل التى كان يمدادها من ألعاب إبليس ، والتى تحمل القارىء
والسامع على تصديق من يقول :

أرى طيب الحلال على خبثا وطيب العيش فى خبث الحرام

* * *

أصاحبنا هذا طرق كثيرة فى الصيد ، فلنذكر بعضها هنا
تهميداً للمفاجآت التى سنكف بها من طماحه اذا مضى يتلمس
أسباب الهوى فى باريس

وأخبث طريقة كانت له ما وقع منه يوم نشر فى إحدى
الصحف الأسبوعية إعلاناً هذه ترجمته :

(شاب مصرى مستقيم يقضى نهاره فى الدرس ويحتاج إلى

فتاة مقبولة الصورة متينة الأخلاق ترافقه في بعض السهرات لتذهب وحشته وتعينه على فهم الروايات الكلاسيك التي تمثل في الأوديون وفي الكوميدي فرانسيز)

وقد أطلعني على هذا الاعلان قبل نشره وكلمة (مستقيم) أضيفت باقتراحى ؛ وقد كاد يرفض لظنه أن هذه الكلمة قد تنفر بعض الملاح . ولكنى أقنعت به بأنها ضرورية . على الأقل لحفظ سمعة مصر في الخارج ، ولأنها فوق هذا كلمة طالما انتفع بها المنافقون الذين يضمرون الإفك ويظهرون الصلاح ، وهى بعد ذلك كاه تنفى عن الاعلان صبغة المجون ، وتضيفه إلى الشئون الجدية ، وتلك تحفظات قد يحتاج إليها بعد حين

وفى صبيحة يوم دق التليفون فاستمعت ، وإذا صاحبنا يقول : احضر حالا فقد تسلمت اليوم أكثر من خمسين رسالة ؛ وأحب أن أدرسها معك فلا تتأخر ، أرجوك
خمسون رسالة ! يا ابن الخنزير ! « أستغفر الله ، فان أباه من الصائمين القائمين »

وما هى إلا لحظات حتى كنت عنده وقلت : (هات يا ولد ، هات ، حتى نشوف الخبر ايه !)

وفى مثل هذه المواقف تظهر براعة الفتيات الفرنسيات ، فان اللغة الفرنسية من أغنى لغات العالم بالأوصاف ، والمرأة الفرنسية من أعرف النساء بالصياغة الفنية لعبارات التودد والتلطف والاقبال

وقد جلس صاحبنا بجاني وأنا أقرأ بصوت مرتفع ، وهو
يقاطعني من لحظة إلى لحظة قائلا : « يعنى إيه ؟ » أو قائلا :
« وإيه رأيك فى البنت دى ؟ » أو قائلا فى لؤم « دى مش قد
كده ، خليها لك ! »

وكانت الرسائل تختلف اختلافا ظاهرا فى مراميها وأغراضها
باختلاف الكاتب . وقد وجدت فى بعضها نوعا من الصدق . لأن
هناك فتيات محرومات من نعمة الألفة ومرافقة الفتيان ، هؤلاء
كتبن فى صراحة أنهن فى حاجة إلى الرفيق ، ولا يشترطن إلا
العفاف ، وكتبت إحداهن تعان رغبته فى مصادقة (صاحبنا)
حبا فى مصر ذات النخيل ! ومنهن من قالت انها تود أن ترافق
فتى مصر ياء له حسن الطالع أن يركب الجمل فى صباه !

وهناك بنت ملعونة كتبت رسالة فى غاية من الخلاعة ،
وقد زعمت أنها أجمل مخلوقة مشت فى شوارع باريس ، وأنها
بالرغم من جمالها الساحر لم تخضع لخلق ، ولم يذق شهدا أحد
من العالمين ، وقد ختمت الرسالة بقصيدة من نظمها فى وصف
عفافها الفائق وجمالها الفتان ، وهى قصيدة تتوافق كل التوافق مع الاغنية
المصرية التى تقول :

ايه رأيك فى خفاقتى ايه رأيك فى لطافتى
مُش خفّه شربات مُش رِقّه دلّكات

أيدتسوى الجنهات	جنب البرلنتى
دا جمالى ما وِرْدَشِي	ومثالى ما صدقشى
حوريّة م الجنة	هربانه بالغنيه
لناس تتهنّا	لوصالى تتمنى

حبّيبه بالمّيه	تعجبني الحريه
يدوبوا ما أسألشى	بوصالى ما اسمحشى
على نارهم خليهم	بدلالى أكوهم
من صغرى الاموده	لجمالى معبوده
عشاقى تنزل	عن تقلى ما اتحول
كده طبعى يا اطافه	كده ذوقى يا خفافه
مش خفه شرابات	مش رقه دلكات

ومن أغرب ما جاء فى تلك الرسائل ما كتبتّه إحدى البنات تسأل صاحبنا عن مستقبل وزارة صدق باشا ، وعن رأيه فى الدستور الجديد . وقد قررنا فى الحال إبعاد صاحبة هذه الرسالة لأنها « غلباوية » ولأنّه يحتمل أن تكون من الجواسيس وصاحبنا كما تعلم جالس على تل من البارود ، وقد يرسل إليه صدق باشا بعض الصورايخ جعل الله كلامنا خفيفاً عليه ، آمين

قرأنا الرسائل بعناية ، وميزنا ما رأيناه جديراً بالجواب ،

وأجبنا على سبع وعشرين رسالة من بين ثلاث وخمسين
ولكن ما الذى وقع بعد ذلك ، انتظر. انتظر ، إن الله مع
الصابرين .

باريس فى ٢٥ مارس سنة ١٩٣١

الرسالة العذراء

لابر هاسيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكى مبارك

تطلب الرسالة العذراء من المكتبة التجارية الكبرى

بأول شارع محمد على بالقاهرة

وثمن النسخة ثمانية قروش

وهى مطبوعة فى ورق جيد جدًا بمطبعة دار الكتب المصرية

على اطلال الجمال

ولّى شبابك لم نَنعمَ بنضرتِهِ ولم نَفز من تَمَنّينا بِأَمولِ
فما دَّ كارهو دِ مِنْكَ ما ظفرتُ فيها الأمانى بوعدٍ غير مَمطولِ
أَيامَ تَعْصِفُ بالأُحشاء داميةً بناظر من بقايا السحر مكحولِ
وتستطيل عاينا فى صبا بَتنا بمائسٍ مُتَرَفٍ الاِعطافِ مَطولِ

يا قلبُ هَذِي رسومُ الحسَنِ موحِشةٌ

فى مَهْمَةٍ طامِسِ الاعلامِ مَجْهولِ فاندب رجاءُكَ فى دنيا وُعدتَ بِها
أُحالها الدهر مغنىً غير مأْهولِ لا تلمح العينُ فى شَتى جوانِبِهِ
إلا نوازى قلبٍ فيه مَكْبولِ ولا ينال المعنى من مشاهدِهِ
إلا عوادى حزنٍ جدٍّ مَوْصولِ

يا من تشفَع ماضِيهِ لحاضِرِهِ ليغفِرَ الحُب ما أسلفت من صَافِ
إلى حُبِّ مُعْنَى القلبِ مَتَبولِ فقد نَعِمنا على ذِكرِكَ آوَنَةٍ
بِساغٍ من نَمير الوصلِ مَعسولِ واليومَ نَعبدُ فى نَجْواكَ وادْعَةٍ
أَطْلالَ حُسْنٍ لِمَنْ يَهْواكَ مَبْذولِ

فى ليله العيد

صديق

لست اُكتمك أنى شرعت أتزود لهذه الليلة منذ أسابيع
وزادى كما تعرف هو اجترار الأشجان ، فقد مرت سنون وأنا
أنتقل من شجن إلى شجن ، وكادت تمحى أوقات السرور من ألواح
الذكريات . وكان الخيال الذى تشبثت به وأعدته لهذه الليلة هو
ذكرى تلك الفتاة التى رحلت عن سنترىس فى يوم عيد ، فقد أذكر
أنها خلتنى غريباً بين أهلى ، ولم تترك لى ما أوقد به نار الأسى
غير تقليب صفحات البحرى فقد انقطعت إليه يوم ذاك وأخذت
أنشره وأطويه بين الجوى والبكاء

وكذلك مضيت فاستعرت ذلك الديوان من أحد الأصدقاء
فى باريس ، وأقبلت عليه أتصفحه لا تذكر به ذلك الغرام المفقود
فاذا وجدت ؟ وبم شعرت ؟

لقد وجدت شعر البحرى خالياً من المعانى الوجدانية ، وكدت
أومن بأننى خلقت لنفسى ذلك الشاعر يوم كنت أحب ، فلما

انقضت اللوعة مضى معها سحره ، وعادت قصائده وكأنها أبدان
بلا أرواح

أهذا هو البحترى الذى كنت أحب لأجله كل من اتصل
بالبلاد السورية وأعبد من أجله ساكنى منبج والشهباء ؟
أين شعره ؟ وأين روحه ؟ وأين غرامه ؟

لقد كانت كل كلمة فى ديوانه تفعل فى قلبى ما تفعل النار فى القصباء
فالى أقرؤه فأراه خامدا لا روح فيه ، وأبحث عن بيت يروقنى
فلا أجد ، وتشقى عيناى فى البحث بين ألفه ويائه بلا طائل ولا غناء !
ثم كان صباح هذا اليوم فذهبت الى الكوليج دى فرانس
لأسمع محاضرة المسيو ماسينيون عن الهوى العذرى ، وانطلق
الرجل يتكلم بلغة عذبة تغلب عليها النبرات الباريسية الجذابة التى
يعرف سحرها من عاشر أهل باريس الأصلاء ، وكانت بداية
الحديث خاصة بالمحبين الذين زعموا أن هواهم باق لا يزول وكيف
كانوا فى دعواهم كاذبين ، فكدت أذوب من الخجل وأحسست
جيبينى يتندى من الحياء ، فقد أقسمت ألف مرة أوتزيدا لحفظن
ذكريات فتحية على مر العشى وكر الغداة ، ثم قهرتنى الأيام على
تناسيها ، فلم أذهب لزيارتها منذ تسع سنين

ولكن المسيو ماسينيون عاد فأشار إلى أن أكثر المحبين
يظنون أسرى لذكريات النظرة الأولى وأنهم ينسون ما ينسون

ثم يحتاجون لأطيايف الماضي البعيد ، ويمودون فيقاسون لوعة الحنين
وهنا غلبني الدمع وكدت أفزع إلى النشيج . ولكن كيف
والمسيو ماسينيون يوجه إلى نظره وحديثه في عناية والتفات ؟
وكذلك أخذت أحول نظارتي وأدارى دمعى متمثلاً بقول ابن
الأحنف

كم من صديق لى أسا رقه البكاء من الحياء
فاذا تلفت لامنى فأقول ما بى من بكاء
لكن ذهبت لأرتدى فطرفت عيني بالرداء

ولم تسكد تنتهى المحاضرة حتى اطمأنتت إلى أن القلب لا تزال
فيه بقية من الجوى ؛ ومضيت فصاغت المسيو ماسينيون وذكرته
بقول البحترى

وأودأنى ما قضيت لبائى منكم ولا أنى شفيت غليلى
وأعد برئى من هواك جنابة والبرء أعظم غاية المخبول
والرجل لا يدرى ما أريد لأن صباية البحترى لم تخطر له
على بال ، ولأن الشاكى من السلامة لم يكن رجلاً سوى !

ثم انطلقت أهيم فى شوارع باريس وأنا فرح جذلان ، لأننى
عرفت أن فتحية لا تزال تثير دمعى ، وأننى خليك بأن أراجع
معالم النظرة الأولى ، يوم كنت أقول فيها :

يا طفلة الحسناء والدره العصماء

ما خدكُ الفتانُ	وطرفكُ الوسنان
إلا بقايا الأمِّ	ذات اللثات الحُمِّ
أشبهتها في الدَلِّ	وجفنها المعتلِّ
وخدها الأسيلِ	وخصرها النحيلِ
فاستوصفها الحبا	واستودعها الربا
فقد تناهى العمرُ	ونال منها الدهرُ

يا زهرةً في العينِ	ونعمةً في الأذنِ
وطفلةً في المنظرِ	وغادةً في المخبرِ
لامسكُ الغرامُ	فإنه ظلامُ

ثم تناولت غدائي في طمأنينة الحب الموصول ، وإن كنت
لا أدري أين تكون اليوم فتحية ، وكيف حال أجفانها السود ،
وكفها المخضوب ، وحديثها المعسول

لقد كنت سمعت أنها تشكو مرض القلب ، فكيف حالها
اليوم ، وكيف أهلها الأعراء

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحبَّ إلى قلبي وعيني من أهلي
إني لا أغدر الناس إن لم أختص هذه المظلومة بما أملك من رفق
وحنان ، فقد مر عهد كنت لها كل شيء ، وكانت لي كل شيء ،
ولا يعلم إلا الله كيف أضاعت هذه الفتاة قلبي وحياتي مدةً من الزمان

ثم تناسي كلانا صاحبه ، منذ تبدى لنا الدهر وهو أضنّ وأبخل من
أن يهجع عن المحبين السعداء

صديق

ذلك هو حديثي عن ليلة العيد ، فقد تناسيت أشجاني ، وقصرت
ليلي على التسريح بذكرى فتحية ، فليت شعري أيمر بخاطرها في
هذه الليلة طيف ودادنا القديم ؟ أم تراها فتحت قلبها لشواغل
الحياة ، واطمأنت الى أن عهدنا كان حلماً فذهب ، وكان أملاً فضاء ؟
ولنعد الآن إلى البحتری لنرى كيف راجعت الحياة ، حين

راجعنا الشوق ، ولننظر كيف يقول

أنبيك عن عيني وطول سهادها ووحدة نفسي بالأسى وانفرادها
وإن الهموم اعتدن بعدك مضجعي وأنت التي وكلتني باعتيادها
خليلي إني ذاكرٌ عهد خلةٍ تولّت ولم أذم حميد وداها
فواعجي ما كان أنضر عهدا لدى وأدنى قربها من بعادها
وكنت أرى أن الردى قبل بينها وأن افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسى من عاديت من أجل فقده بلادى ولولا فقده لم أعادها
وهذه يا صديقي أبيات لم أبحث عنها . ولكنها واجهتني صارخة

حين فتحت الديوان ، ولننظر كيف يقول من قصيدة ثانية

ضمانٌ على عينيك أنى لا أسلو وأن فؤادى من جووى بك لا مخلو

ولو شئت يوم الجزع بل غليله

محب بوصل منك إن أمكن الوصل

ألا إن ورداً لو يزداد به الصدى وإن شفاء لو يصاب به الخبل

وما النائل المطلوب منك بمعوز لديك بل الاسعاف يعوز والبذل

أطاع لها دل غرير وواضح

شتيت وقد مرهف وشوى خذل

وألحظ عين ما علقن بفارغ نخلينه حتى يكون له شغل

وعندي أحشاء تساق صباة إليها وقلب من هوى غير هاغل

وما باعد النأى المسافة بيننا فيفرط شوق في الجوانح أو يغلو

هذا هو البحترى الذى قضيت أسابيع ألقب ديوانه فلا أرى

فيه غير أشباح. فيعجبا كيف عاودته الروح وكيف عاد إليه سحره

القديم ! إن فى ذلك لدليلاً على أن الشعراء لا يمحيون إلا على السنة

القراء ، والشاعر الذى يجد قارئاً يفهمه كالمغنى الذى يجد سامعاً

يتذوق أغانيه ، ومن هنا كان الشعراء يتفاوتون فى حظوظهم عند

الناس ، فهذا يثير عاطفة طال غزوها للقلوب ، وذاك يثير خالجة

لا تطيف بالنفوس إلا لماماً ، وبقدر تغنى الشعراء بهواجس

الأحاسيس يكون نصيبهم من الخلود

صديق ! لقد غفت العيون ، وطوى الليل تحت سدوله أرباب

النعيم وأنضاء الشقاء ، فكم من قلب يتذوق أكواب الحب ، وكم
من كبد تنزى فوق جمرات البؤس ، وأنا فى دنيا صاحبة من
أشجاني وأحزاني : فهذا وجد قى ، وذلك وجد قديم ، وتلك صباية
دفتها منذ عشر سنين وبعثتها ليلة العيد ، كل أولئك يغزو قلبى فى
قسوة دهاقسوة الحظ العائر على الرجل النليل ، وأين أنا يارباه
من أحنو عليهم وأذيب فى حبهم لفائف الفؤاد ؟

وما يدرينى لعل منسى من جميع من أشتاق إليهم وأبدد بذكراهم
لحب النهار وهدوء الليل !

لاتزال عندى من الشوق بقايا ، فهل عند من أهواهم من
العطف بقية ؟

أم كتب على أن أقضى العمر فى التغنى بقول بعض الشعراء :
سيد كرنى الناسون يوم تشوكم شمائل من بعض الخلائق سود
سيد كرنى الناسون حين تروهم صنائع من ذكرى هواى شهود
فوالله ما أسامت عهدى لغدرة ولا شاب نفسى فى الغرام جحود
ولا شهد الناسون منى جناية على الحب إلا أن يقال شهيد
وإليك يا صديق أقدم أطيب الأمانى بأن يعيد الله عليك
أمثال هذا العيد ، وأنت على ما أحب لك من عافية البدن ، ونعيم
القلب ، وهدوء البال . والسلام

فهرست

صفحة	صفحة
١٣٧ ويل الشجى من الحلى	٣ الاهداء
١٤٩ حديقة النباتات	٤ تمهيد
١٥٥ الاذنب والحياة	٧ بين الحب والمجد (شعر)
١٦٤ جواب الأستاذ السباعى	٨ ثورة الوجد (شعر)
١٧٠ حياة العمال فى باريس	٩ إلى باريس
١٧٧ مرسيليا	١٥ الحب الاثيم فى باريس
١٨٤ الشيخ عبد الباقي سرور	٢٢ الحب فى باريس وفى ليفربول
١٨٧ كوست وبيبلونت	٢٨ صيد القاهرة أم صيد باريس ؟
١٩٤ انتحار شاعر مصرى	٣٥ شهداء السنين
٢٠٠ الحديث ذو شجون	٤١ حديث المائدة
٢٠٣ المعرض الدولى	٤٢ ماذا يملك رئيس الجمهورية
٢١٢ عودة الجنس اللطيف	٥٠ كان ياما كان
٢١٤ ليلة على شاطئ المانش	٥١ زفرات (شعر)
٢٢١ اختيال الطاووس	٥٢ سهرة فى قهوة الجامع
٢٢٩ نزهة فى طيارة	٦٣ (فكاهات مختلفة)
٢٣٦ يوميات عيد الحرية فى باريس	٧٠ جواب الأستاذ السباعى
٢٤٤ عيد الملاح فى باريس	٧٥ ثورة على الوجود (شعر)
٢٥٠ قلب المرأة	٧٨ الاذنب وأستاذة الآداب
٢٥٧ معرض الازهار فى باريس	٨٨ ذكريات حى الشباب
٢٦٦ من غربة إلى غربة	٩٨ كيف النجاة (شعر)
٢٧٦ أيام البحر ولياليه	٩٩ غريب فى باريس (شعر)
٢٨١ ارواح الذكريات	١٠١ ملاهى طلبة الطب
٢٩٠ هادم اللذات	١٠٨ غانيات الحى اللاتينى
٢٩٢ الان فهمت	١١٤ صلاة الجمعة فى باريس
٢٩٣ نجوى القلب (شعر)	١٢٠ بين فصول الكتاب
٢٩٤ بين الرشد والغواية	١٢٦ محمود بيرم
٣٠٣ ألوان من اتجاهات الاذواق	١٣٠ لطفك (شعر)
٣١١ على أطلال الجمال (شعر)	١٣١ هذه باريس وهذا باريس
٣١٢ فى ليلة العيد	١٣٦ الطالبة عندنا وعندهم

SOUVENIRS DE PARIS

Peinture des luttes entre la passion et la raison,
le bien et le mal dans la Ville - Lumière

par

ZAKI MUBARAK

Directeur de l'enseignement de l'arabe

à l'Université Américaine du Caire

Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

Le Caire

1931

